العالم الإسلامى

فى التاريخ الحديث والمعاصر

اليقظة الإسلامية

فى العالم الإسلامى

دكتور

مصطفى محمد رمضان

أستاذ ورئيس قسم التاريخ والحضارة

كلية اللغة العربية بالقاهرة

جامعة الأزهر

١٩٩٨/١٩٩٧

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إذا نظرنا إلى العالم الإسلامي اليوم فإننا نجد به يقظة إسلامية في كل مكان ، غير أنها غير متماسكة وغير منظمة ، ويحد من تنظيمها انعدام الديمقراطية في العالم الإسلامي ، فالشعوب الإسلامية كلها تشعر بشعور واحد إزاء النزلات والأزمات التي تنزل بها ، ويشل حركتها نظم الحكم الاستبدادية غير الديمقراطية ، فالشعوب تريد أن تعبر عن إرادتها الموحدة ، ولكن يحول دون ذلك الحكام الضعاف الذين يخشون الدول الكبرى مثل أمريكا وفرنسا وبريطانيا ، وهي الدول القادرة على أن تبطش بهم وتخلعهم من عروشهم التي اغتصبوها بالقوة دون أخذ رأي شعوبهم .

ويوم أن تسود الديمقراطية في العالم الإسلامي فإننا سنجد رأيا عاما متحدا إزاء الأزمات ، لأن الديمقراطية ستفرز حكاما اختارهم الشعب اختيارا حراً بمحض إرادته ، وسيزول المرض العضال الذي طالما شكا العالم الإسلامي منه ؛ وهو مرض الفرقة ، الذي جعلنا متفرقين أمام الغرب المتحد ضدنا ، وسبب هذا المرض فساد نظم الحكم في العالم الإسلامي سواء أكانت ملكية أم جمهورية ، وهذه هي مشكلتنا التي كانت سبب تأخرنا عن الغرب .

إن الغرب أصلح نظم الحكم الملكية والجمهورية ، وأصبحت مسألة انتقال وتداول السلطة تحكمها قوانين ودساتير مرعية ، وتنتقل السلطة لديهم الآن من حاكم إلى آخر انتقالا سلميا دون إراقة دماء ، ودون هزة للمجتمع .

أما في كثير من أقطار العالم الإسلامي فإن الحاكم لا يترك مكانه إلا بقوة السلاح أو بالموت ، ومن هنا جاء حرص الكثير منهم على كرسي الحكم أكثر من حرصه على مصلحة البلاد التي يحكمها .

ولذلك فإن الأمل ضعيف في تغير سريع يأتي من قبل الدول الإسلامية الكبرى .

هذا في الوقت الذي تدخل فيه اليقظة الإسلامية دورا جديدا من أدوارها ، فبينما كانت تقوم فى الماضى على أكتاف الدول الإسلامية الرئيسية المعروفة مثل السعودية فى الجزيرة العربية ومصر وإيران وباكستان وأفغانستان إذ بنا نجدها فى العقد الأخير من القرن العشرين تنتقل إلى زعامات من بين الأقليات الإسلامية فى العالم وتشير التطورات الأخيرة إلى أن هذه الزعامات ستلعب دورا كبيرا فى مجال اليقظة الإسلامية وعلى الأخص الأقليات الموجودة فى الدول الديمقراطية فى أمريكا وأوربا .

والمؤشرات الأخيرة تؤكد ذلك بدليل ما يحدث الآن فى أمريكا بقيادة جماعة « أمة الإسلام » بزعامة « لويس فرقان » وهو الذى أصبح يجوب فى أنحاء العالم بحرية تامة لا يستطيع أحد زعماء اليقظة الاسلامية فى الدول الاسلامية أن يفعل مثله حيث قام بزيارة بعض الدول الاسلامية المحاصرة مثل إيران وسوريا والعراق وليبيا والسودان ولم تستطيع أمريكا أن تحد من تحركاته خوفا من تفجر العداء العنصرى فى أمريكا من جديد بين السود والبيض .

فقد وصل زعيم حركة « أمة الاسلام » إلى بغداد فى فبراير سنة (١٩٩٦م) وألتقى بالرئيس صدام حسين وعقد مؤتمرا صحفيا دعى فيه إلى رفع الحصار عن الشعب العراقى وإتخاذ الوسائل اللازمة للوصول إلى مصالحة مع دول الخليج وإيران وسوريا ، وأكد فرقان أن زيارته تهدف إلى معرفة حقيقة الأوضاع التى يعيشها العراقيون وما يمكن عمله لرفع الحصار عنهم .

كما وصل فرقان إلى دمشق بعد بغداد فى نفس الشهر وأدى صلاة الجمعة فى مسجد (أبو النور) وسط جمع غفير بناء على دعوة الشيخ أحمد كفتارو مفتى سوريا .

وأكد فرقان أن المد الإسلامى يمر بفترات مخاض ستؤدى إلى سيادته فى العالم وأن القرآن يعطينا الحق لمساعدة إخواننا دون أذن من الأمم المتحدة وأن المسلمين لديهم القدرة على أن يكونوا القوة العظمى فى القرن الـ ٢١ مشيرا إلى أنه قرن الإسلام[١] .

وطالب فرقان كلاً من سوريا والعراق بإزالة الفواصل ونسيان الخلافات وفتح الحدود المغلقة منذ عام ١٩٨٠م فيما بينهما كما طالب إيران والعراق بالتصالح ونسيان الماضى ولم يكد يمضى عام على هذه النصائح لهذه الدول حتى توجهت إلى المصالحة .

وقد وجهت الإدارة الامريكية إلى فرقان أنتقادات شديدة بسبب زيارته لكل من ليبيا وإيران وزعم الناطق باسم الخارجية الأمريكية أنه من المعيب أن يقوم مواطن أمريكى وزعيم دينى كبير فى الولايات المتحدة بالاحتفال والزهو مع القذافى والقيادة الايرانية .

كما دعى النائب الأمريكى (بيتر كينج) لجنة العلاقات الدولية لمجلس النواب إلى التحقيق فى جولة فرقان إلا أن هذه الدعوة واجهت نفورا من بقية أعضاء المجلس وبخاصة أنها يمكن أن تفتح ملف النزاعات العنصرية من جديد[٢].

ولكن لويس فرقان رد على المنتقدين له وذكر بأن الانتهاكات التى يتعرض لها المسلمون فى أمريكا التى تدعوا إلى حقوق الانسان ذكر أن هذه الانتهاكات غير إنسانية فالمسلمون فى أمريكا يعاملون كعبيد ويحرمون من القراءة والكتابة حتى لا يكونوا مسلمين وأضاف أن الولايات المتحدة التى صارت القوة الوحيدة فى العالم تحتاج إلى رسالة الإسلام ، مؤكدا أن الاسلام وحده يجعل أمريكا قوة عظمى ويقضى على العقلية العنصرية والمادية .

---

(١) جريدة الشعب عدد ٢٣/ ٢/ ١٩٩٦م .

(٢) المرجع السابق .

وبينما المسلمون فى الدول الإسلامية الكبيرة أحيط بهم بسبب مخاوف حكامهم من عقاب أمريكا والغرب لهم ، وأصبحوا مجبرين على مواقف تمليها عليهم الدول الغربية وعلى الأخص ما يسمى بالنظام العالمى الجديد ، إذا بنا نجد فتحا جديدا فى مجال اليقظة الإسلامية من مكان لم يكن متوقعا وهو من الأقليات الإسلامية فى الدول الغربية وعلى الأخص أمريكا إعتمادا على ديمقراطية هذه البلاد التى تمنح الأقليات حرية التحرك (ولويس فرقان) واحد من قادة التكوينات الإنسانية التى تتعرض إلى الاضطهاد والملاحقة والتميز بسبب الدين والعنصر والجنس ، تبنى الدعوة الى التمسك بالدين الاسلامى مخرجا ومحاولة للخلاص من واقع هذا الثلاثى البغيض وقسوته ، وهو وفق المفاهيم الديمقراطية والتمثيل البرلمانى أحد القادة المرموقين بسبب إلتفاف بحر المضطهدين الهادر من السود وغيرهم فى الولايات المتحدة حوله والنظر إليه على أنه أمل المستقبل لرفع الظلم عنهم .

والدليل على ذلك المظاهرة الحاشدة التى شهدتها واشنطن مؤخرا وزادت على المليون مواطن أمريكى مسلم وأسود للأحتجاج على التفرقة العنصرية وإهمال السود فى أمريكا وهو دليل واضح على تأثير ووزن هذا الزعيم وأتباعه الذين يعدون بالملايين وهو طبق القانون الأمريكى حر فى هذا وتأمين سلامته وحمايته الذاتية أمر ملزم للسلطات الأمريكية .

ولم يكتف لويس فرقان بما فعل من نجاح فى أمريكا وإنما خرج من حلقه الصراع فى الولايات المتحدة وغادر بلاده ليزور العديد من البلدان فى أفريقيا وآسيا وبعضها دول إسلامية لا تشعر الولايات المتحدة بالارتياح إليها أو الأطمئنان إلى جانبها فأقيمت القيامة ولم تقعد فى أمريكا حتى الآن (سبتمبر ١٩٩٧م) .

مع أن فرقان لم يقترف جرما أو يرتكب جناية تعاقب عليها القوانين

الأمريكية حتى أن واشنطن هددته قبل أن يعود بالسجن والاحالة إلى القضاء والسبب أنه زار دولا إسلامية ليست على وفاق مع الإدارة الأمريكية وليس مع الشعب الأمريكى الذى لا ناقة له ولا جمل بأحابيل السياسة ونفاق السياسين.

وعادت النغمة المعادية للعرب والمسلمين مجددا فى أجهزة الدعاية الأمريكية الصهيونية الى الصدارة ولكن هذه المرة مع تحفظ فأعلنت أمريكا الدولة أن الخصم ليس الدين الإسلامى « العظيم » (؟؟!!) .

وإنما الخصم كما ترى أمريكا السياسية هو أولئك الذين يختفون وراء الدين الاسلامى ، وتعنى بهم الذين لا يبادلون واشنطن الرغبة فى أعتبار كل شيئ فى العالم مجرد أقطاعية مسجلة لأمريكا [١] .

وبدأت الصحافة الاسلامية فى العالم تصف لويس فرقان بأنه يملك أوراقا رابحة « وإنه هزم الحكومة الأمريكية واللوبى الصهيونى بالضربة القاضية» [٢].

وكان الإعلام الصهيونى قد ضخم بعض التصريحات التى أدلى بها فرقان فى ليبيا وقال بأنه قبل مليون دولار من ليبيا إلا أن ليبيا نفت ذلك وكذلك نفاه فرقان ، إلا أنه لم ينف قبوله أى دعم ليبى لبناء مؤسسات وتقديم خدمات للمسلمين السود ، واتهمه الإعلام الصهيونى بوصف أمريكا بأنها « الشيطان الأكبر » وأنه ادعى بأن أمريكا ستدمر بأيدى المسلمين .

وسارع نواب اللوبى الصهيونى فى الكونجرس الأمريكى بالتحرك والمطالبة بمحاكمة فرقان فور عودته لأنه (عميل ليبى) (؟؟!!) قبل أموالا من

---

(١) حسن آل بلال ، من مقال له بعنوان : « إعادة كتابه التاريخ » في مجلة العالم التي تصدر في لندن باللغة العربية ، عدد ٥٤٠ ، مارس ١٩٩٦م .

(٢) جريدة الشعب ، القاهرة ، عدد ٥/ ٣/ ١٩٩٦م .

ليبيا لأنه ذهب إلى ليبيا [1] ، والعراق دون الأذن الخاص من الخارجية الأمريكية بل لقد صعد اللوبي الصهيوني من حملته وعلقت الصحف اليهودية (مثل أسبوعية واشنطن جيويش ديك) على زيارة فرقان بأنها خرق للقوانين الأمريكية وتضمنت عداء لأمريكا أكثر من عداء حكام هذه الدول لأمريكا .

وكان من الواضح أن اللوبي الصهيوني يحاول انتهاز الحدث لتدمير فرقان وجماعته ، أو حرق صورته أو نفوذه على الأقل لسبب بسيط هو أن (اللوبي الأسود) المتعاظم ينافس (اللوبي الصهيوني) في النفوذ والتأثير على الادارة الأمريكية وكلاهما متعارضان ، وأن كبر حجم اللوبي الأسود يحرم اللوبي الصهيوني من مزايا عديدة .

فرقان يتحدى وينتصر :

ويبدو أن فرقان كان يدرك جيدا قوة الأوراق التي في يده بالاضافة إلى احتياطه لذلك بخطوات قانونية ولذلك أعلن تحديه الحكومة الأمريكية أن تحقق معه وقال : (أتحدى تهديدكم الزائف .. أحيلوني إلى الكونجرس .. حان الوقت للمواجهة) فهو قد قام بالفعل في يناير الماضي ـ حسب اعتراف نيكولاس بيرنز المتحدث الرسمي باسم الخارجية الأمريكية ـ بإرسال خطاب للخارجية الأمريكية يبلغهم فيه اعتزامه القيام برحلة لأفريقيا والشرق الأوسط دون تفاصيل عن الدول التي سيزورها ، ومن ثم فلم يخالف القانون الأمريكي. أيضا هو يملك وثائق رسمية عن الأموال التي تتقاضاها كل عضو في الكونجرس من اللوبي اليهودي الموالي لإسرائيل ولذلك قال : (أريدكم أن تحيلوني الى

---

(١) ذكر لويس فرقان في مؤتمر صحفي له في ليبيا أن أحد مصادر تمويل أمة الإسلام التي تتخذ من مدينة شيكاغو مقرا لها مصنع لإنتاج ورق الحمام مولته ليبيا . انظر مجلة الوسط اللندنية عدد ٣ شهر ٣ سنة ١٩٩٦ . من مقال بعنوان : « فرقان يتحدى اللوبي الإسرائيلي » .

الكونجرس وتطالبونى بتسجيل نفسى كعميل أجنبى ـ وهى تهمة عقوبتها ٢٩ سنة سجنا ـ عندها سأكشف كم من أعضاء مجلس الشيوخ هم أعضاء فخريون فى الكنيست الإسرائيلى) .

والأهم أنه لعب جيدا على وتر الخلافات العنصرية فى أمريكا ويدرك أن الحكومة الأمريكية سوف تفكر جيدا قبل التعرض له لئلا تثير حولها مشكلة جديدة ـ والانتخابات على الأبواب ـ مع السود وتظهر مرة أخرى بمظهر عنصرى خصوصا أن منظمة « أمة الإسلام » نفسها سبق أن اتهمت السلطات الأمريكية بأنها تتآمر على فرقان وعلى المنظمة وعلى السود ككل . بعبارة تجنبت الإدارة الأمريكية (نكش عش الدبابير) حتى لا تستفز مشاعر المسلمين والسود فى أمريكا لخطورة ذلك اجتماعيا فقد سبق أن قام السود عام ١٩٩٢ بانتفاضة فى لوس أنجلوس وعشرات المدن الأمريكية الأخرى بسبب اعتداء الشرطة على سائق تاكسى أسود وحدث الأمر نفسه أثناء محاكمة «سيمسون» إلا أن تبرئة ساحته أجلت أى ثورة غضب ، ولذلك تراجعت الحكومة سريعا عن التصعيد وفاز فرقان بالقاضية لترفع أسهمه أكثر وأكثر بين المسلمين والسود .

جولة فرقان إذن تبدو وكأنها الوجه الآخر (الخارجى) لفوز فرقان (الداخلى) عقب مسيرة المليون وستعطيه دفعة لمزيد من الضغط على الادارة الأمريكية وهو أكثر ما يقلق اللوبى الصهيونى خصوصا أن عدد السود (٣٣) مليون واليهود حوالى (٥) ملايين [١] .

ولقد حقق الأمريكيون السود مكاسب سياسية مهمة إذ أن رؤساء بلديات عدد من المدن الأمريكية مثل نيويورك وشيكاغو ولوس أنجلوس

---

(١) الشعب ، القاهرة ، عدد ٥/ ٣/ ١٩٩٦م .

وفيلادلفيا وبلتيمورود بترويت من السود مع أن الغالبية الساحقة من سكان هذه المدن من البيض ، وهناك بالطبع مدينة واشنطن العاصمة التى يبلغ عدد السكان السود فيها حوالى ٧٠٪ .

أما فى الكونجرس فإن الأعضاء السود يمثلون بمعظم دوائر انتخابية غالبية سكانها من البيض .

وبذلك تحقق جزء من الحقوق المدنية مع البيض ولكن بقوة المواجهة بزعامة لويس فرقان زعيم أمة الاسلام .

ولكن لم يسلم من المنظمات الصهيونية التى اتهمته بمعاداة السامية وبالعنصرية السوداء بعد أن نسبوا إليه بعض التصريحات التى تصف اليهودية بأنها دين الدرك الأسفل ، ووصف اليهود بأنهم مصاصوا دماء ، ولكنه طالبهم بإجراء حوار مع القيادات اليهودية قائلا لها : إذا كنتم قد التقيتم بعرفات رغم الدم الذى سال بينكم فلماذا ترفضون الالتقاء بى وليس هناك دم بينى وبينكم !!

وبصفة عامة فإن ما حدث فى أمريكا مؤشر جيد على أن المسلمين قد أصبحوا قوة قادرة على التحرك والتأثير على صناع القرار ، وللأسف لم تكن هذه القوة من تأثير البلاد الاسلامية والعربية وإنما هى قوة داخلية سببها انتشار الإسلام بين جماعات السود وبجهود تمت منذ الخمسينيات والستينيات على يد « أليجا محمد » زعيم المسلمين فى ذلك الوقت الذى نجح فى نشر الاسلام بسرعة البرق بين عائلات أمريكية كثيرة . الى أن أصبحوا بهذه القوة فى عهد وتحت زعامة لويس فرقان الذى يبلغ من العمر ٦٢ سنة وأتم اليوم (١٩٩٧) حوالى ٣٧ سنة مسلما [١] .

---

(١) مجلة التصوف الإسلامي ، عدد جمادى الآخر سنة ١٤١٦هـ / نوفمبر ١٩٩٥م ، ==

وبعد :

فإنى أردت أن أسجل هذا التطور فى مجال اليقظة الاسلامية وأنا أكتب مقدمة هذه الموضوعات التى تتصل باليقظة الاسلامية منذ القرن الماضى فى أفريقيا وآسيا . مثل الحركة السنوسية فى ليبيا والقادرية فى غرب أفريقيا والمهدية فى السودان .

وحركة اليقظة فى كل من تونس والجزائر والمغرب ، واليقظة الاسلامية فى الهند وفى جنوب شرقى آسيا والصين .

أ . د . مصطفى رمضان
أستاذ ورئيس قسم التاريخ والحضارة
جامعة الأزهر

= الصفحة الأخيرة ، مقال بعنوان « المسلم الذي فرض نفسه زعيما أمريكيا » بقلم : محمد فهمي .

تمهيد تاريخي

تمهيد تاريخى:

ظهر الاسلام فى الجزيرة العربية على يد محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام وفى فترة وجيزة من الزمن سادت مبادىء الاسلام تلك الجزيرة ، فقد صهرت تلك المبادىء العرب من جديد وحولتهم من أمة ممزقة متنازعة متقاتلة على أتفة الأشياء الى أمة مترابطة ، وحولت ارادة القتال بينهم الى الدفاع عن الاسلام ومبادئه .

وانطلق المسلمون فى عهد الخلفاء الراشدين إلى خارج الجزيرة العربية يخرجون الناس من الظلمات إلى النور ، وفى نحو قرن من الزمان تمكنوا من السيادة على نصف الدنيا فى الشام ومصر والعراق وفارس وما وراء النهر وشمال أفريقيا والأندلس . وقهروا أعظم قوتين يومئذ وهما امبراطوريتى الفرس والروم فزالت الأولى على يدهم وامتد الصراع مع الثانية . فأذهل المسلمون العالم يومئذ بتلك السرعة غير العادية .

وكان هذا النجاح السريع بفضل سمو مبادىء الإسلام التى تمسك بها المسلمون الأوائل والتى غيرت حياة العرب وغيرهم من الأمم فنقلتهم من جور الحكام إلى عدالة الإسلام السماوية ، فكانت بحق فتحاً جديداً مشرقاً فى حياة الأمم التى دانت بالاسلام .

واستمر الإسلام فى تقدم وانفتح المسلمون على معارف الدنيا القديمة فى العصرين الأموى والعباسى الأول فاستوعبوها وصاغوا حضارة إسلامية راقية ومتميزة فى العصر العباسى الثانى بلغت الذروه فى القرن الرابع الهجرى.

وفى النصف الأول من القرن السابع الهجرى اجتاح الأعصار المغولى المدمر بلاد الإسلام الشرقية الأسيوية ، فكانت كارثةعطلت سير الحضارة الإسلامية وتطورها الثقافى الهادىء فى دنيا الإسلام وحطم الكيان السياسى

للدولة العباسية وفى سنة ٦٥٦ هـ اقتحم المغول بغداد بقيادة هولاكو فى وحشية مدمرة متعطشة للدم، وأسقطوا الخلافة العباسية، وداسوا التراث الإسلامى بأقدامهم عندما جعلوا من الكتب والمصاحف جسرا يعبرون عليه نهر دجلة .

وكان ذلك بسبب ضعف المسلمين وتنازعهم وانقسامهم ، فقد أضحى الجزء الشرقى من بلاد المسلمين ألعوبة فى يد الأتراك المتغلبين الذين زرعت حروبهم المتواصلة الدمار والخراب فى الدولة الإسلامية ، فأضعفت بذلك الخلافة الإسلامية ، وصار الخليفة فى بغداد ألعوبة فى يد الأتراك أيضاً فسقطت بغداد فى يد المغول لقمة سائغة وفريسة هينة .

وطلب المغول من حكام مصر (المماليك) الاستسلام فردوا عليهم بهجوم ساحق شنوه عليهم فى فلسطين ، وأنزلوا بهم هزيمة حاسمة فى معركة (عين جالوت) قرب الناصرة سنة ٦٥٨هـ (١٢٥٩ م) وتمكن المماليك بذلك من إيقاف الزحف المغولى عند حده وأنقذوا الحضارة الإنسانية وما تبقى من الحضارة الإسلامية فى مصر والمغرب من عبث المغول .

وكانت غارات المغول أفظع كارثة حلت بالعالم الإسلامى بل بالإنسانية كما قرر تلك الحقيقة المؤرخ عز الدين بن الأثير فى لهجة باكية مؤثرة فى معرض كتابته عن تلك الأحداث سنة ٦١٧ هـ (١٢٣٠م) فيقول : « لقد بقيت عدة سنين معرضاً عن ذكر هذه الحادثة استعظاماً لها ، كارها لذكرها ، فأنا أقدم إليه رجلاً وأؤخر أخرى ، فمن الذى يسهل عليه أن يكتب نعى الإسلام والمسلمين ، ومن الذى يهون عليه ذكر ذلك ؟ فياليت أمى لم تلدنى ، وياليتنى مت قبل حدوثها وكنت نسياً منسياً ، إلا أنى حثنى جماعة من الأصدقاء على تسطيرها وأنا متوقف ، ثم رأيت أن ترك ذلك لا يجدى نفعاً .

نقول : إن هذا الفعل يتضمن ذكر الحادثة العظمى و المصيبة الكبرى التى عقمت الأيام والليالى عن مثلها ، عمت الخلائق وخصت المسلمين ، فلو قال قائل : إن العالم منذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم وإلى الآن لم يبتل بمثلها لكان صادقاً ، فإن التواريخ لم تتضمن ما يقاربها وما يدانيها » (١).

ثم يستشهد بقول المولى عز وجل حين يقول : « وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له وما لهم من دونه من وال » .

ودخلت الخلافة الإسلامية بعد سقوط بغداد فى يد المغول فى طور جديد من أطوارها ، فبعد أن قوض المغول خلافة بنى العباس فى العراق عمد السلطان (الظاهر بيبرس) السلوكى إلى أقامة الخلافة العباسية من جديد فى القاهرة عاصمة دولة المماليك رغبة منه فى أن يخلق على حكمه صفة شرعية وكان للمكانة التى نالتها مصر بانتصارها على التتر لأول مرة أثر كبير فى رفعتها فاتجه العالم إلى مصر ورضى أن تكون دار الخلافة بها بعد العراق وأن تكون القاهرة بدل بغداد .

وقد شغر منصب الخلافة ثلاث سنين من سنة ٦٥٦هـ إلى سنة ٦٥٩هـ، وقد رأى المسلمون أن عملية إقامة خليفة مهما يكن ضعفه فأنه رمز للوحدة الإسلامية وربما يصبح الرمز حقيقة فى يوم من الأيام .

فاستدعى الظاهر بيبرس رجلاً من نسل بنى العباس سنة ٦٥٩هـ سمى (بالمستنصر) وقلده الخلافة فى القاهرة ، ولم يكن للخليفة العباسى فى مصر شيئا من السلطة فى ظل سلاطين المماليك من سنة ٦٥٩هـ - ٩٢٣هـ فقد أدى نظام الخلافة الإسلامية فى هذه الفترة إلى الإنهيار . فانفصلت السلطة الزمنية

(١) عز الدين بن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، جـ ١٢ ص ٣٦١ ، طبعة دار صادر للطباعة ، بيروت ١٣٨٦ هـ/١٩٦٦هـ .

السياسية عن السلطة الدينية ، حيث تقلد سلاطين المماليك السلطة الزمنية السياسية وتركوا للخليفة العباسى السلطة الدينية مثل الظهور فى بعض الاحتفالات الدينية بمطلع العام الهجرى والمولد النبوى الشريف ورؤية أهلة الشهور العربية والاحتفال بالعيدين وتنصيب أحد سلاطين المماليك بعد تغلبة على السلطة وحصوله عليها بالغلبة فيأتى بعد ذلك دور الخليفة من الناحية المظهرية فحسب . وتردت الخلافة الإسلامية فى هذه الفترة إلى الحضيض فيذكر المؤرخ المصرى أحمد بن اياس فى حوادث سنة ٩٢٣هـ أن الخليفة المتوكل على الله آخر الخلفاء العباسيين فى القاهرة كان من بين موارده بعض أموال صناديق النذور التى تجمع من أضرحة آل البيت بالقاهرة . وكان المتوكل على الله هو الذى يتولى النظارة على مشهد السيدة نفيسة « ويقول ابن اياس أيضاً بأن النظارة على ذلك المشهد كانت بيد الخلفاء من قديم الزمان»(١) .

ومهما يكن من شىء فإن سلاطين المماليك استفادوا من وجود الخليفة بالقاهرة ، فقد أسبغت عليهم هذه المسألة قوة وصيتاً فى العالم الإسلامى وجعلت منهم سلاطين على العالم الإسلامى عامة لا سلاطين مصر وحدها(٢).

وفى غضون ذلك تعرضت منطقة القلب من العالم الإسلامى فى الشام ومصر لهجمات صليبية غادرة شنها الغرب المسيحى بهدف قهر الإسلام فى عقر داره والقضاء على المسلمين ، وقد بدأت هذه الحروب عام ٤٩٠هـ

---

(١) أحمد بن اياس ، بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، الطبعة الثانية ، تحقيق محمد مصطفى ، القاهرة ١٩٦٠م ج ٥ ص ٢٩٢ .

(٢) الإمام محمد أبو زهرة الوحدة الإسلامية ، ط ٢ ص ٢٢٢ .

(١٠٩٦م) بالحملة الصليبية الأولى ثم انتهت بسقوط عكا فى يد المسلمين بقيادة السلطان المصرى (الأشرف خليل بن المنصور قلاوون) سنة ٦٩١ هـ (١٢٩١ م) وضياع الممتلكات الصليبية فى الشام إلى الأبد .

وحفلت فترة الحروب الصليبية بالعديد من التجارب والعبر المستفادة بالنسبة للمسلمين والصليبيين على السواء . وقد تبلورت هذه الدروس المستفادة بالنسبة للصليبيين فى وصية كتبها لويس التاسع ملك فرنسا الذى قاد الحملة الصليبية السابعة على مصر فى عام ٦٤٧ هـ (١٢٤٩م) حيث نزل فى دمياط وزحف على المنصورة حيث منى فيها بهزيمة نكراء فى موقعة عرفت بموقعة المنصورة عام ٦٤٨هـ (١٢٥٠م) وفيها تم أسر لويس وسجن بالمنصورة فى دار ابن لقمان التى لا تزال على حالها إلى الآن ثم افتدى نفسه من الأسر بمبلغ من المال وعاد إلى بلاده يجر أذيال الخيبة والفشل .

وقد أتاحت فترة السجن للويس فرصة هادئة للتفكير بعمق فى السياسة التى يجب على الغرب اتباعها بعد ذلك إذا ما فكر فى غزو الشرق الإسلامى وصاغ هذه السياسة فى وصية ، وكانت أهم بنود هذه الوصية هى :

أولاً : تحويل الحملات الصليبية العسكرية إلى حملات صليبية سلمية تستهدف الغرض نفسه ، ويكون سلاح الحملات الجديد هو أثارة الخلافات بين الأوساط الإسلامية واشاعة التفكك فى وحدة المسلمين فينهار بذلك الإسلام .

ثانياً : استخدام من يمكن أغراؤهم من مسيحيى الشرق فى تنفيذ سياسة الغرب .

ثالثاً : انشاء قاعدة للغرب فى قلب الشرق العربى يتخذها الغرب نقطة

ارتكاز لقوته الحربية للقضاء على الإسلام وعين لذلك ساحل الشام [١] ثم أضاف الغرب بعد ذلك مصر ، واتضحت بذلك أهمية الشام ومصر باعتبارهما القاعدة المعنوية والاستراتيجية للدفاع عن الإسلام إلى كونهما رأس جسر يمكن للغرب عبوره متسللاً إلى آسيا وأفريقيا[٢].

وسوف نرى فيما بعد كيف حاول الغرب الاستفادة من بنود هذه الوصية سواء فى مجال استعمار الشعوب الإسلامية أو فى مجال الغزو الفكرى فيها .

اوضاع المغرب الإسلامى والأندلس :

هذا عن شرقى العالم الإسلامى وقلبه أما فى غربى العالم الإسلامى فإن الأندلس كانت قد تغير حالها من الوحدة إلى التمزق بسبب تفرق أهلها فإن تلك البلاد التى عاشت ردحاً طويلاً من الزمن نحو سبعة قرون فى ظل وحدة سياسية قوية أصبحت ممزقة تجد فى كل ناحية أميراً ودولة ، وصدق قائلهم حين قال :

ألقاب مملكة فى غير موضعها   كالهر يحكى انتفاخا صولة الأسد

وانتهى بهم هذا التفرق إلى دمار ، وأخذ الأسبان يقتطعون منها الاقليم تلو الاقليم ، وبينما كانوا هم متفرقين بدأ عدوهم يتحد ، فاتحد فرديناند ملك (أرجونة) وايزابيلا ملكة (قشتالة) ، فى مملكة واحدة عن طريق الزواج السياسى بين الملكين سنة ١٤٦٩م ذلك الزواج الذى نتج عنه أسبانيا الحديثة التى تمكنت فى عهدهما من توحيد شبة جزيرة الأندلس ما عدا البرتغال ،

(١) محمد على الغتيت ، الشرق والغرب من الحروب الصليبية الى حرب السويس ، المرحلة الأولى فى الصراع بين الشرق والغرب ، الدار القومية للطباعة ، القاهرة ، لم تذكر سنة الطبع ،ص ٦٥-٦٦

(٢) المرجع السابق ، ص ٨٤ .

وفى عام ٨٩٧هـ (١٤٩٢م) سقطت غرناطة آخر حصن للمسلمين فى أيديهما وطرد الأسبان ملكها «الزغبى» أى المشئوم وهو عبد الله بن أبى الحسين بن سعد بن بنى الأحمر ، وتم اخراج عمه أبى عبد الله «الزقل» أى الشجاع من مالقة ، وتم بذلك اقصاء المسلمين عن الأندلس وبعدما استولى الكاثوليك على غرناطة أبرموا صلحاً مع أبى عبد الله ضمن للمسلمين حرية العبادة ، ولم يمر عليه زمن يسير حتى نكث الملكان العهد وأخذا يضطهدان المسلمين الذين لم يجدوا بدا من الفرار بعدما ضيق عليهم الكردينال «فراى دون فرنسيسكو خمينيس» المعروف عند العرب «بابن الخميس» الذى كان الوزير الأول للملكين الكاثوليكيين ، وتنصر الكثيرون ممن بقى من المسلمين فى الأندلس وأخفوا الإسلام وخرج من خرج فى سنة ٩٠٦هـ (١٥٠١م) ومما زاد ابن خمبس قوة وجرأة وصية الملكة ايزابيلا التى قالت فيها بتاريخ ٢٤ من نوفمبر ١٥٠٤م (٩٠٩-٩١٠هـ) قبل موتها ما يلى :

«أطلب من ابنتى الأميرة والأمير زوجى أن يهتما بأمور الايمان (أى الدين) المقدس وأن يشتغلا بدون انقطاع بغزو أفريقيا وبمحاربة الكفار فى سبيل الدين (تعنى محاربة المسلمين)» [1].

وقد أثارت هذه المحن التى توالت على الأندلس فى تلك الفترة المظلمة من تاريخها لوعة الشعر والأدب فبكاها الشعراء والأدباء يوم لا ينفع البكاء ولا يجدى.

---

(١) عبد المجيد بن أبى زيان ، دخول الأتراك العثمانيين إلى الجزائر ، طبع الجزائر سنة ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م ص ١٤ ، ولقد توفيت ايزابيلا فى نفس السنه ١٥٠٤ ، ومن الجدير بالذكر أن زوجها الملك فرديناند توفى سنة ١٥١٦ وملك من بعده حفيده شارك الخامس ١٥١٦ تحت وصاية الوزير ابن الخميسى وانفرد شارل بالسلطة من سنة ١٥٢٧ م وتخلص من ابن الخميسى وقيل أن حاشيته دست له السم فى الطعام.

ونظم شاعر العصر أبو الطيب صالح بن شريف الرندى مرثيته الشهيرة التى ما زالت تعتبر حتى اليوم من أروع المراثى القومية وأبلغها تأثيراً فى النفس، وفيها يبكى قواعد الأندلس الذاهبة ويستنهض همم المسلمين لانجاد الأندلس وغوثها ، ولكن لا سميع ولا مجيب ، على الرغم من أن الدولة العثمانية الفتية كانت قد نشأت منذ زمن بالمشرق الإسلامى واشتد عودها وتمكنت فى سنة ١٤٥٣ من فتح القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية ، ولكنها كانت مشغولة بالتوغل فى أوربا من ناحية الشرق ، وكانت تستطيع أن تمد يد العون الى المسلمين فى الأندلس ولكن ذلك لم يحدث ، كما كانت هناك الدولة المملوكية التى بدأت تضمحل فى مصر والشام ، وكانت مشغولة بالتجارة وكثرة الفتن والانقلابات فلم تفعل شيئا .

وإليك بعض ما جاء فى مرثية الرندى التى خلدت ذكر ناظمها على كر الأحقاب :

لكل شيء إذا ما تم نقصان ... فلا يغر بطيب العيش انسان

هى الأمور كما شاهدتها دول ... من سره زمن ساءته أزمان

وهذه الدار لا تبقى على أحد ... ولا يدوم على حال لها شأن

فجائع الدهر أنواعٌ منوعة ... وللزمان مسرات وأحزان

وللحوادث سلوان يهونها ... وما لما حل بالإسلام سلوان

دهى الجزيرة أمر لا عزاء له ... هوى له أحد وانهد ثهلان[1]

***

(١) ثهلان : جبل لبنى نمير بن عامر بن صعصعة بناحية الشريف بنجد .

فاسأل بلنسية ما شأن مرسية وأين شاطبة أم أين جيان

وأين قرطبة دار العلوم فكم من عالم قد سما فيها له شأن

وأين حمص وما تحويه من نزه ونهرها العذب فياض وملآن

تبكى الحنيفية البيضاء من أسف كما بكى لفراق الالف هيمان

على ديار من الإسلام خالية قد أقفرت ولها بالكفر عمران

حيث المساجد قد صارت كنائس ما فيهن إلا نواقيس وصلبان

***

يا راتعين وراء البحر فى دعة لهم بأوطانهم عز وسلطان

وحاملين سيوف الهند مرهفة كأنها فى ظلام النقع عقبان

أعندكم نبأ عن أهل أندلس فقد سرى بحديث القوم ركبان

يارب أم وطفل حيل بينهما كما تفرق أرواح وأبدان

وطفله مثل حسن الشمس إذ طلعت كأنما هى ياقوت ومرجان

يقودها العلج للمكروه مكرهة والعين باكية والقلب حيران

لمثل هذا يذوب القلب من كمد ان كان فى القلب اسلام وإيمان

كما يستغيث بنا المستضعفون وهم أسرى وقتلى فما يهتز انسان

ماذا التقاطع فى الإسلام بينكم وأنتم يا عباد اللّه اخوان [1]

---

(١) راجع هذه المرثية كاملة فى كتاب : نفح الطيب ج٤ ص٤٨٧ --٤٨٨ وفى كتاب أزهار الرياض ، جـ ١ ط ٤٧ --٥٠ .

وكان سقوط الأندلس فى يد المسيحيين نقطة تحول خطيرة فى تاريخ الإسلام وقف المسلمون بعدها موقف الدفاع ومازالوا حتى يومنا هذا . وأغرى هذا النجاح الأوروبيين بمحاصرة العالم الإسلامى .

الالتفاف الأوروبى حول العالم الأسلامى

من الأخطاء التى وقعت وما زالت تقع فى دراسة ظاهرة الالتفاف الأوروبى حول العالم الإسلامى فى مطلع العصور الحديثة هى أن الجامعات الإسلامية تدرس هذه الظاهرة كما يريفها الغرب المسيحى لنا على أنها نشأت فى البداية بدافع بحث الأوروبيين عن ظروف اقتصادية أفضل وبسبب تنافسهم فى المجال الاقتصادى انطلقوا فى مجال كشف أماكن حيوية لهم و استعمارها .

والواقع لكل من يدرس هذه الظاهرة ويدقق فى الظروف والملابسات السياسية والدينية التى صاحبتها يدرك غير ذلك ، يدرك إذا كان منصفا أن دوافعها كانت صليبية منذ البداية متعصبة مسرفة فى عدائها للمسلمين واضحة فى أهدافها ضدهم .

لقد بدأت قصة هذا الالتفاف الاستعمارى حول العالم الإسلامى مع نهاية القرن التاسع الهجرى « الخامس عشر الميلادى » عندما تم اخراج المسلمين من الأندلس ، وكانت خطة الأسبان تتلخص فى القضاء نهائياً على الأهالى المسلمين تمهيداً لاقامة دولة تعتمد قبل كل شىء على مواطنين أسبانين مسيحيين، كما تشمل هذه الخطة على تطويق أقاليم المغرب الإسلامى واحتلال موانيه المطلة على البحر المتوسط والمحيط الأطلسى واحتلال أقاليم أفريقيا الواقعة الى جنوبه أن لم تتمكن من احتلال المغرب الإسلامى نفسه وتحويله إلى المسيحية . ونجح الأسبان والبرتغاليون فعلاً فى احتلال بعض

الموانى بالمغرب الإسلامى ، وامتد الصراع فى هذه الجبهة زمنا طويلاً حيث صمد المسلمون فى الدفاع عن شمال أفريقيا كما رأينا ، وذلك بفضل تضامن المغاربة مع الأتراك فى جهادهم ، وخرج المسلمون من هذه التجربة بقصة عظيمة من قصص التضامن النادرة فى حياتهم تعطيهم مفتاح النصر على عدوهم أن هم أرادوا لذلك سبيلاً .

واتفق الأسبان والبرتغاليون على الالتفاف حول العالم الإسلامى وتوزعت أدوارهم ، فبينما يلتف البرتغاليون جنوباً حول أفريقيا ، ينطلق الأسبان نحو الغرب عبر الأطلسى بقصد الوصول إلى شرق بلاد المسلمين بعدما تأكد لديهم كروية الأرض ، وذلك ليتمكنوا من حصار المسلمين واحكام القبضة عليهم .

والذى يؤكد هذا المخطط أنه عندما وصل الأسبان إلى أمريكا لأول مرة أطلقوا على سكانها اسم الهنود الحمر ظناً منهم أنهم وصلوا إلى شرق بلاد المسلمين حيث بلاد الهند ، وسموا جزرها التى كانت أول محطة لرحالهم اسم «جزر الهند الغربية» وهذا يدل على ما فى نفوسهم من رغبة وعلى ما فى جعبتهم من مخططات ، ويبدو من هذا تفاهم الأسبان والبرتغاليين فى سير كل منهما فى اتجاه معين بحيث لا يتعارضان مع بعضهما ولا يصطدمان معا أبدا .

وركز الأوربيون فى كتابتهم على أن العوامل التى دفعت الأوروبيين إلى الشرق هى عوامل الكشف الجغرافى وحب المعرفة ثم أضافوا العامل الاقتصادى الذى يكمن فى رغبة البرتغاليين فى المشاركة فى أرباح التجارة الشرقية،وأن البرتغاليين وقعوا تحت تأثير أهالى جنوه عندما كانت البندقية تحتكر الأسواق المصرية، فاتجه أهالى جنوة عندئذ إلى ملوك أسبانيا والبرتغال لتشجيعهم على الوصول إلى الهند للقضاء على ثروة البندقية عدوتهم اللدود .

وانساق وراء هذه الأقوال كثير من الكتاب المسلمين وأدخلوا هذه الهجمة الاستعمارية الشرسة على شرقى العالم الإسلامى فى مجال الكشوف الجغرافية والمنافسة الاقتصادية. وما زالت تدرس حتى يومنا هذا فى مدارسنا وجامعاتنا فى مناهج الجغرافيا وحركة الكشوف والتنافس الاقتصادى بين الدول الغربية وبين الشرق والغرب. واستبعد المزيفون تماماً العوامل الدينية المبنية على الحقد والرغبة فى القضاء على المسلمين ونشر المسيحية فى الشرق وهى العوامل التى كانت واضحة فى أقوال من خططوا لهذه الهجمة كما سنرى فيما يلى :

وآن لنا أن نتحرر من ذلك التزييف المتعمد الذى صاغه الغرب لنا ووضع فى مناهج التعليم فى بلادنا يوم أن كان الاستعمار ضارباً أطنابه فيها ويده من حديد يأمر وينهى ويوجه التربية والتعليم فيها الوجهة التى يريدها وتخدم أغراضه وتخفى أحقاده .

وللأستاذ محمود شاكر الكاتب الاسلامى والجغرافى المبدع محاولة طيبة لتوضيح الدوافع التى دفعت أوروبا للقيام بالهجوم على الشرق الإسلامى يبرز فيها الدافع الدينى الصليبى بعد أن أهمله المؤرخون وغيرهم من الكتاب زمناً طويلاً ، وينعى باللائمة على أولئك الذين ينقلون الآراء الأوروبية بلا تمحيص ولا تدبر ويؤكد على أن هذه المعلومات المزيفة والمغلوطة « أن بقيت كما هى ، وكما أوردتها أوربا بالذات فأننا سنبقى فى مكاننا لا نتحرك ولا نتقدم فى كتابة تاريخنا بأنفسنا شيئاً ، وسنبقى تبعاً لأوربا ومعلوماتها وتاريخها وكتاباتها ، نقلد دون ادراك ، ونأخذ من غير وضوح فى الرؤية ونحاضر من غير روية ونتكلم من دون علم ونكتب دون مناقشة لا نختلف عن البدائيين أن لم نقل عن بعض أنواع الحيوان ، اننا بحاجة إلى أن نناقش الفكرة قبل أخذها ونمحص الموضوع قبل عرضه على مجتمعنا وقبل تقديمه لأبنائنا

وأجيالنا»(١).

ولا شك أن العوامل الدينية من أقوى العوامل التى دفعت الأوروبيين للإلتفاف حول العالم الاسلامى وفى طليعتهم البرتغاليون والأسبان . فعقب إجلاء المسلمين عن الأندلس فى أواخر القرن الخامس عشر ازداد مسيحيوا شبه جزيرة الأندلس تحمساً وشراسة فى مطاردة المسلمين خارجها وانتقل نشاطهم إلى شمال أفريقيا وغربها يتعقبون المسلمين وراودتهم الآمال فى أمكان محاصرة الاسلام عن طريق البحر وطعنه من الخلف وخاصة فى آسيا وأفريقيا.

وكان ثمة أمل يراود البرتغاليين ويرجون تحقيقه وهو الاتصال بملك الحبشة المسيحى لتطويق البلاد الإسلامية كوسيلة للقضاء على الإسلام . بل أن هذه الروح الصليبية استهدفت أيضاً تحويل الحبشة إلى المذهب الكاثوليكى وربطها بكنيسة روما وفصلها عن الكنيسة القبطية الأرثوذكسية بمصر وتكوين جبهة صليبية مع الحبشة ضد المسلمين ولقد ساعد على هذه الرغبة فى الاتصال بالأحباش ما روجه الأوروبيون من أساطير حول مملكة الحبشة ، فقد انتشرت فى أوروبا منذ القرن الثانى عشر الميلادى أسطورة القديس يوحنا ، وتحكى هذه الأسطورة أن بطريرك مسيحى اسمه القديس يوحنا أسس امبراطورية مسيحية كبرى فى الشرق وحكم الهند والصين والحبشة ، التى كانت تعتبر الجزء الغربى من تلك الامبراطورية ، وتحكى الأسطورة أنباء عجيبة عن هذه الامبراطورية وملكها المقدس ، وأن بلاده تنتج الذهب والاحجار الكريمة والتوابل وأن أمله الوحيد هو زيارة بيت المقدس ومحاربة أعداء الصليب وفى منتصف القرن الرابع عشر الميلادى تبلورت هذه الأسطورة

(١) أنظر : محمود شاكر ، الكشوف الجغرافية ، دوافعها - حقيقتها من منشورات المكتب الأسلامى ، بيروت سنة ١٣٩٢هـ / ١٩٧٣ م ، ص ٤ .

لدى الأوربيين بأن القديس يوحنا هو ملك الحبشة وتلاشت فكرة أنه ملك للصين أو الهند . وشاع بين الأوروبيين فى نهاية القرن الخامس عشر أن ملكة هذه المملكة أرسلت رسالة إلى البرتغاليين تعرب فيها عن رغبة الحبشة فى محالفة البرتغاليين فوافق البرتغاليون على عرض الحبشة وامدادها بالمعونة العسكرية اللازمة ضد المسلمين .

وإن رائحة الحقد والدوافع الصليبية واضحة من الرسائل المتبادلة بين ملك البرتغال عمانويل (١٤٩٥ - ١٥٢١م) وملكة الحبشة الينى فقد جاء فى احدى هذه الرسائل :

من إلينى إلى عمانويل :

«باسم الله والسلام على عمانويل سيد البحر وقاهر المسلمين القساة الكفرة ، تحياتى اليكم ودعواتى لكم ، لقد وصل إلى مسامعنا أن سلطان مصر جهز جيشاً ضخماً ليضرب قواتكم ويثأر من الهزائم التى ألحقتها به قوادكم فى الهند ، ونحن على استعداد لمقاومة هجمات الكفرة بأرسال أكبر عدد من جنودنا فى البحر الأحمر والى مكة أو جزيرة باب المندب ، وإذا أردتم نسيرها إلى جدة أو الطور وذلك لتقضى قضاء تاماً على جرثومة الكفر ولعله قد آن الوقت لتحقيق النبوءة القائلة بظهور ملك مسيحى يستطيع فى وقت قصير أن يبيد الشعوب الإسلامية المتبربرة ، ولما كانت قواتنا متوغلة فى الداخل وبعيدة عن البحر الذى ليس لنا فيه قوة أو سلطان فإن الاتفاق معكم ضرورى ، إذ أنكم أهل بأس شديد فى الحرب البحرية (١) .

وكانت رحلات البرتغاليين الأولى تواقة للإتصال بمملكة الحبشة ولقد

(١) المرجع السابق ، ص ٢٩ - ٣١ وانظر أيضاً : حامد عمار : علاقة الدول المملوكة بالدول الأفريقية .

شجعت البابوية فى روما هذا المخطط الصليبى لغزو الإسلام فى عقر داره ، وتورط بعض البابوات فوصفوا الإسلام فى مراسيمهم بأنه طاعون (١) ، وطالبوا ببذل الجهود لتنصير سكان المناطق التى يستولى عليها البرتغاليون والحيلولة بينهم وبين اصابتهم بالطاعون الإسلامى ، وشجعت البابوية عملية الانخراط فى البحرية البرتغالية والاسبانية ، وكان البابا يعد المشتركين فى تلك الحملات بالنجاة من النار يوم الحساب وكانت السفن تخرج ناشرة أشرعتها وعليها الصلبان مرسومة يرافقها دعاة المسيحية المتعصبون لنشرها فى جميع البلاد المفتوحة ، ولقد عبر عمانويل ملك البرتغال الذى قامت فى عهده أول حملة بحرية إلى الشرق عن أهم هذه العوامل فى خطبة طويلة نقتبس منها ما يلى : « أن الغرض من اكتشاف الطريق البحرى إلى الهند هو نشر المسيحية والحصول على ثروات الشرق»(٢).

كما عبرت الحملة الأولى بقيادة فاسكوداجاما فى يوليو ١٤٩٧ عن أغراضها خير تعبير ، فقد كانت سفينة القيادة تعلق فوق ساريتها علماً كبيراً رسم عليه صليب ضخم ، ولقد قيل يومئذ أن الصليب والمدفع كانا رمزى القادم الجديد الذى دخل إلى الشرق وكان رفع الشعار الدينى واستعمال القوة الضاربة ضد التجار المسلمين هو الذى دفعنا إلى وصف هذه الحملات بأنها حملات صليبية .

---

(١) أنظر : د. عبد العزيز الشناوى ، أوربا فى مطلع العصور الحديثة الطبعة الأولى ، القاهرة سنة ١٩٦٩ ، الجزء الأول ، ص ٩٤ .

(٢) انظر : د . السيد مصطفى سالم : « الفتح العثمانى الأول لليمن ، الطبعة الثانية ، من منشورات معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة سنة ١٩٧٤ ، ص ٤٦-٤٧.

ولقد سيطرت على الأسبان والبرتغاليين فى القرن العاشر الهجرى فكرة تحويل أعدائهم المسلمين إلى المسيحية فى كل مكان يتواجدون فيه آسيا وأفريقيا وما حولها من جزر ، وكانت حملاتهم البحرية هى الوسيلة للوصول إلى قلب العالم الإسلامى .

وكان المؤرخون المسلمون المعاصرون لاحداث الهجوم البرتغالى على شرقى العالم الإسلامى يفهمون هذه الأحداث على حقيقتها ويدركون مراميها قبل تعرضها للتزييف بعد ذلك على يد المؤرخين الأوروبيين ، فها هو المؤرخ المسلم زين الدين الملباوى الذى أرخ للنفوذ البرتغالى فى البحار الشرقية ، وعاش فى غضون القرن العاشر الهجرى يشير الى الأهداف الدينية الصليبية بقوله :

« ثم إن بغيتهم العظمى وهمتهم الكبرى قديما وحديثاً تغيير دين المسلمين وادخالهم فى النصرانية نعوذ بالله من ذلك » [1] .

اليهود يتجسسون لصالح الأوروبيين :

كان للمسلمين معرفة بالملاحة وعلوم البحار وكانوا متقدمين على أوربا فى هذا الميدان حتى مطلع القرن العاشر الهجرى ، وكان لهم نشاط ملاحى فى أرجاء المحيط الهندى وأرخبيل الملايو وبحر الصين فضلاً عن البحر المتوسط (بحر الروم) والبحر الأحمر والخليج العربى ، وقد بذل الأوروبيون جهودا كبيرة فى التعرف على علوم المسلمين ومعرفتهم فى هذا الميدان ، وكان فى طليعة من بذلوا جهوداً فى هذا الصدد الأسبان والبرتغاليون واستعانوا باليهود فى مجال الترجمة العربية وفى مجال التجسس ، وكان اليهود قد

(١) انظر : زين الدين الملبارقى ، تحفة المجاهدين فى بعض أحوال البرتكاليين ، لشبونة ١٨٩٨م ، ص ٦٤ .

التجأوا إلى البرتغال ومعهم علوم العرب وخرائطهم وجداولهم الفلكية ، وكانوا قد ترجموها الى العبرية ؟ وكان لهذه العلوم الإسلامية أكثر الأثر في تقدم البرتغاليين في مجال الرحلات البحرية (١) وقد ساعد اليهود على نجاحهم في عمليات التجسس معرفتهم باللغة العربية . وقاموا برحلات بين المشرق و المغرب براً وبحراً لغرض جمع معلومات عن الطرق البحرية من الغرب إلى الشرق وعن الرحلات التجارية إلى الهند والصين وعن مقدرة المسلمين العسكرية والبحرية وتظاهر هؤلاء بأنهم مسلمون ..

ففي سنة ١٤٨٧ م أي قبل رحلة فاسكودا جاما بعشر سنوات قام جماعة من الجواسيس اليهود متخفين في زى المسلمين بالسفر إلى مصر وكان على رأس هؤلاء الجواسيس :

الفونسو دي بايفا	ALFONSO DE PAIVA
بيرو دي كوفيلهام	Bero De Covilnam

وذكر الكاتب الايطالى المعاصر « انجلو بسكي » في كتاب طبع حديثاً عن جدة أن بيرو دي كوفيلهام من بين الرحالة الذين زاروا جدة في سنة ١٤٨٧(٢).

وقد انخرط هؤلاء الجواسيس في قافلة الحج المتجهة من المغرب إلى الحجاز عبر مصر ثم أقلعوا من السويس الى جدة متظاهرين بالاسلام ، وفي جدة استقلوا سفينة متجهة إلى الهند ، وفي هذه الرحلة تمكنوا من جمع كثير من المعلومات عن طريق التجارة ووضع مراكزها الإسلامية

---

(١) انظر : د. أنور عبد العليم : ابن ماجد الملاح ، ص ٤٢ ـ ٤٤ .

(٢) Angelo Pesce Jiddah Portait Of an Arabian City, Falcom, Press, Italy 1977.P.30.

بالهند ثم عادوا إلى البرتغال عن طريق مصر ، وفى القاهرة التقى هؤلاء الجواسيس ببعثة تجسس يهودية أخرى كانت تضم ابراهام دى بيا ، ويوسف لاميجو وانضموا إلى هذه البعثة واتجه الجميع الى هرمز ، ومروا فى طريقهم على «زيلع» ومنها الى الحبشة ، ثم عادوا الى مصر ومنها إلى البرتغال ، وقد استطاعت هذه المجموعةالحصول على بعض الخرائط العربية عن المحيط الهندى وجمعوا معلومات تفصيلية عن التيارات البحرية والرياح الموسمية فى هذا المحيط ، وكيفية التخلص من منطقة الهدوء الاستوائى التى بقيت لغزا صعب حلة لدى الأوروبيين حيث تهدأ الرياح فى هذه المنطقة الاستوائية ولا تتحرك السفن التى تسير بالشراع وهى المعروفة فقط آنذاك ولا يمكن التنقل شمالا إلا فى الربيع مع حركة الشمس الظاهرة ، وفى الخريف جنوباً مع تلك الحركة .

واستطاعوا أن يعرفوا أحوال جيش المماليك أقوى الدول الإسلامية آنذاك والتى تسيطر على شرق أفريقيا والسواحل العربية فى البحر الأحمر وتساعد المسلمين فى حربهم ضد الأحباش والنصارى ، كما تعرفوا على أوضاع البلاد الداخلية . وعندما عادت هذه البعثة الى البرتغال قدمت كل هذه المعلومات إلى السلطات الحاكمة فى لشبونة فاستعانت بها فى رحلاتها القادمة الى جنوب أفريقيا وشرقها الى الهند [١] .

فضل المسلمين على البرتغاليين فى الوصول الى الهند :

كان للمسلمين معرفة دقيقة بالبحار وعلومها كما سلف أن ذكرنا ، وقد نقل اليهود هذه المعرفة إلى البرتغاليين فتعلم البرتغاليون استخدام آلات

---

(١) انظر : عبد العزيز الشناوى ، أوروبا فى مطلع العصور الحديثة مرجع سبق ذكره ، ص ٩٧ ، جـ ٩٨ . وانظر أيضاً : محمود شاكر : الكشوف الجغرافيه ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٥-٢٦.

الملاحة الاسلامية وخاصة البوصلة البحرية والاصطرلاب ووردة الرياح لمعرفة اتجاه الريح فى المحيطات ، وبعد أن اجتاز البرتغاليون رأس الرجاء الصالح فى سنة ٩٠٣ - ٩٠٤هـ (١٤٩٧ - ١٤٩٨م) (بقيادة فاسكو دا جاما لم يتحركوا من شرق أفريقيا الى الهند الا بمعونة بعض البحارة المسلمين .

ذلك أن فاسكو دا جاما اتجه شمالاً الى (سفالة) و(موزمبيق) و(ممباسا) وهى موانى اسلامية حيث قوبلوا باستقبال غير رحب ، وقد قام فاسكو دا جاما بقصف موزمبيق مما كون لدى سكان الساحل الأفريقى انطباعاً مبكراً عن وحشية القادمين ، وفى (مالندى) وهى الى الشمال قليلاً من ممباسا. والتى كون البرتغاليون علاقة طيبة مع ملكها ، وقد كانت مالندى هى نقطة الأنطلاق الى المياه المفتوحة عبر المحيط الهندى بين [أفر]يقيا والهند. حيث أستطاع دى جاما الحصول بضربة حظ على خدمات بحار عظيم سماه البرتغاليون (معلموكنكا) أو «مولموكانا» [١] ويبدو أن هذا كان أسمه الفنى وعرفت شخصيته الحقيقة فيما بعد فى كتب بعض المؤرخين المسلمين مثل قطب الدين النيرواني فى كتابة البرق اليمانى فى الفتح العثمانى وابن ماجد أعظم بحار عربى يومئذ واسمه الكامل « أحمد بن ماجد النجدى » وهو من منطقة نجد فى وسط الجزيرة العربية كما يوحى بذلك أسمه ، وهو صاحب أفضل موسوعة عربية لعلوم البحار تحت عنوان:

«الفوائد فى أصول علم البحار والقواعد» ومن كتبه أيضاً : « حاوية

(١) أحمد بن ماجد : كتاب الفوائد فى أصول البحار والقواعد ، تحقيق ابراهيم خورى وعزة حسن ، نشر فى دمشق سنة ١٩٧١ ، ص ١٦٠ .

الاختصار فى علم البحار» كذلك ألف ثلاثين مؤلفاً شعرياً عبارة عن أراجيز بها ارشادات ملاحية لبيان طرق الملاحة بين السواحل والموانى المختلفة . ومعلومات ابن ماجد ليست مجرد معلومات نظرية يسردها فى علوم البحار وإنما معلومات طبقها ابن ماجد عمليا أى أنه نقل المعرفة النظرية إلى الطريق التجريبى العملى وهذا ما يشير إليه فى كتابه الفوائد فى قوله :

«ولم نستفد فى زماننا هذا شيئا له صيحة كعلومنا وتجاربنا واختراعاتنا التى فى كتابنا هذا ، لأنها مصممة مجربة وليس على التجريب شىء أحسن منه» [1].

وبعض مؤلفات ابن ماجد فى المكتبةالأهلية فى باريس وبعضها فى مكتبة لينينجراد بروسيا وغيرهما ، وقد نشر بعض هذه المؤلفات وعلق عليها الفرنسى «جبرييل فران» والمستشرق الروسى «تيودور شوموفسكى» والكاتب العربى ابراهيم خورى ، وقد أيدوا جميعاً ما ذكره قطب الدين النهروالى فى كتابه «البرق اليمانى . . .» من أن فاسكو دى جاما لم يتمكن

(١) انظر : قطب الدين النهروانى : البرق اليمانى فى الفتح العثمانى ، طبعة دار اليمامة بالرياض ، ص ١٨-١٩ .

وأنظر : يحيى بن الحسين : غاية الأمانى فى أخبار القطر اليمانى ، القسم الثانى، ص ٦٣٠ -٦٣١ ، هامش ٥ .

وانظر د. أنور عبد العليم : الفوائد فى أصول علم البحار . لابن ماجد ، بحث نشر فى مجلة تراث الانسانية المجلد الخامس ، عدد ٤ ص ٢٧٤ ، وكذلك لنفس المؤلف كتاب ابن ماجد الملاح من سلسلة أعلام العرب رقم ٦٢ وأنجلوبسكى

Angelo Pesce : op. cit, p.70

من الوصول الى الهند إلا بفضل أحمد بن ماجد الملاح الذى صاحبهم فى الوصول الى الهند مرشداً لهم . وكذلك يقرر هذه الحقيقة المؤرخ[1] الايطالى الرحالة أنجلوبسكى فى كتابه الذى نشر عن تاريخ جدة فى عام ١٩٧٧ .

وبعد مقابلة فاسكو دى جاما مع ابن ماجد اقتنع فاسكو دى جاما بمعرفة ابن ماجد بعد أن أراه خريطة بالمحيط الهندى بكل المخططات التى اتبعها المسلمون وعندما أراه فاسكو دى جاما الاسطرلاب الخشبى الذى يستخدمه فى رحلته لم يكن ذلك محل غرابة من بن ماجد وقال له أن كثيراً من بحارة البحر الأحمر يستخدمون النجوم ويستخدم البحار نجوما معينة فى الشمال والجنوب وأيضاً بعض النجوم التى تظهر فى الشرق والغرب ولا يستخدمون مثل هذه الأدوات ولكنهم يستخدمون أدوات أخرى والتى أحضرها ليريها لفاسكو دى جاما وكانت على شكل ثلاثة أطباق .

وقد أبحر دى جاما مع البحار العربى ، وبعد الابحار لمدة عشرين يوماً وصلوا الى هدفهم وظهرت أمامهم جبال شامخة وهى الجبال التى تقع شرق (كاليكوت) على الساحل الغربى للهند وقد ظلوا ثلاثة أيام أخرى حتى وصلوا إلى الشاطىء فى ٢٠ مايو ١٤٨٩ المسمى ساحل الملبار.

ويعتبر هذا التاريخ نقطة تحول فى تاريخ العالم الاسلامى حدث أثره فى موانى الخليج العربى وموانى البحر الأحمر والبحر الأبيض الاسلامية .

وكان بثغر كاليكوت جالية كبيرة العدد من التجار المسلمين العرب ، وقيل أن فاسكو دى جاما حياه فى كاليكوت نفسها عربيان من تونس خاطباه باللغة القشتالية ، ولذلك نجد بانيكار فى كتابه آسيا والسيطرة

الغربية يعلق على هذا قائلاً : فأين اذن أهمية استكشاف فاسكو دى جاما[1] .

وفى السواحل الهندية اكتشف البرتغاليون الأسعار الحقيقية للبضائع الشرقية ومروا بأماكن تجمعها على ساحل الملبار واكتشفوا الفوائد العظيمة التى ستجنى منها ، والشىء الثانى وهو على جانب كبير من الأهمية أنهم تأكدوا من تفوق السفن البرتغالية على السفن العربية والهندية حيث أن المدافع التى كان يستخدمها البرتغاليون غير معروفة فى المحيط الهندى ، وواجه المسلمون نتيجة لذلك تنافساً قويا على تجارة الهند ، وتعرض سلاطين مصر الذين كانوا يتحكمون فى كل طرق هذه التجارة الى الغرب لفقدان مصالحهم ، واخطر من ذلك أصبح المسلمون مهددون فى عقر دارهم وأصبح البرتغاليون على وشك تحقيق حلمهم القديم وهو التحالف مع مسيحى الحبشة الشرقيين للهجوم على الاسلام وأرضه وأتباعه ومصالحه.

وقضى البرتغاليون ما يقرب من ثلاثة أشهر ونصف فى المياه الهندية قبل أن يبحروا فى طريق عودتهم إلى بلادهم مع تغيير موسم الرياح فى رحلة العودة ، ففى أغسطس ١٤٩٨ م رحل دى جاما عائداً الى البرتغال فوصلها بعد عام تقريباً أى فى سبتمبر ١٤٩٩م واستقبلته لشبونة عاصمة البرتغال استقبال الفاتحين ، بعد رحلة استمرت حوالى عامين التى أبحر فيها حوالى ٢٤ ألف ميل .

البرتغاليون يبنون مراكز استعمارية فى الشرق :

تركز نشاط البرتغاليين بعد وصولهم الى الهند فى حملتهم الثانية ٩٠٨ - ٩٠٩ هـ فى تثبيت أقدامهم على شواطىء المحيط الهندى ومهاجمة السفن

(١) باتيكار : آسيا والسيطرة الغربية ، ص ٢٠.

ولمراكز التجارية الاسلامية فى جميع جهات المحيط واستغلوا بعض الخلافات بين حكام الهند فى التدخل لنصرة فريق على آخر كما تدفعهم وصاياهم للتفريق بين الأشقاء مما أعطى لهم فرصة لتدعيم نفوذهم على الساحل الهندى وأقامة بعض الحصون البرتغالية .

واتصف نشاط البرتغاليين الاستعمارى فى هذه المرحلة بامتزاج العوامل الصليبية بالعوامل الاقتصادية ، فقد حرصوا على نشر المسيحية فى المناطق المحيطة بمستعمراتهم التى أقاموها ، وكانت حملاتهم تضم بعض القساوسة لهذا الغرض وأتصف موقفهم من المسلمين بالعداوة والعنف فقاموا بطرد المسلمين من مراكزهم التجارية بالهند وسواحل أفريقيا ، وطاردوا السفن التجارية الإسلامية وعملوا على أغراقها والاستيلاء عليها ، فقد قام فاسكو دى جاما أثناء (الحملة الثانية) إلى الهند بمهاجمة احدى السفن الاسلامية التجارية وكانت تخص سلطان مصر واسمها «ماريام» أو «مريم» وكانت فى رحلة لها إلى جدة وكانت تحمل أعداداً كبيرة من الحجاج الذين واجهوا حتفهم وكانت هذه السفينة مسالمة غير مسلحة واستولى على ما بها من بضائع ثم أمر باغراقها بما تحمل من ركاب [1] .

وبعد هذا الحادث توجه الأسطول البرتغالى الى «كناتور» وتقع الى الشمال من «كاليكوت» ، وكان حاكمها على خلاف مع حاكم كاليكوت فعقد معاهدة صداقة معه ثم عاد بعد ذلك الى كاليكوت طالباً من سكانها تعويضاً على الخسائر التى لحقت به أثر اعتدائهم على سفنه دفاعاً عن

(١) انظر . Angelo Pesce : op cit.P.73 . وانظر ايضا : بانيكار : آسيا والسيطرة الغربية ، ص ٤٠ ، ٤١ .

وبعد ذلك غادر فاسكو دى جاما مياه الهند الى لشبونة التى وصلها سنة ١٥٠٣ محملاً بالغنائم المنهوبة من السكان والتجار المسلمين ، فلم تكن هذه الغنائم من التجارة الحرة ولكن نهباً من سفن المسلمين الهنود ومن سفن العرب وكانت هذه الحمولة تقدر بنحو ٢٤ ألف دوكات ذهباً وكانت تتكون من ٣٥٠٠ طن بهارات و ٥٠٠ طن من الفلفل والذهب . ويقول أنجلو بسكى معلقاً على ذلك : «فإذا كان غرض البرتغاليين من الهند قد تحقق فإن طريقتهم كانت شاذة ومتناقضة مع طريقة العرب الذين عملوا بالتجارة منذ مئات السنين بدون أى محاولة لتخريب الدولة والتأثير على سكانها أو القضاء على التنافس»[1] .

وكان دى جاما ابان حملته الثانية (١٥٠٢م) قد كلف أحد قادته بالاقامة الدائمة عند مدخل البحر الأحمر ومعه خمس سفن لمهاجمة السفن الإسلامية ولمنعها من الابحار فى مياه المحيط الهندى إلا بتصريح خاص من البرتغاليين ونجح هذا القائد فى مهمته إلى حد كبير فقد قام فى رجب سنة ٩٠٨هـ (يناير ١٥٠٣م) بمهاجمة سبع سفن عربية واستولى عليها كما قتل بعض ركابها وأسر البعض الآخر .

وفى سنة ٩١٣هـ هاجم البرتغاليون بقيادة «البوكيرك» جزيرة «سوقطرة» واستولوا عليها وتقع فى مدخل خليج عدن لاغلاق البحر الأحمر ومحاولة القضاء على تجارة المسلمين وأقام البرتغاليون فى «سوقطرة» بعض التحصينات لهذا الغرض «كما هاجم البوكيرك عدن فى نفس السنة ولكنه فشل فى اقتحامها، فتوجه الى الخليج العربى لأحكام السيطرة البرتغالية عليه وبذلك بدأ فى عملية غزو الخليج العربى فى سنة ٩١٣هـ وما بعدها وبدأ البرتغاليون غزو

---

(1) Angelo Pesce : op . cit . , pp . 74 - 75 .

المراكز التجارية به وأهمها من الجنوب الى الشمال «قلهات» و «قريات» و «مسقط» و«صحار» و «خورفكان» و «هرمز» و«البحرين» و «القطيف»و «البصرة» وارتكب البرتغاليون من الأعمال والفظائع ما يضيق المجال هنا عن ذكرها ، وكانت دليلاً واضحاً على أن نفوسهم الحاقدة لا ترويها إلا الدماء .

وقضوا على مملكة هرمز الاسلامية التى كانت تتحكم فى مدخل الخليج العربى طوال قرنين من الزمان قبل الغزو البرتغالى وتخضع لها غالب الامارات الممتدة من البحرين والقطيف حتى الساحل العمانى[1] .

أوضاع المشرق الاسلامى فى مطلع القرن العاشر الهجرى :

كان بالمشرق الاسلامى فى أواخر القرن التاسع الهجرى ومطلع القرن العاشر عدة ممالك إسلامية بعضها ضعيف فى الهند وجنوب شرقى آسيا وبعضها قوى فى منطقة الشرق الأوسط ، وهى (سلطنة المماليك) السنية فى مصر والشام وجزيرة العرب ، و(سلطنة العثمانين السنية) فى آسيا الصغرى وشرق أوربا . ثم مملكة الصفويين الشيعية فى فارس .

(١) يرجع تكوين مملكة هرمز البحرية الى أواخر القرن السابع الهجرى ومطلع القرن الثامن. عندما وصلت غارات المغول الى الشاطىء الشرقى للخليج العربى ودمرت مدينة هرمز القديمة الواقعة على الساحل فانتقل أهلها الى جزيره فى مياه الخليج مقابلة لمدينة هرمز تسمى جزيرة « جرون » وأطلقوا عليها اسم «هرمز الجديدة» وبمضى الزمن تمكنوا من الانتشار التجارى فى كثير من موانى الخليج وجزره وغدا لهؤلاء التجار سلطنة تحولت الى مملكة عرفت « بمملكة هرمز» فرضت سيطرتها فى الخليج وظلت حتى قضى عليها البرتغاليون ، وكان يحكمها أبان الهجوم البرتغالى ملك صغير يسمي سيف الدين تحت وصاية معلمه الشيخ خواجه عطار ، وتأتى اهمية مملكة هرمز من كونها تقع فى مضيق فى مدخل الخليج العربى أخذ اسمها وظل يعرف بمضيق هرمز الى وقتنا هذا .

انظر : صلاح العقاد : التيارات السياسية فى الخليج العربى ، ص ٩ ـ ١٠ .

ولم تتحد هذه القوى من أجل الوقوف فى وجه أوربا المعتدية التى تخطط للالتفاف حول العالم الإسلامى من الشرق ونجحت فى السيطرة عليها. لأن العالم الإسلامى فى المشرق لم يصل حتى الى التضامن المفروض فى الملمات وإنما حدث العكس وهو التضارب والتجارب وقت الشدائد ، واستغلت الدولة العثمانية فترة ضعف سلطنة المماليك بسبب الضربات البرتغالية التى وجهت إليها فى الهند والبحار الشرقية لتحتل بلادها . فى وقت كان الاخاء الاسلامى يفرض عليها أن تمد يد العون لها فى محنتها .

نتائج الغزو البرتغالي:

لا شك أن الزحف البرتغالى على شرق العالم الاسلامى والسيطرة البرتغالية على البحار الشرقية جاءت فزلزلت العالم الاسلامى زلزالا شديداً فى كثير من النواحى السياسية والاقتصادية والدينية وبدأت التغييرات الخطيرة تظهر فى العالم الإسلامى ، وكان من أهمها كما سنرى بعد قليل اختفاء دولة المماليك وزحف الدولة العثمانية على الشرق العربى لملء الفراغ العسكرى الذى أحدثه هزيمة المماليك أمام القوى الأوربية الزاحفة على الشرق الإسلامى.

وجدير بالذكر أن البرتغاليين انتهكوا مبدأ حرية الملاحة فى البحار الشرقية وهو مبدأ كان معمولاً به قبل وصولهم وكانوا يعترفون به فى أوروبا ، ولكن هذا الحق كان لايتجاوز فى نظرهم قارة أوروبا ، وساد بعد ذلك مبدأ «أن القانون الدولى الذى يضعه الأوروبيون لا يطبق خارج أوروبا ، وما يعد همجية في لندن أو باريس يكون سلوكاً متمديناً فى افريقيا وآسيا ، كما يلاحظ أنهم استعملوا القرصنة البحرية على نطاق واسع فى البحار الشرقية التى كانت خالية تماماً قبل مجيئهم من هذه الأعمال الشريرة .

فقد شرع فاسكو دى جاما فى تضييق ادعاء السيطرة على البحار وكان يقطع الطريق دون أى تحذير على أية سفينة يلتقى بها فى طريقه ويدمرها تدميراً ، وروى بانيكار فى كتابة آسيا والسيطرة الغربية حادثة مروعة لسفينه عربية عائدة من مكة وهى غير مسلحة فيذكر أن فاسكو دى جاما ألقى القبض عليها واستولى على ما بها من بضائع ومنع اخراج أى عربى منها وأصدر أوامره باشعال النار فيها(١) .

وقد أدى تحول التجارة الشرقية الى طريق رأس الرجاء الصالح الى انهيار اقتصاديات بلدان الشرق الإسلامى بصفة عامة والشرق الأوسط بصفة خاصة والتى كانت تعتمد الى حد كبير على موارد التجارة الشرقية ، وقد عرض البرتغاليون تجارتهم الشرقية فى أسواق لشبونة بأسعار أقل من أسواق البندقية وذلك لكى يجذبوا اليهم العملاء من أوربا ، ونجحوا فى ذلك نجاحاً ساحقاً وعادت تلك الأوضاع بالكساد على الثغور اليمنية والحجازية والمصرية والشامية وفى الخليج العربى ، وقلت موارد تلك البلاد ودخلت دوراً جديداً من أدوار تاريخها اتسم بالضعف والانهيار .

وتمكن البرتغاليون من السيطرة على منافذ البحار كما سبق أن أشرنا ولم يستطع المماليك ولا العثمانيون زحزحتهم عن هذه السيطرة وأصبحت لهم مراكز استعمارية مسلحة يمكن عن طريقها التحكم فى مداخل البحار والخلجان والجزر والثغور ذات المكانة الاستراتيجية فى العالم الإسلامى وذلك فى كل من أنجولا وموزمبيق ومدغشقر وسفالة وجوا وملقا وسومطرة ومسقط وهرمز وديو وبومباى وغيرها من المراكز ودامت لهم السيطرة فى شرق العالم الاسلامى نحو قرن من الزمان زاحمهم عليها بعد ذلك كل من البولنديين

---

(١) انظر : بانيكار ، مرجع سبق ذكره ، ص ٤٠ ، ٤١ .

والانجليز والفرنسيين وغيرهم من الاررويين .

ولعل من الأشياء الخطيرة التى قام بها البرتغاليون لمحاصرة الاسلام فى أفريقيا انهم استعمروا أنجولا فى غرب أفريقيا وكانت تسمى أحياناً بأفريقيا الغربية البرتغالية واستعمروا فى مقابلها شرق موزمبيق وكانت تسمى بأفريقيا الشرقية البرتغالية وحاول البرتغاليون أن يصلوا بين المستعمرتين بحجاب حاجز لمحاصرة الإسلام فى الشمال لمنع انتشاره فى جنوب القارة الأفريقية بحزام مسيحى مانع ، ولعل هذه السياسة التى حول البرتغاليون تنفيذها فى أفريقيا مشى عليها فيما بعد الأسبان فى الفلبين وحاول تطبيقها أيضاً الأنجليز فيما بعد فكانوا يعزلون المناطق الوثنية عن المناطق التى انتشر فيها الإسلام للحيلولة بينها وبين انتشار الاسلام بها .

ومن النتائج الخطيرة على مستقبل العالم الإسلامى أن هذه الغارة على العالم الإسلامى أضافت مجالاً حيوياً جديداً للغرب المسيحى فإذا عرفنا أنه فى نفس فترة التوسع الغربى فى شرقى العالم الاسلامى ثم التوسع الغربى فى الأمريكتين (الدنيا الجديدة) و ما حولهما من جزر أدركنا أن أسهما جديدة أضيفت الى الغرب المسيحى فى العالم وانتشرت النصرانية فى تلك الأصقاع والأفاق مما نتج عنه تفوق الغرب المسيحى فى العدد والقوة وتراجع المسلمون بعدها عدداً وقوة بعد أن كان لهم تفوق فى هذا المجال طوال العصور الوسطى .

ولقد حاول المماليك بعد هزيمتهم فى ديو اعداد قوة بحرية لمواجهة الزحف البرتغالى على شرق العالم الاسلامى واستعانوا فى سبيل ذلك بالعثمانيين الذين أمدوهم ببعض المعونات العسكرية فى البداية فى سنة ٩١٦هـ (ولكنهم عادوا فغيروا هذه السياسة عندما تولى سليم الحكم فى سنة ٩١٨هـ

وخططوا للإستيلاء على منطقة الشرق الأوسط) وبعد أن أتم المصريون استعدادهم البحرى فى السويس وجدة خرجت حملة بحرية لهم من ستة الاف جندى فى عشرين سفينة متجهة الى الهند بقيادة حسين الكردى فى سنة ٩٢١هـ ولكن مما يؤسف له أن الحملة المصرية اشتبكت مع أمراء اليمن عندما رفض اليمنيون إقامة بعض التحصينات فى السواحل اليمنية لمنع البرتغاليين من احتلالها وتطور لصراع بدرجة جعلت الحملة تغرق فى مشاكل اليمن قبل أن تذهب الى سواحل الهند وانتهى الأمر بدخول المماليك صنعاء وقتلهم للسلطان عامر بن عبد الوهاب الطاهرى واحتلت القوات المصرية صنعاء .

وبذلك تطور الوضع فى العالم الاسلامى تطوراً خطيراً ، فبدلاً من أن يكون بأس المسلمين على عدوهم أصبح بأسهم بينهم شديداً ولم يتحدوا على حرب عدوهم وظلوا مختلفين الى يومنا هذا ، واستغل الاستعمار الأوروبى نقطة الضعف هذه وغذاها بنصرة فريق على فريق ، وبذلك وجدنا حكام عدن بعد ذلك يتحالفون مع البرتغاليين ويقدمون لهم الولاء والطاعة ففى سنة ٩٢٣هـ قدم أمير عدن (مرجان الظاهرى) للبرتغاليين المؤن اللازمة لحملة لوبوسوريز على البحر الأحمر وأمدهم ببعض المرشدين من بحارة اليمن لارشادهم داخل البحر الأحمر للوصول الى جدة بعيداً عن مخاطر الشعب المرجانية التى أعاقت تقدمهم من قبل وذكرت بعض المراجع الأوروبية أن مرجان قدم اليهم مفاتيح عدن للتعبير عن خضوعه .

وعلى الرغم من ذلك فقد عمل البرتغاليون على اخضاع عدن لسيطرتهم خوفاً من وقوعها فى يد العثمانيين ونجحوا فى اجبار الطاهريين على عقد معاهدة معهم سنة ٩٣٠هـ بمقتضاها تدفع عدن جزية سنوية لهم وتفتح ميناءها أمام سفنهم وفى سنة ٩٣١هـ فرضوا عليهم معاهدة جديدة أشد اذلالا بعد

ضربها بالمدافع وفى سنة ٩٣٦هـ اعترفت عدن لهم بالسيادة ودفعت لهم الجزية وحرم البرتغاليون على العدنيين عدم توجه سفنهم الى جدة وتركوا حامية لهم فى عدن لضمان تنفيذ تلك الشروط ، وقد تعرض حاكم عدن لهجوم العلماء عليه لموقفه الخيانى مما أثار عليه حفيظة الأهالى وغضبهم مما دفعه للتخلص فيما بعد من هذه المعاهدة ومراسلته السلطان العثمانى سليمان المشرع يطلب منه الدخول فى طاعته لعله يكفر عنه موقفه المخز ، ومما لا شك فيه أن سياسة فرق تسد التى استغلها الاستعمار الأوروبى يستعملها ويستغلها بمهارة فى العالم الاسلامى الى يومنا هذا .

وفى غضون ذلك تنبه العثمانيون لضعف المماليك الذين وقع على كاهلهم الدفاع عن البحر الأحمر ضد الهجمات البرتغالية الشرسة فى الوقت الذى زادت فيه هجمات فرسان القديس يوحنا من رودس على موانى مصر والشام وإذا عرفنا أن البابا كان من وراء فرسان القديس يوحنا وأعمالهم ويمدهم من أوروبا بكل عون أمكن لنا تفسير شدة هذه الأعمال فى هذا الوقت بالذات لاشغال المماليك عن جبهة الهند والبحر الأحمر لكى يتمكن منها البرتغاليون الذين بارك أعمالهم البابا أيضاً وشجعها وعمل لها دعاية فى كل أنحاء أوروبا للقضاء على الاسلام والمسلمين وعلينا أن نلاحظ هذا التنسيق المحكم بين البابا وفرسان القديس يوحنا والبرتغال فى الهجوم على العالم الاسلامى فى وقت فقد المسلمون أى نوع من هذا التنسيق .

وبدلاً من أن يتقدم العثمانيون لمساعدة المماليك على أيام سليم الأول العثمانى (٩١٨-٩٢٦ هـ) ويكونوا يداً واحدة على عدوهم إذا بهم يفكرون فى شىء آخر لمصلحتهم هم لا لمصلحة الاسلام وهو أن يدخلوا فى المنطقة لملء الفراغ العسكرى بعد أن ضعف المماليك وأعدوا أنفسهم لهذا فعلاً ،

وساعدهم على ذلك تدهور الأوضاع الاقتصادية فى مصر والشام ومنطقه البحر بعد أن كسرت التجارة وجفت مواردها وتخربت موانى الشام ومصر والحجاز واليمن وهرمز وفى صفحات ابن أياس المؤرخ المصرى المعاصر اشارات كثيرة الى هذه الأوضاع السيئة التى نجمت عن استيلاء البرتغاليين على التجارة الشرقية وأعمالهم التخريبية ضد السفن والثغور الاسلامية (١) .

وانعكست تلك الأوضاع الاقتصادية السيئة على الوضع العسكرى فلم يتمكن المماليك من الأعداد اللازم للجيوش وأصبح ظاهراً للعيان مدى ضعفهم العسكرى ومن ثم قام سباق رهيب بين البرتغالين والعثمانيين لملىء هذا الفراغ وحاولت كل من الدولتين أن ترث الدولة المملوكية المتهالكة لأنها ضعفت عن مجابهة الأقطار المحيطة بها وبينما كان البرتغالين يعملون المرة تلو المرة على التوغل داخل البحر الأحمر حتى أنهم هاجموا ميناء جدة فى خلال سنة ٩٢٣ هـ كان العثمانيون قد نجحوا فى خلال عام ٩٢٢ هـ وأوائل عام ٩٢٣ هـ فى الاستيلاء على أملاك الدولة المصرية المملوكية بالشام ونجحوا فى ضم الحجاز واليمن سلميا ، ولم يتمكن الغورى من الانتصار فى موقعة مرج دابق سنة ٩٢٢ هـ لأنه كان مشغولا بتأمين البحر الأحمر ضد الزحف البرتغالى والاعداد لحملة جديدة على الهند وكانت قواته موزعة فى كثير من ثغور الحجاز واليمن والساحل الأفريقى ، كما كان من ناحية أخرى يقاوم ضربات فرسان القديس يوحنا المتكررة على ثغور البحر المتوسط .

وبشنق طومان باى آخر سلاطين المماليك على باب زويلة بالقاهرة أسدل الستار على فترة من أهم فترات التاريخ الاسلامى كانت مليئة بالجهاد حقق المماليك فيها النصر على الصليبيي والمغول ولكنهم أخفقوا فى رد عادية البرتغاليين وسقطوا فى قبضة أخوانهم العثمانيين .

---

(١) انظر : ابن اياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، جـ٤ حوادث المحرم وذى الحجة من سنة ٩٢٠ هـ .

الباب الأول

الفصل الأول

العالم الاسلامي في ظل الدولة العثمانية

خضعت كل من الشام ومصر وغالبية الجزيرة العربية لحكم الدولة العثمانية ،وأما العراق فقد ظل مجال أخذ ورد وصراع بين العثمانيين والصفويين لوجود العتبات المقدسة للشيعة فى كربلاء والنجف حتى قام السلطان العثمانى سليمان المشرع بضمه الى الدولة العثمانية فى سنة ٩٤١ هـ، وأعاد فتح اليمن فى سنة ٩٤٥ هـ .

أما أقطار المغرب العربى فقد اتصلت بهم لتحالف معهم تجاه الأخطار المسيحية المحدقة بهم كما سبق أن أشرنا ، وطلب المجاهدون فى المغرب وعلى رأسهم خير الدين برباروسا من العثمانيين المساعدة ضد البرتغاليين والأسبان فتقدم العثمانيون اليهم بالمساعدة على أيام سليمان المشرع ، ونتج عن هذا التضامن الاسلامى قوة فى المغرب مكنت المغاربة من استعادة كثير من الأراضى فى شمال أفريقيا ، ووحد خير الدين شمال أفريقيا كله ما عدا مراكش تحت راية الدولة العثمانية،وكان فى مراكش الأشراف السعديون فاعتبروا أنفسهم أحق بحكم المسلمين وخلافتهم من العثمانيين فلم يسلموا لهم وظلوا يحاربونهم واستغل الغرب هذه الثغرة أيضاً للايقاع بين المسلمين.

وصفوة القول أن العثمانيين تمكنوا من السيطرة على غالبية العالم العربى فى سرعة غير عادية وكانت هذه السرعة بسبب الضعف الداخلى والخطر الخارجى ثم التجاوب الدينى أو الوشيجة الدينية التى تربط العثمانيين بهذه البلاد والتى لولاها لكان مصير الغزو العثمانى منذ البداية كمصير غيره من الغزوات الوثنية والصليبية السابقة .

ولقد قابل العثمانيون مشاكل البحر الأحمر التى كانت بين المماليك والبرتغاليين حول السيادة عليه والسيادة على البحار الشرقية وتجارتها ، وبرزت أمام العثمانيين بمجرد وصولهم الى المنطقة قضية الدفاع عن البحر الأحمر وأصبحت احدى القضايا الملحة التى تحتاج الى عمل حربى عاجل وحاسم منهم ، ولقد أثبتت حوادث الاعتداءات البرتغالية على ثغور البحر الأحمر بسرعتها وتلاحقها صدق ذلك .

بيد أن الخطوات العثمانية فى مجابهة البرتغاليين ظلت بطيئة واتسمت سياستهم العسكرية بالاسترخاء العسكرى فى البحار الشرقية تلك الحالة التى استمرت حتى سنة ٩٤٥ هـ (١٥٣٨م) وكان ذلك على ما يبدو بسبب انشغالهم فى أوربا ، فقد كانوا يعملون على مد نفوذهم فى كثير من المناطق الأوربية متهزين الحرب الايطالية التى شغلت أوربا فى الفترة من سنة ١٥١٥ حتى سنة ١٥٥٩م . كما كانوا يعلمون من ناحية أخرى على مد نفوذهم الى العراق وفارس وتكملة الاستيلاء على العالم العربى توصلا الى توحيد العالم الاسلامى .

لكن على الرغم من هذه المشاكل ظل الخطر البرتغالى يمثل تهديدا مباشرا للعثمانيين فى البحر الأحمر والأماكن المقدسة الاسلامية فى الحجاز وكان الأمر باليمن يقتضى عملا حاسما لتقوية الوجود العثمانى به بعد أن اضطربت أحواله بسبب تصارع القوى المملوكية والعثمانية والزيدية وبقايا الطاهريين فى عدن ، ومن ثم توجهت همة العثمانيين الى اعداد حملة بحرية الى اليمن والهند منذ عام ١٥٣٧م(٩٤٤هـ) بميناء السويس .

حملة سليمان الخادم العثمانى على اليمن والهند

٩٤٥هـ/١٥٣٨م

لا شك أن فتح العثمانيين للعراق فى سنة ٩٤١هـ جعلهم وجها لوجه مع البرتغاليين فى الخليج العربى ، فقد دخل أمراء البصرة والقطيف والبحرين فى طاعة العثمانيين بعد فتح العراق ، ومن ناحية أخرى فان البرتغاليين قد أقاموا علاقات ودية مع الصفويين فى فارس نتج عنها إمداد البرتغاليين للفرس ببعض المعدات العسكرية ، ولقد ساعد الخطر العثمانى الذى كان يهدد الدول الأوربية على التقارب بين هذه الدول وايران ، وعندما ظهرت الدولة الصفوية بقوتها فى شرقى الدولة العثمانية خف الضغط العثمانى على أوربا واتجه الى فارس ، ولذلك فقد سعت دول أوربا الى اسماعيل الصفوى تعرض عليه تثبيت عرى الصداقة والمودة وحاول اسماعيل من جانبه استغلال هذه الفرصة لحماية نفسه من أطماع الدولة العثمانية التوسيعية فى الأراضى الفارسية وخاصة بعد هزيمته المنكرة من الدولة العثمانية فى معركة شالديران سنة ٩٢٠هـ(١٥١٤م) فأرسل الشاه اسماعيل رسوله الى البوكيرك فى هرمز سنة ٩٢١هـ يطلب من البرتغالين مساعدته ضد العثمانيين وقيام تحالف بينهما ، وعقدت اتفاقية بين الطرفين تنص على :

- تقديم سفن برتغالية لاسماعيل لمعاونته فى حملته على البحرين والقطيف ، فى مقابل أن يتنازل للبرتغاليين عن ميناء جوادر على ساحل بلوخستان .

- تتحد الدولتان فى مواجهة الدولة العثمانية .

- تصرف حكومة فارس النظر عن جزيرة هرمز ، وتوافق على أن يبقى

حاكمها تابعا للبرتغال ، وأن لا تتدخل فى أمورها الداخلية[1] .

وقد أقلقت هذه العلاقات الصفوية البرتغالية الدلة العثمانية بالاضافة الى ذلك فقد استنجد سلطان كجرات بالهند « بهادر شاه » بالعثمانيين يطلب منهم ارسال مدد عسكرى للصمود أمام البرتغاليين الذين سيطروا على « ديو » حتى لاتضطر سلطنة كجرات الى عقد صلح مهين معهم .

كل هذه العوامل السالفة جعلت العثمانيين يرسلون حملتهم التى سبق اعدادها فى السويس بقيادة سليمان باشا الخادم[2] ففى المحرم سنة ٩٤٥هـ أبحرت تلك الحملة وكانت مؤلفة من ٨٠ سفينة و ٢٠ ألف جندى ، وكان سليمان الخادم لا يصلح لقيادة هذه الحملة فقد كان فى الثمانيين من عمره ، سرى اليه ضعف العقل والرأى وكانت لديه عقدة خاصة بنشأته حيث فى القصر السلطانى وكان من الخصيان العبيد ، ولم تكن له علاقة بالبحرية وكانت كل مؤهلاته أنه رجل ميال للغدر وسفك الدماء .

وعلى الرغم من هذه العيوب الخاصة بشخصية قائد الحملة الا أنه تمكن من فرض السيطرة العثمانية فى سواحل اليمن الغربية والجنوبية بأساليب امتزجت بالحيلة والغدر ، ذلك أنه بمجرد وصوله الى عدن أظهر حاكمها (عامر بن داود الظاهرى) حسن استقباله بعد أن ظل فترة يراوغه ويهمل الرد عليه وكان سليمان يضمر له الغدر ، ولما فتح عامر أبواب المدينة أمام سليمان

---

(١) انظر : بديع جمعة وزميله : تاريخ الصفويين وحضارتهم ، جـ١ ، ص٩٧ .
وأنظر أيضا : صلاح العقاد : التيارات السياسية فى الخليج العربى ، ص١٧ـ١٨ .

(٢) كان سليمان باشا الخادم أحد مماليك السلطان سليم الأول ومن المقربين اليه وظل واليا على مصر منذ عام ٩٣١هـ حتى غادرها الى العراق للاشتراك فى فتح بغداد سنة ٩٤١هـ(١٥٣٤م) ثم بدأت ولايته الثانية لمصر سنة ٩٤٣هـ ، واستمر بها حتى خرج منها على رأس حملة بحرية الى الهند واليمن سنة ٩٤٥هـ .

مر الأخير جنوده سرا بالاستيلاء عليها عقب دخولها ، وفى نفس الوقت استدعى حاكمها الى سفينته فلما توجه لاستقباله أمر بشنقه ومن معه من رجال على سارية السفينة ، وأمر بقتل من بقى من آل طاهر ومصادرة ممتلكاتهم بحجة خيانتهم للمسلمين ومحاولة تسليمهم عدن للبرتغاليين وتحالفهم معهم .

ويعتبر عامر بن داود آخر الحكام الطاهريين وبموته انتهى حكم هذه الأسرة من اليمن وقد تم للعثمانيين الاستيلاء بهذه الطريقة على عدن بعد خمسة أيام من وصولهم ، وقامت الحملة بتحصينها وتقويتها بالمدافع لتكون خط الدفاع الأول عن البحر الأحمر ، وعين سليمان أميرا عثمانيا عليها هو الأمير (بهرام) ومعه حامية من ٥٠٠ جندى .

وانطلقت الحملة بعد ذلك الى ديو بسواحل الهند لتحقيق الجزء الثانى من خطتها وهو القضاء على النفوذ البرتغالى فى الهند وكان ذلك بعد فوات الأوان لأن البرتغالين كانوا قد دعموا نفوذهم فى تلك الأماكن ومضى على وجودهم هناك ما يربو على ثلث قرن من الزمن وكانت هذه الفترة الزمنية كافية بأن يحتاطوا لأمرهم ويعدوا لكل شىء عدته . ومن ثم فما كادت الحملة تقوم بحصار بعض القلاع البرتغالية هناك حتى فكت الحصار عندما علمت بنجدة برتغالية كبيرة قادمة عن طريق البحر ويقال أن الهنود هم الذين أوهموهم بهذه الحملة ليتخلصوا منهم وكان البرتغاليون قد تمكنوا قبل وصول الحملة من قتل حاكم كجرات السلطان (بهادر شاه) سنة ٩٤٣هـ قبل أن تدركه المعونة العثمانية مما أعاق عملية التحالف لأن خلفاء بهادر شاه ارتابوا فى العثمانيين وخافوا من غدرهم بعد أن وصلتهم أنباء عن غدر قائدهم باليمنيين الذين فتحوا له مدينتهم فتوجسوا منه خيفة واعتقدوا أن العثمانيين قوم لا أمان لهم ولا يوثق بعهدهم بالاضافة الى عدم قدرة الحملة من الناحية العسكرية على منازلة

البحرية البرتغالية وفشلت بذلك الحملة العثمانية فى تحقيق شىء يذكر بالهند نظرا لضعف قائدها وضعف حلفائها الهنود .

وعادت الحملة الى الموانى اليمنية وتفرغت بعد ذلك لفتح باقى الموانى كالشحر والمخا وزبيد ولجأ سليمان فى سبيل ذلك الى أسلوبه المعروف بالغدر وطلب قائد المماليك (الناخوذة أحمد) حاكم زبيد لمقابلته بعد أن أرسل اليه الأمان وعندما وصل اليه فى ميناء المخا أمر بقتله فى الثامن من شوال ٩٤٥هـ وعين عثمانيا مكانه وهو مصطفى بك نائب غزة السابق .

وكان القضاء على الطاهريين والمماليك يعنى بداية المواجهة المباشرة مع الزيديين وهم القوة الباقية فى اليمن وحاول سليمان الخادم استدراج الامام شرف الدين على طريقته فى الغدر ولكنه لم يفلح وظل يتبادل معه الرسائل دون جدوى لأن الرجل لم يأمن جانبه فأعرض عنه حتى غادر سليمان اليمن عائدا الى مصر .

وصفوة القول أن حملة الخادم حققت الاستيلاء على السواحل اليمنية من جيزان شمالا الى الشحر جنوبا أما الجهات الداخلية فلت فى أيدى الزيديين وقضت نهائيا على كل من المماليك والطاهريين وفشلت الحملة فى مشروعها الثانى بالهند كما رأينا ، وبعد فشل العثمانيين فى الهند لم يفكروا فى سياسة هجومية ضد البرتغاليين وظلت سياستهم دفاعية عن البحر الأحمر ومحاولة اغلاقه فى وجه البحرية البرتغالية وكانت حملة الخادم هى الأولى والأخيرة للعثمانيين على الهند .

كما أن العثمانيين فشلوا فى مقاومة الوجود البرتغالى فى الخليج العربى الذى أقام له مراكز استعمارية هناك وتحالف مع الصفويين فى فارس كما سلف أن ذكرنا .

وإذا كان العثمانيون قد تم لهم تأمين البحر الأحمر أمام الغزو البرتغالى فانهم عجزوا عن تحقيق غاياتهم الرئيسية المطلوبة منهم وهى ضرب السيطرة البرتغالية فى البحار الشرقية ، ولعل سبب اخفاقهم راجع الى عدة عوامل : منها عدم قدرتهم على لم شمل المسلمين تأليف حلف اسلامى منهم لتوحيد القوى الاسلامية لمكافحة السيطرة البرتغالية عن طريق التضامن الاسلامى كما حدث منهم فى المغرب العربى مع المجاهدين المغاربة عندما تحالفوا معهم ومدوا لهم يد المعونة كما سلف أن ذكرنا ومنها أيضا قلة استعدادهم البحرى لمجابهة البرتغاليين فقد كانوا حتى ذلك التاريخ مازالوا من الأمم البرية التى تعتمد على قوتها الضاربة فى البر دون البحر ، ولعل أقوى هذه العوامل قاطبة هو تحطيمهم القوة المملوكية بدلا من التضامن معها لتحمل المسئولية أمام الأخطار الصليبية كما حدث فى المغرب العربى .

ومن النتائج التى ترتبت على سيطرة العثمانيين على العالم العربى أنهم ورثوا القيادة فى العالم الاسلامى بعد دولة المماليك المصرية وحظيت الدولة العثمانية بحماية الحرمين الشريفين وأضاف سلاطين آل عثمان الى ألقابهم لقب « خادم الحرمين الشريفين » وكان العثمانيون يطمحون الى مد نفوذهم الى الحرمين الشريفين وتتوق نفوسهم منذ زمن بعيد أن ينعتوا أنفسهم بلقب حماية الحرمين الشريفين ذلك اللقب الذى أعتز به حكام مصر من المماليك وغيرهم وذلك لاعلاء مكانتهم فى العالم الاسلامى وقد عبر السلطان سليم الأول عن هذا الأمل عقب انتصاره فى معركة مرج دابق على المماليك سنة ٩٢٢هـ ودخوله حلب فقد حضر صلاة الجمعة فى مسجد حلب وخطب الخطيب باسمه وأغدق عليه لقب « خادم الحرمين الشريفين » وعندما سمع سليم هذا اللقب من خطيب المسجد طرب له أيما طرب وأظهر الفرح والسرور بتلقبه بهذا اللقب وخلع على الخطيب خلعا متعددة وأحسن اليه احسانا زائدا[1] .

---

(١) انظر : قطب الدين النهروالى : الاعلام بأعلام بيت الله الحرام ، ص١٨٧-١٨٨ .

وحدث تطور آخر يتعلق بالخلافة الاسلامية فبعد أن ظلت الخلافة العباسية بالقاهرة قرابة ثلاثة قرون تحت إشراف أمراء المماليك منذ أن نقلها الظاهر بيبرس سنة ٦٥٨هـ الى القاهرة اذ بها بعد الفتح العثمانى للعالم العربى تنتقل الى الأتراك ويصبح خليفة المسلمين تركيا فى اسلامبول ولعل من الجدير بالذكر أن الخلافة عادت لها هيبتها فى ظل الأتراك حيث كان السلطان العثمانى هو الخليفة وكان يمسك فى يده كل السلطات الزمنية والسياسية والسلطات الدينية أيضا وظل الأمر هكذا حتى إلغاء الخلافة سنة ١٩٢٤م على يد مصطفى كمال أتاتورك .

ولما كانت الدولة العثمانية سنية فقد وقفت سداً منيعاً أمام إنتشار المذهب الشيعى الصفوى فى العالم العربى فحفظت له سيادة المذهب السنى باستثناء بعض الجيوب الشيعية الضعيفة فى العراق والشام واليمن وامارات الخليج العربى ولم تكن لهذه الجيوب تطلعات خارج حدودها بالاضافة الى وجود خلافات مذهبية بينها وبين شيعة فارس .

ويمكن القول بأن الدولة العثمانية حفظت أيضاً لشمال أفريقيا عروبته واسلامه بتآزرها مع المغاربة فى كفاحهم طوال القرون الثلاثة التالية .

ومن النتائج الخطيرة أن الدولة العثمانية لم تشرك العرب فى الجندية وأعفت المواطنين من التجنيد فأضعفت فيهم الروح الحربية القتالية وكانت تتعقب من يحمل السلاح منهم وظلت فى حرب دائمة مثلا مع اليمنين لأنهم أبوا أن يسلموا سلاحهم ، واعتبرت الدولة العثمانية أن مسألة الجندية خاصة بالانكشارية فقط لانها حكمت تلك البلاد بنظرية مستوحاة من بيئتها الرعوية الأولى فى أواسط آسيا والتى تكون العناصر فيها ثلاثة :

الراعى ، والرعية ، وكلب الحراسة ، فطبق العثمانيون هذه النظرية على الشعوب التى دانت لهم فالراعى هو السلطان العثمانى والرعية هم الشعب

وكلب الحراسة هم الانكشارية من الأتراك وحدهم ولا شأن للشعب بقضية الدفاع عن نفسه فهى من شئون كلب الحراسة ونتج عن هذا استرخاء فى عضلات العرب ونسيان للجندية واضعاف للروح القتالية ونسيان لمسائل التسليح وتطويره لأنها كانت من مهام الدولة العثمانية وظل هذا الوضع فى البلاد العربية من ٣٠٠ سنة فى بعض المناطق الى ٤٠٠ سنة فى مناطق أخرى، وعندما واجه العرب الغرب المسيحى بعد ضعف الدولة العثمانية وسقوطها فى النهاية كان من أهم المشاكل العويصة (ومازالت) هى مسألة اعادة الروح العسكرية واعادة التسليح واعادة تنظيم الجيوش وتصنيع السلاح وما يتصل بذلك من المشاكل التى ستظل شغل المسلمين الشاغل حتى يتمكنوا من صنع سلاحهم بأنفسهم وتدريب جيوشهم بروح اسلامية وأيد اسلامية دون اعتماد على الغرب المسيحى وهيهات أن يخلص لهم فى هذا المجال .

ولعل أخطر النتائج قاطبة هو أن الحضارة الاسلامية والثقافة العربية تأخرت عن غيرها من الحضارات والثقافات الأوربية لأن الزعامة ضاعت من العرب وكان التقدم الذى أحرزه العالم الاسلامى باللغة العربية ولم يكن فى مقدور الترك أن ينهضوا بالتراث الاسلامى والعلوم الاسلامية لأن هذا التقدم قطع أشواطا طويلة باللغة العربية وكان قد تضخم بحيث يصعب نقله الى اللغة التركية التى لم تكن مهيأة لذلك ولم يكن الأترك أيضاً كشعب عسكرى مهيأ لهذا العمل ، ولقد منعت العنصرية التركية الترك من ترك لغتهم ومواصلة الحضارة الاسلامية باللغة العربية فتمسكوا بلغتهم ولم يتعرفوا على التراث الاسلامى ليهضموه لا بالتركية ولا بالعربية وظلوا أمة عسكرية فحسب وحالت طبيعتهم العسكرية دون أن يدفعوا الثقافة العربية الاسلامية دفعات الى الأمام ووقع عبؤهم العسكرى على الشرق العربى فترة طويلة ، وعلى الرغم من أنهم حموه فى فترة كان مهددا فيها من الغرب المسيحى الا أنهم أضروه ضررا بليغا ربما من غير قصد فقد أضروه فى مضمار الحضارة وأنسوه كثيرا من فنون

التقدم الحضارية والعسكرية فى فترة عصر النهضة الأوربية ، فبينماكان الغرب الأوربى يتقدم كان الشرق الاسلامى والعربى قد توقف والحكمة الحضارية تقول : « ان من لم يتقدم يتأخر» .

ولم تزل الدولة العثمانية أن ضعفت بعد أن اتسعت اتساعا مهولا ولم تستطع معه أن تجدد نظمها وادارتها ولما كانت عظمتها مبنية على أساس قوتها العسكرية لذا عندما سقطت هيبتها العسكرية سقطت الدولة نتيجة للضربات التى سددها الغرب المسيحى اليها فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وذلك بعد أن تغلغلت فيها الامتيازات الأوربية التى شجعت الغزو الفكرى الذى ساعد فى تمزيق الأفكار والأوطان . وسوف نتناوله فيما بعد فى فصل خاص به ، وأصبحت بلدان الخلافة العثمانية فى يد الاحتكارات الأوربية الرأسمالية وظهرت الأطماع الاستعمارية لاقتسام أملاك الدولة العثمانية التى أطلقوا عليها تركة الرجل المريض وحاول سلاطين العثمانيين أن يقوموا بمحاولات اصلاحية اتخذت النظام الغربى نموذجا لها ولم تكن الدعوة الى الاصلاح نابعة من الشعب بل جاءت من الحكام أى أنها ثورة من القمة وليست من القاعدة وكان الهدف الرئيسى لها تأمين مصالح الحكام والحفاظ على رجال السلطة ولهذا امتد الاصلاح في المقام الأول الى اصلاح آلة الحرب والنظم العسكرية وقد تمثلت هذه المحاولات الاصلاحية أيام سليم الثالث (١٢٠٤-١٢٢٢هـ ، ١٧٨٩-١٨٠٧م) وأيام محمود الثانى (١٢٢٣-١٢٥٥هـ ، ١٨٠٨-١٨٣٩م) وغيرهما من السلاطين الذين أتوا بعدهما فى القرن الثالث عشر الهجرى نظرا لأن هذه المحاولات لم تأخذ بعين الاعتبار الصيحات المخلصة المنبعثة من الجزيرة العربية التى تنادى بالاصلاح على أساس التوحيد الخالص من كل دخيل وعلى أساس عقائد السلف الصالح أى بالبناء على قواعد الماضى التى أسسها الجدود ، وبدلا من أن تتعامل الدولة العثمانية مع هذه الصيحات وتصغى لها التفتت اليها لتضربها كما سنرى فيما بعد .

إقتسام تركة الرجل المريض:

كان الاستعمار يترقب الدولة العثمانية وكان يتعجل فى القرن التاسع عشر إقتسام أراضيها ، فتمكن من اقتطاع كثير منها فى ذلك القرن ، فاحتلت فرنسا (الجزائر) فى سنة ١٢٤٦هـ / ١٨٣٠م كما احتلت بريطانيا (عدن) فى ١٢٥٥ هـ / ١٨٣٩م واحتلت فرنسا (تونس) فى سنة ١٢٩٩هـ / ١٨٨١م ، وغزت بريطانيا (مصر) سنة ١٣٠٠هـ / ١٨٨٢م وضربت ثورتها التى قادها أحمد عرابى ونفته مع لفيف من رجال ثورته الى سيلان ، وأعلنت النمسا ضمها لاقليمى البوسنة والهرسك الى دولتها فى سنة ١٣٢٧هـ / ١٩٠٩م وفى نفس السنة أعلنت بلغاريا استقلالها عن الدولة العثمانية بمعونة الدول الغربية .

ثم نشبت الحرب العالمية الأولى سنة ١٣٣٣هـ / ١٩١٤م فدخلتها الدول العثمانية بجانب ألمانيا والنمسا والمجر وهى ما كانت تسمى دول الوسط أو المحور ضد دول الوفاق أو الحلفاء وهم بريطانيا وفرنسا وروسيا وايطاليا ، وذلك لما كانت تراه تركيا فى الجانب الثانى من مطامع ودسائس ضدها ودارت الدائرة عليها وعلى دول المحور واحتل الحلفاء عاصمتها كما احتلت بريطانيا وفرنسا بعض المناطق فى الأناضول والحجاز وبلاد الشام والعراق ، وكان العرب قد دخلوا الحرب باغراء الانجليز لهم بالاستقلال تحت زعامة الشريف حسين فقد أعطوه وعدا مزيفا بالاستقلال فحارب الدولة العثمانية فى الحجاز والشام معهم.

وفى غضون ذلك اتفقت كل من (بريطانيا وفرنسا وروسيا) فى معاهدة سرية على اقتسام أملاك الرجل المريض فى آسيا فكان نصيب روسيا أن تفوز بالمضايق البسفور والدردنيك وما حولهما ، ونصيب فرنسا سوريا ولبنان ، وبريطانيا العراق وشرق الأردن وفلسطين وهذه المعاهدة هى المعروفة بمعاهدة سايكس بيكو ١٩١٦ وفى سنة ١٩١٧ أعطت بريطانيا وعدا لليهود بإنشاء

وطن قومى لهم فى فلسطين . ونفذه اليهود بمعونة الغرب ، حيث تلاقت المخاوف الأوربية مع الأحلام الصهيونية كما سنذكر فيما بعد .

وهكذا لم تكد تنتهى الحرب العالمية الأولى حتى صفيت الدولة العثمانية، وبقى أن يقضى على نظام الخلافة الاسلامى ، فاصطنع الأستعمار بعد الحرب مصطفى كمال من بين حطام الدولة فقام بدور رئيسى فى إلغاء الخلافة ١٩٢٤م(١٣٤٢هـ) فأعلن (إلغاء الخلافة) فى سنة ١٩٢٤ وأعلن الجمهورية ، ونقل عاصمة الدولة الجديدة الى «أنقرة» وأفقدها المقر التاريخى فى اسلامبول ، وأجرى كثيرا من التغييرات فى تركيا أبعدتها عن الأسلام وأعلن النظام العلمانى للدولة ، و(ألغى الأوقاف الاسلامية) والتعليم الدينى ، وألغى عطلة الجمعة وجعلها يوم الأحد كما يفعل النصارى ، وألغى التاريخ الهجرى وأحل محله تاريخ ميلاد المسيح ، وفى هذه الإجراءات معنى قطع صلة الاسلام والعروبة بتركيا الجديدة ، وأمر بكتابة اللغة التركية بالحروف اللاتينية وإلغاء كثير من الألفاظ العربية منها والتى كانت يومئذ تكون نحو نصفها وأحل محلها ألفاظ أوربية ، وغير ذلك من الاجراءات التى قربت تركيا من أوربا وأبعدتها عن الاسلام والعرب بغية تمدينها كما أدعى مصطفى كمال الذى أغدق عليه الغرب لقب أبو الأتراك (أتاتورك) .

وكان المبدأ الرئيسى فى حركة مصطفى كمال هو العلمانية وقبل فهم هذه الكلمة (أى العلمانية) فلا يمكن فهم تركيا الحديثة ، ان العلمانية فى الغرب معناها فصل الكنيسة عن سلطة الدولة ، ولكن العلمانية فى بلد مسلم تحمل مفهوما أكثر حدة وخطورة ذلك لأن الاسلام ممتزج بالدولة بشكل قوى، فالشريعة تحكم حياة الأفراد فى كل نواحيها ، ولم يستطيع أى بلد إسلامى اختيار طريق العلمانية سوى تركيا ، ولذلك فان تركيا أحدثت بموقفها هذا هزة فى العالم الاسلامى(١) .

---

(١) ضابط تركى لم يعلن عن اسمه ، الرجل الصنم ، ص٥٤١ نقلا عن كتاب «الأتراك» لديفيد هوثمان ، ص٣٤ـ٤٥ .

وتطور مفهوم العلمانية فى البلاد الاسلامية فأصبح يعنى وقوف الحكومات موقف المواجهة ضد شعوبها المسلمة وضد أى تحرك دينى وعلى الأخص الاسلامى والتوتر المستمر بين إتجاه الحكومات العلمانى المرضى للغرب والشعوب المصرة على اسلامها وعلى ذلك فالعلمانية فى المفهوم الغربى أرقى من المفهوم الشرقى لأن الحكومات الغربية لا تنصب نفسها عنصرا مضاداً للدين كما هو الحال فى البلاد الاسلامية العلمانية فالبلاد الاسلامية لا تبيح تكوين الأحزاب على أساس دينى بينما الغرب يبيح ذلك ففى إيطاليا وألمانيا الحزب الديمقراطى المسيحى ومصر التى كان الهلال الإسلامى شعاراً لها غيرته إلى الألوان الثلاثة المأخوذة من علم الثورة الفرنسية المأخوذ من الماسونية التى أعتمدت عليها الثورة الفرنسية بينما الصليب مازال على أعلام كثير من الدول الأوربية منها بريطانيا وليس هذا تعصباً أما عندنا فهو تعصب .

والواقع أن هذا الاصلاح الذى أجراه مصطفى كمال لم يكن هو الاصلاح الأمثل الذى يؤدى الى تقدم المجتمع ، فالمؤرخ الانجليزى « أرنولد توينبى» يرى أن هناك نوعان من السلوك تسلكهما الأمة عندما تغلب أمام أمة أخرى ، أو عندما تقع فى وضع خطر يهدد كيانها :

١ ـ اما أن تتقوقع على نفسها .. وهنا يعطى مثالا لذلك من الحركة السنوسية فى شمال افريقيا والحركة الوهابية فى الجزيرة العربية .

٢ ـ واما أن تقلد الأمة الغالبة .. وهنا يعطى مثالا لذلك من حركة محمد على فى مصر وحركة مصطفى كمال فى تركيا ومع أن توينبى يفضل السلوك الثانى على الأول إلا أنه لا يوافق عليه أيضاً ، بل يعتبره سلوكا خطرا، ويقول بأنه يشبه محاولة تبديل الحصان أثناء عبور نهر جارف ذلك لأن التيار سيجرف ذلك الشخص العابر قبل أن يستقر على ظهر الحصان الجديد .

ثم يضيف قائلا بأن السلوك الثانى يحمل فى طياته خاصتين سيئتين :

الأولى : ان هذا السلوك يخلو من الابداع لأنه مجرد تقليد أعمى ، لا يضيف شيئا جديداً .

الثانية : أنه يبقى منحصرا فى طبقة معينة أى أن محاولة التقليد هذه تبقى منحصرة فى فئة صغيرة من مدعى الثقافة ولكنها لا تصبح حركة جماهيرية ولا تنزل الى صفوف الشعب .

والذى يتمعن فى حركة مصطفى كمال يرى العجب فى المدى الذى وصل اليه فى تقليد الغرب ، حيث نراه :

(١) يغير الأحرف التركية الى الأحرف اللاتينية .

(٢) غير القيافة الى القيافة الغربية ، وغير حتى الأعياد الدينية .

(٣) وجعل يوم الأحد العطلة الأسبوعية بدلا من الجمعة ومنع الحج الى مكة ، للدرجة أنه منع إذاعة الموسيقى التركية والأغانى التركية والموسيقى الشرقية من الإذاعة ، وصدرت أوامره بأن تذاع الموسيقى الغربية فقط .

وبعد سنوات من هذا المنع أصدر أمره بإذاعة الموسيقى والأغانى التركية من الأذاعة . . وصدر أمره هذا فى جلسة شراب ! . اذ كان يوما فى مجلس شراب فى فندق «بارك» فحن لسماع الأغانى التركية القديمة فاستدعى المطرب المعروف « نور الدين سلجوق » حيث طرب من أغانيه غاية الطرب ، ويقال أنه بكى ، ومن جلسة الشراب هذه أصدار أمره باذاعة الأغانى التركية لأنه دفعه اليها حنين الذكريات[١] .

ولعل هذه الحادثة تعطينا فكرة عن أنه كان مدفوعا فى تغييراته بدافع غير

---

(١) المرجع السابق ص ٩ـ١٠ .

ذاتى وعندما أتيحت له فرصة التحرر من القيود الذاتية عبر عما فى داخله عندما طلب سماع الموسيقى التركية فى نوبة شراب وبكى عند سماعها ، ولعل هذه الحادثة أيضا تمثل الشعب التركى وأن ما أصابه عارض وعندما يتحرر من قيوده فانه يعود الى أصله .

تركيا المعاصرة :

ظلت تركيا بعد مصطفى كمال دولة متخلفة فقيرة وظل العداء الأوروبى كامنا ضدها ، ولم يحمها من تعصب الغرب المسيحى ضدها انضمامها الى حلف شمال الأطلسى فظل الأوربيون حتى الآن ينظرون اليها على أنها دولة اسلامية وينحازون ضدها فى صراعها مع اليونان فى قضايا الحدود فى بحر ايجه وبشأن قضية الأقلية المسلمة التركية فى قبرص . ويقولون عنها أنها تحولت من رجل أوربا المريض الى شحات أوربا الأول .

والجيش التركى يقبض على تركيا بيد من حديد ويسيطر عليه تنظيم سرى موال للغرب والماسونية العالمية حتى اذا فكر الشعب يوما فى صحوة إسلامية ترى الجيش يقوم بأنقلاب عسكرى يسيطر به على الأوضاع ويعيدها الى الخط العلمانى الموالى للغرب ، ويهلل الغرب لذلك مثلما حدث فى سبتمبر ١٩٨٠ ضد اليقظة الاسلامية التى تتطور يوما بعد يوم فى البلاد . وكذلك فعلوا مع حزب الرفاه الإسلامى الذى فاز بأغلبية فى مقاعد البرلمان وتسلم رئيسه اربكان رئاسة الوزراء ، ثم تآمروا عليه وأجبروه على تقديم الإستقالة وكلفوا حزبا علمانيا بتكوين الوزارة .

فعندما قامت هذه اليقظة منذ مدة رأى الغرب فيها خطراً وعودة الى القرون الوسطى فعملت أمريكا على احتوائها وقمعها بانقلاب يقوم به عملاؤها فى الجيش .

وحين وقع انقلاب عسكرى مماثل فى بولندا وأعلن العسكريون الأحكام

العرفية ثار الغرب ورأى أن هذا اعتداء خطير على حقوق الانسان البولندى طبعا لأن الأنقلاب العسكرى الأول لحساب أمريكا والانقلاب العسكرى الثانى لحساب روسيا . على الرغم من وحشية الانقلاب التركى الذى وضع كل أحزاب المعارضة فى السجن وأعلنوا الأحكام العرفية ، وعلى الرغم من ذلك تنفس الغرب الصعداء ورحب بالانقلاب بمقولة أنه أنقذ تركيا من الفوضى ويقصدون بذلك التحول الى الاسلام .

أى ما يعد نهضة فى أوربا (على الرغم من صلته فى بولندا بالكنيسة) فهو فى نفس الوقت همجية فى تركيا والبلاد الاسلامية ويجب ضربه بقوة العسكر ، بينما تتكاتف دول الغرب لتحرس وتحمى يقظة الشعب البولندى ..

وكأنى بالذين تآمروا على الدولة العثمانية أرادوا أن يستمر تآمرهم ، فبعد موت (مصطفى كمال) أصدر هؤلاء قانونا لحماية تاريخ مصطفى كمال من أى إنتقاد، ولا يزال هذا القانون سارياً حتى اليوم ، انه قانون غريب فى بلد يدعى أنه يسير على النهج الديمقراطى قانون يكمم الأفواه لم يسبق له مثيل حتى فى الدول الديكتاتورية العاتية مثل روسيا الشيوعية فان الذين أتوا بعد ستالين كشفوا حقيقته . وكذلك حقيقة لينين وتركوا الشيوعية .

والذى يحدث فى تركيا بعد مصطفى كمال دليل الخوف من انكشاف حقائق خطيرة ، كما أنه دليل العجز على مقاومة هذه الحقائق التى يخشى أن تنكشف .

والمفكر في تركيا الحديثة يستطيع أن يطعن فى الرسل والأنبياء والناس أجمعين وبجميع الكتب السماوية وغير السماوية حتى فى ذات الله جل فى علاه ، وبكل شىء ولكنه لا يستطيع أن يقول حرفا واحدا ضد مصطفى كمال.

لقد جعلوا منه صنما فى حياته وبعد مماته وهم يحاولون أن يمنعوا هذا الصنم من أن يتهاوى تحت ضربات الحقائق[1] .

---

(١) الرجل الصنم ، ص ٧ ـ ٨ .

وبعد أن انطفأت فكرة اعادة الخلافة للعالم الاسلامى تمكن الاستعمار من ترويج فكرة القوميات لتمزيق العالم الاسلامى الى عصبيات جنسية متعادية ومتنافسة ومتحاربة أحيانا ، وتفريق كلمتهم كما هو واقع المسلمين اليوم .

كما قامت الدول الاستعمارية بحركة نشطة فى ميدان الغزو الفكرى والثقافى عن طريق حكم الوصاية والانتداب والاستعمار واعداد قيادات عملية داخل الأوطان العربية والاسلامية تؤمن بالحضارة الغربية وقوانين الغرب بديلا عن الحضارة الاسلامية والشريعة الاسلامية .

الفصل الثانى

اليقظة فى مصر فى القرن ١٩ :

كانت مصر أول بلد فى المشرق الإسلامى ينقل النظام النيابى من أوربا سنه ١٨٦٦ والواقع أن النظام النيابى الأوربى ما هو إلا نظام الشورى الإسلامى أحسنت صياغته وتقنينه فى أوربا فى العصر الحديث ، وقد سبقت مصر بذلك الدولة العثمانية التى كانت مصر تابعه لها من ناحية القانون الدولى ، فالدولة العثمانية لم تحظ بالنظام النيابى إلا فى سنه ١٨٧٦ ومع ذلك عطله السلطان عبد الحميد الثانى .

ويدأ الوعى السياسى ينمو بسرعه فى مصر فى أوائل السبعينيات ١٨٧١م- وكانت هنالك عوامل ساعدت على هذا النمو السريع كان فى مقدمتها بطبيعة الحال تلك الكوارث والنكبات التى حلت بمصر بسبب سياسة الحكومة المالية فى عصر الخديو اسماعيل وتدخل الأجانب فى شئون البلاد ، مما جعل الناس يتبرمون بهذه الحالة السيئة ويبحثون عن الوسائل المؤدية للخلاص منها.، ومن هنا نشأت نيضه عامة فى أفكار الخاصة ظهرت فى كتاباتهم فى الصحف والمجلات التى بدأت تظهر لأول مرة فى مصر ، وكانت هذا الأفكار تتلخص فى التطلع إلى اصلاح الحال ، وإنقاذ البلاد من الكوارث التى نزلت بها ، منذ أن تحولت مصر إلى معبر عالمى للتجارة الدولية بعد افتتاح قناة السويس سنه ١٨٦٩م ، وزادت مطامع الدول الكبرى فيها وخاصة بريطانيا وفرنسا .

وأصبحت مصر مركزاً لصراع دولى بين كل الأطراف التى تريد أن تسيطر على العالم بشكل أقوى من قبل افتتاح القناة (١)

(١) جمال حمدان ، شخصية مصر ، ص ١٨١

وكان لمجيء جمال الدين الأفغانى إلى مصر سنه ١٨٧١م أكبر الأثر فى تنمية الوعى السياسى ونهضة الأفكار المعارضة للظلم لميله الشديد إلى الحرية وكراهيته للظلم ، فأخذ يلقى على تلاميذه فى الجامع الأزهر دروساً فى الحرية وضرورة تحرر العالم الإسلامى من نير الظلم الاستعمارى وظلم الحكام المستبدين وأخذ يحضهم على أن ينشدوا الحرية ويخلعوا العبودية ، وأخذ يعلمهم حقوق الناس وواجبات الحاكم .

ومن ثم ظهرت روح المعارضة واليقظة فى مجلس شورى النواب وفى الصحافة وكان من تلاميذه محمد عبده وعبد السلام المويلحى زعيم المعارضة فى مجلس شورى النواب ، وأديب إسحق رئيس تحرير جريدة (مصر) التى كان يكتب فيها الأفغانى بعض المقالات مرة باسمه ومرة تحت اسم مستعار هو «مظهر بن وضاح» .

وكان من تلاميذه سعد زغلول عندما كان طالباً فى الأزهر . وكان من أثر هذه الدعوة قيام ثورة الضباط فى ١٨ فبراير ١٨٧٩م وإسقاط الوزارة الأوربية التى كانت برئاسة « نوبار باشا » الأرمنى الأصل ومن ذوى الميول الأوربية وكان بوزارته وزيرين أوربيين ، وكانت هذه الوزارة تمكن للأجانب فى مصر .

وعندما ناصر الخديوى اسماعيل الحركة الوطنية الناشئة ووسع من نفوذ مجلس شورى النواب تآمرت عليه بريطانيا وفرنسا لدى السلطان العثمانى وتم خلعه من عرش مصر وتنصيب ابنه توفيق خديوياً لمصر فى ٢٦ يوليو ١٨٧٩م.

وكان توفيق بن اسماعيل مستسلماً لمطامع بريطانيا وفرنسا ولا سيما أنه أتى الحكم بإرادتهما ، وكان خلع والده بهذه الإرادة أيضا . فساير الأجانب

فى القضاء على اليقظة الفكريه التى نشأت فى مصر ، فعطل مجلس شورى النواب فى يوليو ١٨٧٩م فتعطلب الحياة النيابية فى أول حكمه نحو عامين .

وبدأت نهضة وطنية أخرى فى أوائل حكمه تزعم الجيش فيها طليعة النضال ، وهى النضه التى عرفت بالثورة العرابية .

الثورة العرابية

بعد تعطيل مجلس شورى النواب وجد توفيق نفسه أمام تيار وطنى قوى ووعى سياسى جارف أخذ يزداد بسرعة واتصل الأحرار والوطنيون برجال الجيش ، وحاول توفيق أن يشل الحركة الوطنيه فقام بنفى جمال الدين الأفغانى من مصر إلى الهند وحاول تشويه سمعته فنشر بلاغاً رسمياً نسب فيه إليه السعى فى الأرض بالفساد ، « وأنه رئيس جمعية سرية من الشبان ذوى الطيش مجتمعة على فساد الدين والدنيا »(١).

ولم يكن نفى الأفغانى من مصر ليقضى على الحركة الوطنية بها فقد بدأت الحركة تقوى وظهر صداها فى الجيش المصرى وظهرت الثورة العرابية على يد « أحمد عرابى » أحدضباط الجيش وصحبه فى أوائل سنة ١٩٨١م .

وكانت ثورة عرابى فى بدايتها ترمى إلى إنصاف الضباط المصريين وإعطائهم حقوقهم المشروعة فى المناصب العسكرية ووضع حد للإضطهاد الذى كانوا يعانونه من الرؤساء الترك والشراكسه فى الجيش .

ثم تطورت الحركة العرابية إلى حركة عامة اشتركت فيها جميع الطبقات

---

(١) نص هذا البلاغ منشور فى جريدة الوقائع المصرية ، عدد ٣١ من أغسطس ١٨٧٩ وفى الأهرام عدد ٣١ من اغسطس ١٨٧٩ م.

المصرية للتخلص من حكم توفيق الاستبدادى وتقرير مبادىء العدل والحرية والمطالبة بالدستور وكان ذلك بمثابة الشرارة التى أنطلقت منها الثورة العرابية وكانت هذه هى أسباب الثورة العرابية المباشرة ، وهى التى ترجع إلى تذمر الضباط المصريين من سوء معاملتهم وخاصة على يد عثمان باشا رفقى وزير الحربية فى عهد وزارة رياض باشا (١٨٧٩ - ١٨٨١م) وكان شركسياً متعصباً لجنسه وبالإضافة إلى هذه الأسباب المباشرة توجد أسباب أصلية تتلخص فى تذمر المصريين من سوء الحالة التى وصلت إليها البلاد فى أوائل حكم توفيق ورغبتهم فى التخلص من نظام الحكم المطلق وقد أدرك المثقفون من الأمة أن هذا إنما يكون بقيام الدستور وإنشاء مجلس نيابى يحقق الرقابة على الحاكم المستبد يحول دون إرتكاب المظالم ومن هنا إتحدت الطبقة المثقفة من المصريين مع الضباط الوطنين وأنشأوا جمعية وطنية عرفت « بالحزب الوطنى» فى نوفمبر ١٨٧٩م وكان فى مقدمة أعضائها « أحمد عرابى» وصاحباه «عبد العال حلمى» و « على فهمى » و « محمود سامى البارودى » الشاعر المعروف وغيرهم وجعلوا مركزه مدينة حلوان فى جنوب القاهرة .

وقد بدأت الثورة فى دورها الأول عندما أعتقلت الحكومة فى فبراير ١٨٨١م « أحمد عرابى» وصاحباه « على فهمى »و«عبد العال حلمى»وأحالتهم إلى مجلس عسكرى لمحاكمتهم بتهمة التمرد والعصيان، فثار زملاؤهم الضباط وقادوا الجند إلى قصر النيل حيث كان زملاؤهم معتقلين وأقتحموا القصر عنوة وأطلقوا سراحهم وطلب الثوار إقالة « عثمان رفقى » وزير الحربية وتعيين «محمود سامى البارودى » مكانه فلبى الخديوى توفيق طلبهم وبذلك أشتدت الحركة العرابية وزادت شهرة عرابى حتى أصبح زعيماً قومياً أتجهت إليه الأفكار لتحقيق أمانى الشعب .

وأعتزم العرابيون التقدم فى حركتهم والمطالبة بحكم شورى صحيح فحشدوا قوات الجيش المرابطة بالقاهرة فى ميدان عابدين فى ٩ من سبتمبر فى سنة ١٨٨١م وقدموا مطالب الأمة للخديوى وكانت تتلخص فى إسقاط وزارة رياض باشا وتأليف مجلس النواب وزيادة عدد الجيش فأزعن الخديوى لمطالب الجيش فأستقال رياض وتولى الوزارة شريف باشا وكان من الأحرار وهى الوزارة المعروفة بوزارة الأمة فأعاد مجلس النواب فى ديسمبر سنه ١٨٨١م وعرض على المجلس أول دستور لمصر ولذلك يكون قد أعطى للمجلس سلطة الدستورية والتشريعية .

التدخل الأوروبى:

غير أن الحقد الأوروبى تحرك من جديد فلم تكن بريطانيا وفرنسا تنظران بعين الرضا إلى قيام النظام الدستورى فى مصر ، فأرسلتا مذكرة مشتركة فى ٧من يناير ١٨٨٢م إلى الحكومة المصرية تعترضان فيها على تخويل مجلس النوب حق تقرير الميزانية بحجة أن تقريرها يضر بحقوق الدائنين وهى حجة واهية ظاهرة البطلان لأن الدستور تضمن أن المجلس سيراعى العقود والأتفاقيات المالية المعقودة مع الأجانب ، غير أن العرابيين تشبثوا برأيهم وأستقال « شريف باشا » .

وتولى الوزارة محمود سامى البارودى الشاعر فألف الوزارة وتولى عرابى وزارة الحربية وهى الوزارة المعروفة بوزارة الثورة وبها بدأت المرحلة الثانية للثورة العرابية وفيها بدأت بريطانيا توقع بين العرابيين وتوفيق و تعمق الخلاف بينهما لكى تفتح ثغرة لتدخلها فى البلاد وتوقف تيار الثورة ونمو الوعى الوطنى الذى تطور تطوراً سريعاً فى البلاد ، وعزم رجال الثورة على عزل الخديو فأعلنت بريطانيا وفرنسا مناصرتهما للخديو وأرسلت أساطيلهما إلى

المياه المصرية وقدمت مذكرة مشتركة تطالب فيها بأستقالة وزارة البارودى وخروج عرابى من القطر المصرى فرفضت الوزارة هذا الطلب وأجتمع العرابيون وأقسموا على أن يكونوا يداً واحدة للدفاع عن البلاد وتولى الشيخ محمد عبده وضع صيغة اليمين وتحليف كبار الضباط على القرآن الكريم .

وتطورت الأمور عندما قبل توفيق مطالب الدولتين ، واستقالت وزارة البارودى احتجاجاً على مطالب الدولتين وقبول الخديوى لها وأقدم الإنجليز على ضرب الاسكندرية بحجة تحصين العرابيين لها ، كأنه ليس من حق مصر تحصين ثغورها . ثم دخلت القوات الإنجليزية قناة السويس باسم الخديو وانحاز الخديو اليهم بالاسكندرية « وتقابلت القوات الانجليزية مع قوات الثورة العرابية فى معركة التل الكبير ودافع رجال الثورة دفاعاً مشهوداً ولكن قوات الانجليز كانت متفوقة» فكان الاحتلال الانجليزى لمصر سنة ١٨٨٢ والذى دام حتى جاءت ثورة يوليو المجيدة سنة ١٩٥٢ م.

ولقد كانت الثورة العرابية مصرية صميمة ، آمن رجالها بالله وبالوطن وضرورة حصول مصر على حقوقها ، وكانت ثورة على الظلم والاستبداد كما كانت ثورة ضد الاستعمار وأعوانه ، وكانت تريد الحد من التدخل الأجنبى ، وتحاول بناء مصر ولكنها لم تجد تأييداً من حاكم البلاد ، وعلى الرغم من فشل الثورة العرابية فى تحقيق الاستقلال للبلاد، وعلى الرغم أيضاً من أنها اقترنت باحتلال انجلترا لمصر ، إلا أنها كانت مثلاً رائعاً فى الوطنية والبطولة وخطوة كبيرة فى تقدم الوطنية المصرية ، وكانت هذه الثورة الهاماً لقرارات أخرى فى المستقبل من أجل الحرية والاستقلال .

والذى يجب أن نلاحظه هنا هو أنه لم تحدث مقاومة شعبية لجيش الاحتلال الانجليزى كما حدث ابان المقاومة الشرسة التى جابهت

الحملةالفرنسية، وكان السبب فى ذلك أن قيادة الأمة كانت قد نحيت على يد محمد على وانتقلت من أيدى الصفوة المتعلمة ، وأصبحت هذه المرة فى الجيش، فلما سقط الجيش فى معركة التل الكبير سقطت مصر ، ونعم الانجليز فيها بهدوء دام أكثر من ربع قرن لأنها كانت بلا قيادة لأن قيادتها الطبيعية كانت قد نحيت وصفيت ، ولأن عملية التغريب كانت قد تمت بنجاح، وأصبحت البلاد ناضجة لكى يتناولها السيد الغربى (١) ..

وليس أدل على ذلك من قول الأستاذ الامام محمد عبده عن الفرق بين تلقى الشعب المصرى لصدمة الاحتلال الفرنسى وتلقيه لصدمة الاحتلال البريطانى بعد حوالى ثمانين سنة :

« فى المرة الأولى قوبل الاحتلال بمقاومة شعبية شاملة لم تنقطع بل استمرت فى تزايد مستمر وشهدت القاهرة ثورتين عنيفتين فى خلال ثلاث سنوات ، بينما سادت الروح الانهزامية واليأس المدمر فى أعقاب الاحتلال البريطانى ، وكيف عجز الفرنسيون عن إيجاد جهاز دولة متعاون ، وواجهوا مقاومة شرسة من شيوخ الأزهر ، بينما لم يجد كرومر صعوبة فى إدارة مصر بنفس جهاز الدولة الذى أقامته أسرة محمد على مع زيادة عدد المستشارين الأجانب الذين كانوا قد دخلوا الجهاز بالفعل قبل الاحتلال بسنوات (٢) » .

---

(١) محمد جلال كشك . ودخلت الخيل الأزهر – الدار العلمية – لبنان – بيروت ١٣٩١هـ ١٩٧٢م ص ٩ .

(٢) الشيخ محمد عبده – مجلة المنار – عدد ٢يونيو عام ١٩٠٢ (١٣٢٠هـ) من مقالة له عن الخسائر التى أصابت مصر فى عصر محمد على ، نشره الامام بمناسبة مرور مائه عام على تأسيس دولة محمد على .

وانظر أيضاً هذه المقالة فى تاريخ الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده ، للسيد محمد رشيد رضا الطبعة الأولى مطبعة المنار – القاهرة ١٣٢٤هـ جـ٢ ص ص ٤١٤ – ٢٤٥.

احتل الانجليز مصر وأعلنت بريطانيا أن الهدف من الاحتلال هو اعادة سلطة الخديوى توفيق التى هددها العرابيون ، وقمع الثورة العرابية ، ثم الجلاء عن البلاد، وبعد أن أخمدت الثورة العرابية واستقر الخديوى على عرشة تلكأت بريطانيا فى الجلاء عن مصر وأخذت تبسط سيطرتها العسكرية والادارية والمالية عليها ، فألغت الجيش الوطنى لأنه مناصر للعرابيين وأنشأت جيشاً ضعيفا لم يكن يتمتع بروح وطنية ، فكان يرأسه (سردار) انجيزى وبه كثير من الضباط الانجليز ، ثم وضعت يدها على البوليس المصرى قبل أن يمضى على الاحتلال أربعة أشهر ، وألغت قوانين الاصلاحات كما ألغت البحرية المصرية وسيطرت على المالية المصرية بالغاء الرقابة الثنائية ، وتعيين مستشار مالى بريطانى فى أوائل سنة ١٨٨٣م ووضعت قواعد لحمايتها المقنعة التى فرضتها على مصر ، وكان قوام هذه الحماية بقاء جيش الاحتلال والزام الحكومة المصرية باتباع نصائح الحكومة الانجليزية .

وبعد أن تمكنت بريطانيا من البلاد ظن الناس أن مصر قد انتهى بها الأمر إلى مستعمرة انجليزية وأن جلاء الانجليز عنها من المستحيل ، ولكن الحركة الوطنية بدأت فى الظهور . فقد ارتفعت فى مجلس شورى القوانين أصوات ترفض أن يدفع المصريون جزءا من ميزانيتهم لنفقات جيش الاحتلال ورأينا شريف باشا يرفض اخلاء السودان ، واستقال من الوزارة فى يناير ١٨٨٤م قائلاً : « أن حكومة مصر لا تقبل مطلقاً تلغراف اللورد جرانفل القائل بوجوب كل نصيحة انجليزية بدون تردد مادام جيش الاحتلال موجوداً فى مصر» ورفض كثير من رجالات مصر أن يتولوا منصب رئاسة الوزراء على قاعدة اخلاء السودان وتقبل النصائح الانجليزية ، وأخيراً تولاها رجل أرمنى الأصل هو نوبار باشا فى يناير ١٨٨٤م على أساس تنفيذ السياسة الانجليزية القائلة بالتخلى عن السودان ، وعلى هذا النحو مضت وزارة نوبار فى مصر تصدع بما تؤمر به من الانجليز وتقدم المصالح البريطانية على المصالح

المصرية .

وفى هذا الجو المعتم الخانق لم يركن الشعب المصرى الى الاستكانة والخضوع تماماً للاحتلال كما يعتقد بعض المؤرخين والكتاب ، فقد انطلق عدد من الصحف المصرية تندد بالاحتلال وتهاجم وزارة نوبار ، ولقيت هذه الصحف صنوفاً شتى من الضطهاد على يد نوبار : فقد عطل جريدة الأهرام شهراً والغى جرائد : مرآه الشرق والزمان والوطن وغيرها ، وأنذار البعض الآخر.

وكان الشيخ (محمد عبده) قد حكم عليه الانجليز بالنفى الى خارج البلاد ثلاث سنوات فالتقى بالسيد جمال الدين الأفغانى فى باريس ونظما عملية الكفاح ضد الاحتلال الانجليزى لمصر وهناك أسسا جريدة (العروة الوثقى) لأثارة العالم الإسلامى ضد الانجليز بسبب احتلالهم لمصر ، فبعثت هذه الجريدة روح الأمل فى نفوس المصريين ، ودفعتهم الى الجهاد ، كما دعت هذه الجريدة الأمم الشرقية بوجه عام الى مناهضة الاستعمار والأخذ بأسباب الحياة والقوة .

وقد كان لهذه الجريدة التأثير الكبير فى مصر والعالم الإسلامى فى آثارة الأفكار ضد السياسة البريطانية فمنعت دخوليا الى مصر والسودان والهند ووضعت حكومة (نوبار باشا) غرامة مالية كبيرة على كل من توجد عنده نسخة منها (١) عمل (محمد عبده) و(الأفغانى) على نشر الروح الإسلامية والترابط الأسلامى وحض العالم الإسلامى على الالتفاف حول تركيا وأدرك الحكيمان

---

(١) احتجبت جريدة العروة الوثقى بعد صدور العدد الثامن عشر فى ١٦ من اكتوبر سنة ١٨٨٤ وكان هذا العدد آخر ما صدر منها . وكان أول عدد ظهر فى ١٣ من مارس ١٨٨٤ فكأنها استمرت فى الظهور سبعة شهور.

انظر : أعداد مجلة العروة الوثقى مجموعة فى مجلد واحد تحت عنوان «العروة والوثقى» نشر دار الكتاب العربى بيروت ، ١٤٠٠هـ (١٩٨٠م)

أن سبب تأخر المسلمين يرجع الى تفرقهم ، وكانت الحركة الوطنية فى مصر قبل الاحتلال الانجليزى مصرية صرفة « وبعد الاحتلال أصبحت مصرية تستظل بحركة الجامعة الإسلامية ، ومما ساعد على ذلك كتابات (جمال الدين) و (محمد عبده) فى العروة الوثقى ، ثم معارضة الدولة العثمانية للوجود الانجليزى بمصر الإسلامية .

حركة مصطفى كامل :

كان مصطفى كامل ثمرة كفاح جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده وأحمد عرابى وغيرهم ، وإن شئت فقل ثمرة النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، فقد ولد فى ١٤ من أغسطس سنة ١٨٧٥م وشهدت طفولته مجىء جمال الدين الأفغانى إلى مصر وتطور الوعى السياسى بها على يديه ، كما شهدت فترة صباه الثورة العرابية وفشلها فى تحقيق كرامة الأمة ، وعاش فترة شبابه المبكر وشهد آثار اليأس المدمر الذى أصاب نفوس المصريين عقب الاحتلال الانجليزى ١٨٨٢م فأخذ يبعث الأمل فى نفوس المصريين بكلماته الخالدة : « لاحياة مع اليأس ولا يأس مع الحياة » ، وبدأ مصطفى كامل حركته باحياء الشعور الوطنى وتجلية روح المصريين التى ران عليها الخضوع المهلك ، فحارب ما أحدثه المستعمر من يأس فى النفوس ، وكان ظن الجميع أن مصطفى كامل يحاول مستحيلاً ، ولكنه كان يقول : « قد قيل لى أكثر من مرة انى أحاول محالا ، وحقيقة تصبوا نفسى الى هذا المحال » ويقول : «أنى أريد أن أوقظ فى مصر الهرمة مصر الفتاة » (١) .

---

(١) من رسالة مصطفى كامل الى الصحفية الفرنسية مدام جوليت آدم فى ١٢ سبتمبر ١٨٩٥ . أنظر عبد الرحمن الرافعى ، مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية الطبعة الرابعة مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٦٢ ص ٥٩ - ٦١ .

وكان مصطفى كامل يعتمد على الكفاح فى مجالين : المجال الخارجى: والمجال الداخلى: ، فاما برنامجه الخارجى فيعتمد فيه على ابراز قضية مصر فى المحافل الدولية وفى الصحافة الأوروبية وخاصة الصحافة الفرنسية وكان يقوم على إنتهاز الأحداث الدولية لصالح مصر ،وفى هذا الصدد اعتمد على فرنسا التى كانت تحقد على الوجود الانجليزى فى مصر فلم تكن توافق عليه وحاولت اثارة العراقيل فى وجه بريطانيا وأصرت على مطالبتها بتحديد موعد للجلاء عن مصر وأصرت على أمتيازاتها فى مصر وناصرت حركة مصطفى كامل الذى حاول استغلال هذا الموقف وأخذ فى نشر مقالاته فى صحفها وإلقاء محاضراته فى محافلها .

كما اعتمد أيضاً فى مجال الكفاح الخارجى على مناصرة حركة الجامعة الإسلامية لصالح مصر ، فكان يرى أن المحافظة على العلاقة مع العثمانيين فيه رد لأطماع الأوربيين وعامل مساعد من الناحية القانونية فمصر من الناحية القانونية كانت ماتزال حتى بداية الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤م تابعة للدولة العثمانية وولاية من ولاياتها ، فكان هذا يمثل عقبة قانونية فى وجة الانجليز ، وقد حاول الانجليز شراء هذا الحق القانونى لتسقط هذه التبعية ، كما حاول مصطفى كامل أن يستفيد من هذه العلاقة القانونية ، لأن مصر بمفردها لاتستطيع اخراج الانجليز دون معونة الدول الإسلامية وخاصة تركيا ، فكان يود أن يظل محافظاً على التبعية العثمانية الى أن يتمكن المصريون من اخراج الاحتلال الانجليزى ، ثم بعد ذلك يكون السعى للإستقلال عن الدولة العثمانية ، وطلب من السلطان أن يشترط على دول أوربا لعقد الصلح جلاء الانجليز عن مصر ، مقابل جلاء الجيش العثمانى عن بلاد اليونان ، وقد كان هذا الاقتراح آية فى الوطنية (١) كما يدل على أنه كان يلعب بالورقة العثمانية

(١)عبد الرحمن الرافعى – المرجع السابق – ص ١٠٠ .

ولا يلعب العثمانيون به ، ونظراً لنزعته الإسلامية فقد وجد تعاطفاً من الدول الإسلامية .

أما برنامج مصطفى كامل الداخلى فكان يقوم أولاً على نشر العلوم والمعارف ونشر الوعى الوطنى فى مصر لإيقاظ المصريين ، وكان يطالب بأدخال الدين فى التعليم ، ومن أجل ذلك رماه أعداؤه بأنه مناصر للجمود ويروم أن يدعوا إلى دعوة دينية جديدة بيد أنه يرى أن محاربة الجمود بسم الدين لن يكون الا بالدين الحقيقى نفسه فيجب كشف الحقيقة الدينية بأصالتها للناس لكى ينتفى عنها الجمود والزيف العثمانى .

وبعد إعلان الاتفاق الودى بين انجلترا وفرنسا سنة ١٩٠٤م (الذى بموجبه تعهدت الحكومة الفرنسية من جانبها « بأن لا تعرقل عمل انجلترا فى مصر لا بطلب تحديد أجل للاحتلال البريطانى ، ولا بأى صورة آخرى » وهذا الالتزام من جانب الحكومة الفرنسية مقابل التزام الحكومة البريطانية أن لا تعرقل عمل فرنسا فى مراكش ، ومعنى هذا الاتفاق اقرار فرنسا للاحتلال البريطانى فى مصر ، بعد هذا الاتفاق أدرك مصطفى كامل أن معارضة فرنسا للوجود الانجليزى بمصر نوع من المساومة لتعويض فرنسا عما فقدته فى مصر، وأدرك زيف المعارضة الفرنسية ، ومن ثم نجد مصطفى كامل بعد هذا الاتفاق يضاعف جهوده فى المجال الداخلى ، فأخذ يركز جهوده فى الاعتماد على النضال الداخلى ، فأسس نادى المدارس سنه ١٩٠٦م وجمع حوله فيه صفوة المثقفين فى مصر الذين تشربوا مبادئه وتشبعوا بتعاليمه من أجل خدمة الوطن ، وبذلك [illegible] روح الوطنية الى الطبقة المثقفة من الأمة ، كما آمن مصطفى كامل بأن العمل السياسى يحتاج إلى تنظيم فأنشأ الحزب الوطنى فى سنة ١٩٠٧ الذى ساعد فى جمع الأحرار تحت لواء هذا الحزب وزاد من ضغطه على الاستعمار الانجليزى .

ويرجع الفضل الى مصطفى كامل فى أنه هو الذى وحد عناصر الأمة من المسلمين والأقباط واليهود ، فكان يرى أن المسلمين والأقباط فى مصر أمة واحدة لا يمكن التفريق بينهمامدى الأبد ، فهم يتحدون فى العادات والتقاليد والتاريخ ، ومن ثم توحدت الأمة فى ثورة ١٩١٩م فكان المسلمون والأقباط يدأ واحدة وتعانق الهلال والصليب وهذا بفضل جهوده (١) ، وكان يعارض أن ينقسم المجتمع فى مصر الى مسلمين وأهل ذمة كما كان على ذلك العثمانيون.

وبعد أن توفى مصطفى كامل فى ١٠من فبراير ١٩٠٨ بقيت روحه تبعث على الثورة ، وخلفه فى تزعم الحركة الوطنية (محمد فريد).

---

(١) يجب أن لا ننسى جهود جمال الدين الأفغانى فى هذا المجال أيضاً ، فقد جمع حوله بجانب المسلمين المسيحيين واليهود فى مصر ،فكان من تلاميذه ومريديه أديب أسحاق المسيحى ويعقوب صنوع اليهودى وغيرهما .

الفصل الثالث

الوطن العربى إبان الحرب العالمية الأولى

كان الوطن العربى ميدانا من ميادين الصراع إبان الحرب العالمية الأولى التى دارت رحاها بين :

دول الوفاق : بريطانيا وفرنسا وروسيا والولايات المتحدة الأمريكية.

ودول الوسط : النمسا والمجر وألمانيا وتركيا .

وكانت الدولة العثمانية تملك العراق وساحل الخليج العربى ولها سيادة على الحجاز ومصر وسواحل البحر الأحمر واليمن ، وبلاد الشام (سوريا ولبنان و فلسطين ، والأردن).

وكانت الدولة العثمانية تستطيع بهيمنتها على الحرمين الشريفين إعلان الجهاد الإسلامى فى موسم الحج ويكون له تأثير فى العالم الإسلامى ، وبذلك حاول الألمان تقوية تحالفهم مع الدولة العثمانية وأصبح لهم نفوذ في تركيا عن طريق التواجد في الجيش التركي وفي الإدارات التركية المختلفة (١).

ولما كان ملايين المسلمين يقعون تحت سيطرة بريطانيا وفرنسا وروسيا، فكانت دول الوفاق تخشى من إعلان الجهاد الإسلامى في شتى بقاع المعمورة ضدهم وخاصة أن إمبراطور ألمانيا اقترح حرباً دينية مقدسة لتحطيم النفوذ البريطانى والفرنسى في الشرق ، وكان يعول على الشعوب الإسلامية ويقول «إذا نجحنا في حشدها ضد الإنجليز والروس فإننا نستطيع أن نرغم هاتين الدولتين على طلب الصلح » (٢).

(١) د. رأفت الشيخ ، تاريخ العرب المعاصر ، ص ٣٢

(٢) د. محمود منسي ، تاريخ الشرق العربي الحديث ، ص ٣٢٧.

وأصدر بياناً إلى المسلمين الذين يحاربون في صفوف دول الوفاق بأنهم يعتبرون في نظر الألمان أعداء وأنهم إذا وقعوا أسرى في يد الألمان فسيرسلون إلى تركيا ليكونوا تحت تصرف الخليفة.

وقد نجحت جهود ألمانيا بإثارة السلطان العثماني فأصدر بوصفه خليفة المسلمين بياناً في ٢٣/١١/ ١٩١٤م أعلن فيه الجهاد الإسلامي ، وكان هذا البيان يحمل توقيعات شيخ الإسلام وغيره من الشخصيات الإسلامية في الدولة وكان البيان يتكون من ثلاثين صفحة بعنوان : « بلاغ عام لجميع أهل الإسلام نشرته جمعية المدافعة الملية دار الخلافة العلية ١٣٣٣هـ ».

وكان مما جاء فيه : « الواجب بذل الوسع في إنقاذ أي شعب من شعوب المسلمين فكيف إذا تألب الكفار الظالمون بعدوانهم على مركز الخلافة، وناصبوا خليفة رسول اللهﷺ العداوة . . . لا ريب أنه يفترض في هذه الحالة فرض عين على كافة أهل الإيمان في كل مكان أن يبادروا إلى نصرته والذب عن بيضة الإسلام بما يستطيعون من حول وقوة ، فعلى كل مسلم أن يتهيأ للقيام بهذا الغرض ينبغي اليوم للعالم الإسلامي بجملته أن يجمع إرادته الكلية في نقطة واحدة ، ويعطل كل عمل له مؤقتاً دون العمل لنصرة دين الله والجهاد في سبيل الله ، وقد توجبت اليوم على كل قوم من الأقوام الإسلامية وظيفة مقدسة جداً ألا وهي الجهاد .

« ألا فاعلموا أن الجهاد صار فرض عين على كل كافة المسلمين وأنه قد جاء الزمان الذي ينبغي استعمال كل وسيلة لتخليص الوطن الإسلامي من سلطة الكافرين الظالمين» (١)

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣٣٠ - ٣٣١

وقد ظهر أثر الدعوة إلى الجهاد في أنحاء شتى من العالم الإسلامي كالهند، وحاولت حكومة الهند تهدئة الأوضاع وبذلت جهداً من أجل تهدئة مشاعرهم حيث كانوا ساخطين على بريطانيا لتعاونها مع الشريف حسين فقد اعتبروه خائناً لأنه تحالف مع الانجليز ضد الدولة العثمانية.

وظهر أثر دعوة الجهاد في ليبيا والسودان حيث أثار السنوسيون المشاكل لبريطانيا على حدود مصر الغربية كما اتصلوا (بعلي دينار) سلطان دارفور الذي ثار هو الآخر ضد بريطانيا متأثراً بالدعوة إلى الجهاد إلا أن الانجليز سرعان ماقضوا على هذه الثورة في مايو سنه ١٩١٦ولقى علي دينار نفسه حتفه في نوفمبر سنة ١٩١٦م.

وكان الشيخ محمد مصطفى المراغى يعمل فى هذه الفترة قاضياً لقضاة السودان وكان على صلة قوية بالإنجليز ، فاتصل الانجليز بالمراغى وطلبوا منه إصدار فتوى ضد فتوى الخليفة العثمانى ، التى كانت تنص على عدم جواز قتال المسلم لأخيه المسلم كما فعل الشريف حسين بن على شريف مكة فى حربه للأتراك فى الحجاز والشام ، فأفتى الشيخ المراغى بفتوى لصالح بريطانيا تجيز محاربة المسلم لأخيه المسلم ، وكانت هذه الفتوى من عالم أزهرى كبير من أسباب إستقرار الوضع فى السودان إبان الحرب العالمية الأولى(١).

ونظراً لهذه الثورات فإن دول الوفاق احتاطوا لأمرهم ولم يجندوا كثيراً من مسلمى مستعمراتهم في القوات التي كانت تحارب الدولة العثمانية .

وحاولت بريطانيا أن تحارب الجهاد الديني بسلاح القومية وإثارة النعرة

---

(١) مذاكرات الشيخ الأحمدى الظواهرى ، بعنوان السياسة والأزهر ، بقلم إبنه الدكتور فخر الدين الأحمدى الظواهرى ، ص ٥٧ .

القومية العربية لدرجة أن أمير مكة الشريف حسين وعدته بأن يكون ملكاً على العرب فثار على الدولة العثمانية وأخذ يحارب قواتها في منطقة الحرمين الشريفين وثارت سوريا أيضاً وأصبحت دمشق هي القلب النابض للحركة العربية.

وكانت جماعة الاتحاد والترقى التي هيمنت على الحكم في هذه الأونة تنادي بفكرة الطورانية التي تصادمت مع فكرة الجامعة الإسلامية لأن الاتحاديين كانوا يعتبرون الدين معوقاً لتقدمهم ولذلك رفضوا فكرة العثمانية والجامعة الإسلامية (١) .

وحاولت بريطانيا إقامة معاهدات مع العرب ، فأقامت معاهدة مع الشريف الأدريسي في عسير في ابريل سنة ١٩١٥م (١٥ من جمادى الثاني سنة ١٣٣٣هـ) تعهد الأدريسي فيها بمهاجمة الترك ومحاولة اخراجهم من مراكزهم في اليمن .

وعقدت بريطانيا معاهدة مع عبد العزيز بن سعود في ٢٦ ديسمبر سنة ١٩١٥ أمير نجد والأحساء ، وقد نصت هذه المعاهدة على أعتراف بريطانيا باستقلال إبن سعود في نجد والاحساء والقطيف وملحقاتها والا يتدخل في شئون الكويت والبحرين وقطر وساحل عمان وهي المناطق التي أعلنت بريطانيا عليها الحماية في بداية الحرب نظراً لاكتشاف البترول في أراضيها وأهميته ومحاولة احتكار هذه المادة الإستراتيجية . وكان من أثر ذلك أن عبد العزيز لم يستجب للدعوة إلى الجهاد ضد الاستعمار وامتنع فى هذه الأونة عن مهاجمة الشريف حسين ، ووعد الحلفاء الا يتدخل في شئون الكويت والبحرين وقطر والساحل العمانى وهي المناطق التى أعلنت بريطانيا عليها

(١) د. محمود منسي ، مرجع سبق ذكره ، ص ٣٣٦ - ٣٣٨ .

الحماية في بداية الحرب .

مراسلات الحسين مكماهون:

كان الشريف حسين يمثل في ذلك الوقت أكبر الأسر العربية مكانة فهو أمير مكة والمهيمن على الحرمين الشريفين ، وكان لديه أربعة أبناء هم (على) و(عبد الله) و(فيصل) و(زيد) وكان فيصل أكثرهم طموحاً ، فقد كان يرنو ببصره إلى حكم الشام الذي انفرط عقده فأصبح عدة دول هى: سوريا ولبنان وفلسطين والأردن ، وكان (فيصل) دائم الاتصال بالأستانه يتردد عليها ، وكان (عبد الله) دائم الاتصال بالقاهرة يتردد عليها للاتصال بالانجليز الذين كانوا يلمحون له بمناصرة والده إذا ما فكر الأتراك في خلعه ، أما (على) فكانت طموحاته أن يكون ملكاً على الحجاز (١) وكان أكبر أبناء الملك حسين ، وكان (زيد) أصغرهم .

واتصل الشريف حسين بالانجليز عن طريق (مكما هون) نائب ملك بريطانيا في مصر إبان الحرب العالمية الأولى ، بدأت بذلك قصه ما عرف في التاريخ « بمراسلات الحسين مكما هون » والتى بدأت برسالة الشريف الأولى في ١٤ من يوليو ١٩١٥ م فيه يطلب من انجلترا الاعتراف باستقلال البلاد العربية في الشام وجزيرة العرب ، وفي مقابل ذلك أبدى الشريف استعداده للتحالف عسكرياً مع بريطانيا لمدة ١٥ سنة قابلة للتجديد ، وتعترف حكومة الشريف بأفضلية بريطانيا في المشاريع العربية في الدولة الجديدة وحدد الشريف ٣٠ يوماً بعدها يكون حراً في العمل كما يشاء.

فرد مكما هون رداً دبلوماسياً مبهماً ليس فيه تحديد وتعمد أن يكون الرد

(١) صالح مسعود أبو بصير ،جهاد شعب فلسطين في نصف قرن ، الطبعة الثانية ، ١٩٦٩م ص ٣٤ - ٣٥

بعد فوات المدة التي حددها الشريف ، فجاء الرد في ٣٠ من اغسطس ١٩١٥م.

وتوالت .مراسلات حسين مكما هون في هذا الإطار من المراوغة الانجليزية ، في الوقت الذي كانت فيه بريطانيا تقوم بمؤامرة سرية لتقسيم البلاد العربية محل آمال الشريف حسين ، وفي الوقت الذي كان فيه اليهود يعدون المسرح لموافقة الانجليز على وعدلهم بجعل فلسطين وطناً قومياً لهم ومساعدتهم من أجل تحقيق هذا الهدف ، وعلى الرغم من ذلك فإن الحسين انتهى به الأمر إلى تحالف مع الانجليز ضد الأتراك ودخل في حرب ضد الدولة العثمانية .

ولم يأت لفلسطين ذكر في أية مذكرة من المذكرات ولم يكن الشريف على دراية بما يدبر له من جانب اليهود .

ثورة الشريف حسين:

وأعلن الشريف الثورة على الأتراك عقب هذه المراسلات ، وبدأ ذلك بأول رصاصة أطلقت في مكة في صباح اليوم الثاني من يونيو ١٩١٦ ضد القوات التركية المعسكرة في قلعة إجياد أمام الحرم مخدوعاً بوعود الانجليز .

وتقرر إنشاء جيش عربى نظامي يضم الضباط العرب وقد وصل عدد منهم إلى (ينبع) و (الوجة) وأشرف على تنظيم الجيش العربى الضابط (عزيز على المصرى) الذي عمل مع الحركة العربية من أجل تأسيس دولة عربية موحدة ، ولكن سرعان ما انسحب هذا الضابط الكفء لأن الانجليز لم يلبوا طلبه عندما أصر على تزويد الجيش بمدفعية حديثة ، وخاصة التى غنمها الانجليز من الاتراك . وقال عزيز المصرى: « يلوح لي بأن الانجليز يريدون القضاء على العرب والأتراك معاً في وقت واحد » .

ولما بلغت هذه الأقوال إلى الانجليز طلبوا من الحسين تنحيه عزيز المصرى في الحال من منصبه في رياسة أركان حرب الجيش العربي ، فأعفاه الشريف من منصبه بطريقة مهذبه وأعطاه أجازة مفتوحة عاد بعدها إلى مصر .

واستطاع الشريف أن يقطع الاتصال بين قوات تركيا في اليمن وقواتها في الشام ،واتهم الشريف الأتراك بالخروج على الإسلام فعطل بذلك دعوة الجهاد التى أعلنها السلطان العثمانى.

وبينما كان الشريف حسين وأعوانه يمعنون القتل في الأتراك فى كل مكان بالحجاز وخاصة في مكة والطائف إذا بوكالات الأنباء تطير خبر قيام ثورة شيوعية في روسيا ضد القيصر وتعلن على العالم الاتفاقيات السرية التى عقدت بين الحلفاء الثلاثة بريطانيا وفرنسا وروسيا لتقسيم البلاد العربية التى كانت تابعة للدولة العثمانية ، وهى الاتفاقية المعروفة باتفاقية (سايكس - بيكو) (١) ١٩١٦م والتى تعطى العراق وفلسطين وشرق الأردن لبريطانيا ولبنان وسوريا لفرنسا ، والبسفور والدردنيل وما حو لهما لروسيا .

والواقع .أن هذه الاتفاقية صورة مرعبة للخيانة والخداع والمكر الانجليزي، وتحوى شروطاً تتعارض مع ما كان قد اتفق عليه الانجليز مع الشريف حسين ، ولكن كان هذا جزاء وفاقاً لمن تعاون مع الأعداء ضد إخوانه، ومن أعان ظالماً سلط عليه ، تلك سنة من السنن الكونية التى لا تتخلف ، وهى أيضاً صورة بشعة للنفاق الانجليزى للوصول إلى ما تبيته السياسة الانجليزية من تقسيم للعالم الإسلامى .

---

(١) سايكس : هو مارك سايكس عضو البرلمان البريطانى والمندوب السامى لشئون الشرق الأدنى ، وبيكو : هو جورج بيكو قنصل فرنسا السابق في بيروت ومعتمدها السامي . وهما اللذان قاما على التحضير لهذه الاتفاقية سراً مع روسيا .

وعندما وصلت هذه الاتفاقية إلى مسامع تركيا أسرعت تواجه الشريف حسين بخطئه .الفاحش عندما تعاون مع أعداء الأمة الإسلامية على أمل استقلال هو كالسراب يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ، فأرسلت تركيا رسالة إلى فيصل ابن حسين على وجه السرعة بتاريخ ١٩١٧/١١/٢٦ تذكر فيها بأن الواجب الدينى يدعو فيصل وأباه إلى العودة إلى حظيرة الإسلام ودولة الخلافة ، وطلب جمال باشا (الذى كان يومئذ بالشام) من فيصل الحضور إلى دمشق آمنا لعقد اتفاق ينص على أعطاء الولايات العربية الاستقلال من الدولة العثمانية بعد الحرب وعندما أرسل فيصل الرسالة إلى والده تأثر جدا ولكنه لم يخلع اتفاقه مع الانجليز لأن الانجليز أوهموه مرة أخرى بأن هذه خدعة تركية وأن هذه ليست اتفاقية وإنما هى مسودة لاتفاقية لم تتم فوجدت فى خزائن القيصر بعد مقتله وقيام الثورة الشيوعية .

وعد بلفور:

كان اليهود قد ضاعفوا نشاطهم مع الحلفاء إبان الحرب الأولى إلى أن حصلوا فى نوفمبر ١٩١٧ على وعد من بريطانيا بإنشاء الوطن القومى لليهود فى فلسطين ، وهو إعلان على لسان وزير خارجية بريطانيا يومئذ اللورد « أرثر جيمس بالفور » .

وقد صدر هذا الوعد فى شكل خطاب إلى اللورد روتشلد زعيم اليهود فى بريطانيا وفيما يلى نصه :

«إن حكومة جلالة الملك تنظر بعين العطف إلى تأسيس وطن قومى للشعب اليهودى فى فلسطين ، وستبذل جهدنا لتسهيل تحقيق هذه الغاية على أن يفهم جليا أنه لن يؤتى بعمل من شأنه أن يغير الحقوق المدنية والدينية التى تتمتع بها الطوائف غير اليهودية المقيمة الآن فى فلسطين ولا الحقوق أو

الوضع السياسى الذى تتمتع به الطائفة اليهودية فى البلدان الأخرى » .

ويحتوى هذا التصريح على تضارب صارخ ، فكان من المستحيل من الناحية العملية « إنشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين » ولا يحدث مساس «بالحقوق المدنية والدينية التى تتمتع بها الطوائف غير اليهودية المقيمة الآن فى فلسطين » .

كما اشتمل هذا التصريح على مغالطات واضحة تلك المغالطات التى وصفت العرب فى فلسطين (مسلمين ومسيحين) بكلمة (طوائف) فى حين كان العرب يشكلون ٩١٪ من مجموع عدد السكان ، وأطلق التصريح كلمة شعب على اليهود الذين لم يتجاوز عددهم فى فلسطين نسبة ٩٪ فليس لهم مقومات الشعب فى فلسطين ، فكان العرب ستمائه ألف واليهود خمسون ألفا.

كما أن التصريح من ناحية أخرى هو وعد (من لا يملك لمن لا يستحق) فلا الإنجليز يملكون فلسطين حتى يعطوها لليهود ، واليهود لا يستحقون أن يملكوا بلدا لشعب مقيم على أرضه [١] .

هذا فى الوقت الذى دخلت فيه الجيوش الانجليزية القدس فى أواخر١٩١٧ بقيادة (اللورد اللبنى) مترجلا يحاول أن يتشبه بما فعله عمر بن الخطاب وعندما وصل الى كنيسة القيامة المسيحية قال : « اليوم انتهت الحروب الصليبية » .

وهكذا كشف هذا القائد الانجليزى بعبارته هذه عما يضمره هو وقومه ضد العالم الاسلامى ولسنا بحاجة أن نقول إن جميع مراسلات حسين مكماهون وغيرها من الاتفاقيات للعرب كانت مسرحية انتهت وأسدل الانجليز

---

(١) قال جمال عبد الناصر عن وعد بالفور « أعطى من لا يملك وعدا لمن لا يستحق ».

بذلك الستار على مرحلة من النفاق والغدر الاستعماري الذى لا يمكن للعرب والمسلمين أن ينسوه مهما تقادم الزمن ، ولا يمكن لهم فى يوم من الأيام الاعتماد على الغرب في الحصول على حقوقهم ، وأن هذه الحقوق يجب أن يعتمدوا دائما على قوتهم الذاتية فى المحافظة عليها .

وهكذا صح حدس وإحساس الضابط عزيز على المصرى الذى قال بأن الانجليز « يريدون القضاء على العرب والأتراك معا فى وقت واحد » .

وهذا ما حدث فقد خرجت تركيا من الحرب مهزومة وضاعت أراضيها العربية التى وزعها الحلفاء على بعضهم فى اتفاقية سايكس بيكو السابقة .

وبعد انتهاء الحرب إجتمع المنتصرون فى (مؤتمر للصلح فى باريس) الذى عقد فى يناير ١٩١٩ وأملى الحلفاء شروطهم ، ووافق المؤتمر على تصريح بلفور وعندما قرر الحلفاء إنشاء عصبة الأمم المتحدة فى سويسرا أقر مجلس عصبة الأمم فى ١٩٢٢/٧/٢٤ هذا الوعد وضمنه مشروع الدستور المقترح لفلسطين .

وعلى الرغم من أن الشريف حسين أوفد إبنه فيصل إلى مؤتمر الصلح فى باريس ليتحدث باسم العرب ويؤكد إستقلالهم إلا أنه واجه مؤامرة دولية لتقسيم البلاد التى ينوى إستقلالها فغرنسا تريد وضع سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسى وإنجلترا تريد تأكيد إنتدابها على الأردن والعراق وفلسطين واليهود مصممون على تنفيذ تصريح بالفور بإنشاء الوطن القومى لليهود فى فلسطين .

وسعت وزارة الخارجية البريطانية إلى أخذ إقرارصريح من فيصل بالموافقة على تصريح بالفور وأشارت عليه بأن يجتمع مع وايزمان رئيس

المنظمة الصهيونية لهذا الغرض وأوضحت الحكومة البريطانية لفيصل بأن تحقيق مطالب العرب متوقفة أولا وقبل كل شئ باتفاقه مع الصهيونيين .

وأذعن فيصل لضغط الانجليز واليهود قبل المؤتمر واستمع لنصح مستشاريه الانجليز وعلى رأسهم لورانس وفى لندن أدلى (بتصريح) إلى وكالة رويتر فأذاعته يوم ١٢ من ديسمبر ١٩١٨ ، أبدى أمله فى تحقيق آمال كل من العرب واليهود ، للقضاء على التحاسد بينهما فى فلسطين الذى أوجدته الفتن التركية ، وذكر بأن الصهيونيين اليهود هم حملة حضارة أوربا إلى الشرق .

ولم يكتف الاستعمار والصهيونية بهذا التصريح غير الواعى من فيصل وإنما طلبوا منه أن يصدر الاعتراف العربى بحقوق اليهود فى فلسطين فى اتفاقية يوقع عليها فيصل نيابة عن العرب ، ووايزمان نيابة عن المنظمة الصهيونية .

وفعلا تم إبرام (إتفاقية فيصل ، وايزمان) فى الثالث من يناير سنة ١٩١٩) جاء فيها أن فيصل ووايزمان يدركان القرابة الجنسية بين العرب واليهود ولذلك اتفقا على تبادل التمثيل الدبلوماسى ، وتحديد الحدود بين الدولة العربية وفلسطين بعد مؤتمر السلام وأخطر ما فى الاتفاقية هى (المادة الثالثة) ونصها :

«عند إنشاء دستور وإدارة فلسطين تتخذ جميع الاجراءات التى من شأنها تقديم أو فى الضمانات لتنفيذ وعد الحكومة البريطانية (بلفور) المؤرخ فى اليوم الثانى من شهر نوفمبر سنة ١٩١٧ ».

ونص فى الاتفاقية على تشجيع الهجرة اليهود به إلى فلسطين [1] .

---

(١) حسن صبرى الخولى ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٩٩ ـ ٣٠٦ .

وعلى الرغم من اتفاق (اليهود) معه على دعم جهوده للحصول على الاستقلال لسوريا ولبنان والعراق ولكن اليهود ساعدوا جهود فرنسا للحصول على الانتداب فى سوريا ولبنان تقربا لفرنسا وإسهاما فى عرقلة الوحدة العربية وإضعاف الكيان العربى .

أما (بريطانيا) فقد تخلت عن تأييد فيصل فى عرش سوريا بعد أن لمست إصرار (فرنسا) على الظفر بسوريا ولبنان ، وهكذا فشل فيصل فى الحصول على بغيته من الاستعمار والصهيونية ، وبقيت قصة اتفاقه مع اليهود صفحة غير مشرفة له ولأسرته ، وظل اليهود يحتجون بهذه الاتفاقية فيما بعد فى المحافل العالمية لاثبات حقهم فى فلسطين بموافقة مندوب عن العرب هو فيصل .

وعلى الرغم من أن فيصل سجل فى نهاية اتفاقه مع وايزمان تحفظا نص فيه على أنه إذا لم تف انجلترا بتعهداتها للعرب بالاستقلال فإن هذه الاتفاقية تعتبر ملغاة وكأنم تكن ، ولكنه نس أن هذا التحفظ كان يخص بريطانيا ولا مكان له فى اتفاقية أبرمها مع اليهود .

فيصل يحارب فرنسا :

كانت هذه التطورات التى صدمت العرب جعلتهم يتجهون إلى الحرب ضد فرنسا ، فعاد فيصل بن الحسين إلى دمشق فى مايو ١٩١٩ وتم تشكيل ما عرف بالمؤتمر السورى العام ، وكانت الجيوش الفرنسية تحتل الساحل السورى والجيش البريطانى يحتل فلسطين ، أما القوات العربية فكانت بالمنطقة الداخلية من سوريا وقاعدتها دمشق .

ودعا العرب فى الشام والعراق لدعوة المؤتمر السورى للانعقاد فى دمشق فى ٨ مارس ١٩٢٠ واتخذ المؤتمرعدة قرارات تقضى باستقلال سوريا

وتنصيب فيصل بن الحسين ملكا عليها فى دمشق ، واستقلال العراق ، ورفض اتفاقية (سايكس - بيكو) ووعد بلفور ، ورفض الانتداب البريطانى والفرنسى .

وردت الدولتان على ذلك بفرض الانتداب الفرنسى على كل من سوريا ولبنان ، والانتداب الانجليزى على العراق وفلسطين فى مؤتمر (سان ريمو) فى ٢٥ ابريل ١٩٢٠ م [١] .

وأبلغت بريطانيا فيصل بأن الحكومة البريطانية لا تستطيع الاعتراف بحق مؤتمر دمشق فى تقرير مستقبل بلاد انتزعتها قوات الحلفاء من أيدى الترك ومصيرها معروض أمام مؤتمر الصلح ولا يمكن أن تقره إلا دول الحلفاء مجتمعه وأن بريطانيا وفرنسا مضطرتان إلى القول بأنهما تعتبر ان هذه الاجراءات باطلة وكألم تكن [٢] .

وكان من نتيجة هذا أن تخلت بريطانيا عن فيصل وتركته يلاقى مصيره أمام فرنسا ، وقامت فرنسا بالأيعاذ إلى عملائها فى لبنان برفض قرارات المؤتمر السورى ورفض إدخال لبنان ضمن مملكة فيصل .

وقامت المظاهرات فى سوريا وعم الاضطراب كل أنحاء المدن السورية احتجاجا على الانتداب ومطالبا بالاستقلال البلاد ، وأصدرت الوزارة السورية قرارا بجعل الخدمة العسكرية اجبارته على كل السورين وتم اعداد الشعب للدفاع عن البلاد فى حالة نشوب حرب ضد فرنسا ، وبدأت هجمات الفدائيين السوريين ضد المراكز الفرنسية فى سوريا ولبنان .

الهجوم الفرنسى على سوريا :

حاول الانجليز والفرنسيون دعوة فيصل إلى باريس لتسوية سياسية معه ولكن الأحرارالسوريون رفضوا ذلك ، وتطورت الأوضاع ووجه الفرنسيون

---

(١) د. محمود منسى ، تاريخ الشرق العربى الحديث ، ص ٦١٩ .

(٢) المراجع السابق ، ص ٦٣٨ .

إنذارا إلى فيصل يطلبون فيه قبول الانتداب وإلغاء التجنيد الاجبارى ومعاقبة الفدائيين الذين اعتدوا على المراكز الفرنسية .

وزادت موجة الغضب فى سوريا ، وطالب فيصل قنا صل الدول فى سوريا بتكوين لجنة للتحكيم الدولى من ممثلى حكومات الحلفاء للفصل بينه وبين فرنسا ، ولكن لم يستجب إليه أحد ومال فيصل لقبول الانذار الفرنسى لأن رفضه يؤدى إلى الحرب التى ستنتهى بهزيمة قواته غير المسلحة وغير المنظمة ونصحه الانجليز بذلك ، وفعلا أرسل فيصل إلى قائد القوات الفرنسية الجنرال (جورو) رسالة يخبرة فيها بقبول الانذار الفرنسى وشروط فرنسا .

وعندما شاعت أخبار قبول فيصل الانذار الفرنسى فى دمشق قامت ثورة فى دمشق تنادى بسقوط فيصل والحكومة وتتهمهما بالخيانة وهاجم الثوار قلعة دمشق للحصول على السلاح فواجهتهم قوات فيصل بنيران الرشاشات وقتلت منهم حوالى ٢٠٠ من الثوار .

معركة ميسلون :

وتقدمت القوات الفرنسية من لبنان إلى دمشق لاحتلالها وإقامة الانتداب على سوريا بالقوة ، وعسكرت القوات الفرنسية عند (خان ميسلون) وفى ٢٤ يوليو (تموز) ١٩٢٠ بدأت فى الفجر معركة ميسلون ، وقبل الظهر انهارت مقاومة جيش فيصل ، ومما يؤسفه له أن القوات الفرنسية كانت مكونة من الجزائرين والسنغاليين والمراكشيين والأفارقة المسلمين .

وهذه القوات المسلمة كانت عليها قيادة فرنسية تعززها الدبابات والسيارات المصفحة والمدفعية الثقيلة والطائرات ، وحاول الشريف حسين الدفاع عن ابنه فى آخر لحظة عندما أرسل إليه فيصل يطلب المدد ، واتصل الحسين بقناصل الدول فى جدة ولكن جهوده لم تسفر عن حل للأزمة .

ولكن القوات الفرنسية أطبقت علي دمشق وغادر فيصل دمشق ، وكانت فرنسا قد أرسلت إليه خطابا تطلب منه مغادرة البلادمع أسرته وحاشيته فلم يجد مفرا من الاذعان ، وسافر إلى لندن عن طريق بور سعيد فى مصر واستقل

سفينة متجهة إلى أوربا .

وفى لندن تم تتويج فيصل ملكا على العراق فى أحد الكنائس(١) لكى يستعيد الانجليز مركزهم فى العالم العربى ولكى يزيلوا الاتهام الذى يوجهه إليهم العرب بأنهم خانوا العهد مع فيصل وأهل البلاد ، وكانت الثورة شبت فى العراق أيضا ويريد الانجليز تهدئة الأوضاع بها . وخاصة ان فيصل على علاقة بكثير من العراقيين الذين عملوا معه فى الشام ، ورغبة من بريطانيا فى إزالة تهمة التخلى عنه فى مواجهته لفرنسا ، وخاصة أنهم أدركوا أنه سيصبح أكثر طاعة لبريطانيا بعد الدرس الذى لاقاه فى دمشق .

وأوعزت بريطانيا إلى بعض الشخصيات العراقية بأن تكتب إلى فيصل تدعوه إلى المجئ إلى العراق على أن يرتب له عند حضوره استقبال حماسى يليق به على الرغم من وجود بعض المعارضين لتولى فيصل ملكا على العراق مثل طالب النقيب أمير ربيعة وعبد الرحمن الكيلانى نقيب أشراف بغداد(١) .

وخلا الميدان لفرنسا فى سوريا ولبنان وحاولت فرنسا فى عهد الانتداب تجزئه سوريا ولبنان وتعميق الطائفية .

---

(١) كنيسة وستمنستر

مقاومة فرنسا فى سوريا

بعد فرض الانتداب الفرنسى على سورية ، ومعارضة الوطنيين له ، تزعم (إبراهيم هنانو) حركة حرب العصابات ضد القوات الفرنسية فى منطقة حلب . وبعد استيلاء الفرنسيين على دمشق ، انتقل إلى اقليم بيلان بالقرب من الحدود التركية ، والتف حوله جمع من الفدائيين السوريين والمتطوعين من الضباط الأتراك وظفر بعدة انتصارات فى المعارك التى خاضها ضد قوات الحملات الفرنسية ، وقدر عددها بنحو ٣٠ الف مقاتل إلى أن اضطرته للانسحاب إلى شرق الأردن .

قبضت سلطات الانتداب البريطانى فى فلسطين على (إبراهيم هنانو) فى أغسطس (آب) سنة ١٩٢١م تنفيذا لطلب تقدم به إليها القنصل الفرنسى استند فيه إلى اتفاق بين المندوبين الساميين فى البلدين ، يقضى بتبادل المجرمين ، تسلمت السلطات الفرنسية هنانو فى بيروت ، ونقلته إلى حلب . وشكلت مجلسا عسكريا من ثلاثة من كبار الضباط الفرنسيين لمحاكمته، بدأت المحاكمة فى ١٥ مارس (آذار) واستغرقت ثلاثة شهور من عام ١٩٢٢ .

نسب الادعاء للزعيم السورى تهمة تشكيل عصابة من المجرمين ، قامت بقطع الطرق والاعتداء على الجيوش الفرنساوية ، فى أقضية حارم وادلب وجسر الشغور وجبل الزاوية خلال الفترة من خريف ١٩١٩ وصيف ١٩٢١ ، عندما غادر سورية ، إلى شرق الأردن ، واستضافة اميرها عبد الله بن الحسين.

دافع عن (هنانو) المحامى « فتح الله صقال » . وركز فى دفاعه على ان المتهم ليس رئيسا لعصابة من قطاع الطرق كما ادعت سلطات الاتهام ، ولكنه قائد جيش واستدل على ذلك بأن « الجنرال غورو » المفوض الفرنسى

العام ، سبق له ان عقد هدنة مع قوات (هنانو) تبادل خلالها الطرفان الأسرى، وهو اعتراف رسمى بأن (هنانو) قائد جيش كان يحارب قوات الغزو باسم الشعب السورى .

طلب رئيس المحكمة من (ابراهيم هنانو) أن يعين اسم واحد من افراد الشعب السورى يشهد امام المحكمة بأنه فوضه نيابة عنه فى محاربة فرنسا ، وقبل أن يجيب المتهم ، قال أحد الحاضرين : أنا يا سيدى الرئيس والألوف معى كلفنا (ابراهيم هنانو) مقاتلة فرنسا التى دخلت بلادنا بدون وجه حق ومن حقنا أن نقاوم الاحتلال الاجنبى بقوتنا المسلحة ... دوت قاعة المحكمة بالتصفيق تأييدا للشاب الذى تبين أن اسمه (سعد الله الجابرى) . غضب رئيس المجلس العسكرى وأمر باعتقال كل الذين صفقوا .

وفى ٧ حزيران (يونيو) ١٩٢٢ قضى المجلس العرفى العسكرى فى حلب ببراءة الزعيم السورى (إبراهيم هنانو) من التهم التى وجهت إليه ، بإعتباره رئيسا لعصابة من الأشقياء قامت بالهجوم على جيش الانتداب الفرنسى.

أثار الحكم ببراءة (هنانو) حماس آلاف الجماهير المحتشدة فى قاعة المحكمة وخارجها ، خاصة وان المحكمة اعتبرت أن ما قام به ، قد تم بدافع حبه لوطنه ورغبته فى حريته واستقلاله .

شرق الأردن:

كانت منطقة شرق الأردن [1] قبل عام ١٩٢٠ تابعة للدولة العثمانية وانتقلت إدارتها من عام ١٩١٨ إلى حكومة فيصل العربية بدمشق ، وكانت جزءا (من بلاد الشام يطلق عليه بادية الشام ، والجزء الجنوبى من شرق

(١) يقصد بمنطقة شرق الأردن الأراضى الواقعة شرق نهرالأردن ، والتى كون الأنجليز=

الاردن كان تابعا للحجاز ، والجزء الشرقى منها كان تابعا للعراق فهو جزء من صحراء العراق .

وكانت دول الوفاق قد استولت على تلك المناطق لقطع الطريق أمام الجيش التركى المتجه إلى مصر ، فدخل «لورانس» مدينة العقبة ١٩١٧م وفى العام التالى نقل الامير فيصل بن الحسين الذى كان يقود جيش الثورة العربية إلى العقبة وتمكن مع أعوان من احتلال قسم كبير من الأرض الأردنية وذلك بعد معارك عديدة منها قيامه بتخريب خط حديد الحجاز واحتل الانجليز الأردن فى ٩ ديسمبر ١٩١٩م[1] .

وقد ظلت منطقة شرق الأردن تحت الادارة العربية لفيصل حتى وصلها عبد الله بن الحسين فى نوفمبر ١٩٢٠ ، أما فيصل فقد نقله الانجليز الى العراق وعين ملكا على العراق سنة ١٩٢٠ بعد قيام ثورة فيه فى تلك السنة .

باستقرار الأمير عبد الله فى شرق الأردن تشكللت حكومة فى عمان برئاسة عبد الله بن الحسين فى ٤ ابريل عام ١٩٢١م بمساعدة بريطانيا التى عينت له مجموعة من المستشارين الانجليز لمساعدته فى إدارة الدولة الجديدة.

وأعلنت بريطانيا على لسان مندوبها السامى فى فلسطين السير« هربرت صمويل » ١٩٢٣ أنها ستعترف بحكومة الأمير عبد الله .

ونظرا لضعف الموارد فى هذه المنطقة فقد وعدت بريطانيا أن تقدم معونة سنوية مقدارها (١٨٠) ألف جنية استرلينى سنويا للأمير عبد الله ،

=منها المملكة الأردنية الهاشمية وهى أراضى كانت تابعة للدولة العثمانية .

(١) د. رأفت الشيخ ، مرجع سبق ذكره ، ص ٦٥ .

وكانت هذه المعونة وسيلة من وسائل الضغط على الأردن لا تمكنه من استقلالية قراراته ، وفرضت بريطانيا الانتداب على هذه الدولة الناشئة .

انتداب بريطانيا لحكم فلسطين :

بعد أن وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها وضعت الحكومة البريطانية بالاتفاق مع الصهيونية العالمية (التى مثلها آنذاك وايزمان وهوبرت صمويل وكوهين) الصيغة النهائية لصك الانتداب على فلسطين والذى نص فيه على وضع البلاد فى حالة سياسية واقتصادية تساعد على إنشاء الوطن القومى اليهودى تنفيذا لوعد بلفور .

وفى ٢٢ يونيو ١٩٢٢ أصدرت الحكومة البريطانيا مذكرة أسمتها (بالكتاب الأبيض) اشتمل على الدستور المقترح لفلسطين وعلى السياسة العامة التى تعتزم حكومة الانتداب اتباعها وكان هذا الدستور والسياسة العامة مبنيان على أساس وعد بلفور .

وارتضى اليهود والانجليز منذ مدة ما اقترحه صمويل الصهيونى أنه يجب على بريطانيا أن تحشد فى فلسطين فى وقت معين جميع اليهود المشتتين فى أنحاء العالم ، وفى ظل الحكم البريطانى يمكن منح تسهيلات للمنظمات اليهود لشراء الأراضى وإقامة المستعمرات والمنشآت الدينية والتعليمية والاسهام فى النشاط الاقتصادى على أن تعطى الافضلية للهجرة اليهودية المنظمة ، وبذلك يزداد عدد السكان اليهود حتى يصبحوا أغلبية ، وعندئذ يمكن أن يعلن اليهود قيام دولتهم .

وقد أقرت عصبة الأمم المتحدة بتاريخ ١٦ سبتمبر ١٩٢٢ وضع فلسطين تحت الانتداب البريطانى ، وأقرت (صك الانتداب) الذى اقترحته الحكومة البريطانية والذى حددت فيه مهمة الدولة المنتدبة فقد نص فى :-

مادته الأولى : على أن يكون للدولة المنتدبة السلطة التامة فى التشريع والادارة باستثناء ما يكون قد قيد منها فى نصوص الصك .

ونص فى المادة الثانية : أن تكون الدولة المنتدبة مسئولة عن وضع البلاد فى أحوال سياسية وإدارية واقتصادية تضمن إنشاء الوطن القومى اليهودى بحسب ما جاء فى ديباجه هذا الصك .

وجاء فى المادة الرابعة : الاعتراف بوكالة يهودية كهيئة عمومية لاسداء المشورة إلى إدارة فلسطين والتعاون معها فى الشئون الاقتصادية والاجتماعية وغير ذلك من الأمور التى تؤثر فى إنشاء الوطن اليهودى ومصالح السكان اليهود فى فلسطين ، ولتساعد وتشترك فيه ترقية البلاد .

وتنفيذا للمادة الرابعة سالفة الذكر من صك الانتداب اعترفت الحكومة البريطانية بالجمعية الصهيونية فى فلسطين كوكالة ملائمة واشتركت الوكالة مع الادارة البريطانية فى فلسطين على إدارة جميع الشئون المتصلة بتنفيذ وعد بلفور وصك الانتداب وقد تمكنت الوكالة اليهودية بمساعدة الادارة الانجليزية فى فلسطين من تحقيق الأهداف الصهيونية الرامية إلى تحقيق إقامة الدولة اليهودية .

وهكذا فقد سارت بريطانيا شوطا بعيدا فى تنفيذ مخططها الاستعمارى الرهيب الذى كانت تعده للعالم العربى ، فأصدرت وعد بلفور وأخذت موافقة العالم الصليبى عليه وقامت بالانتداب على فلسطين وهو نوع من الاستعمار المقنع بمقولة الاشراف على شئون الدول المستعمرة حتى تتمكن من إدارة أمورها بنفسها ، وتمكنت بذلك من أن تقيم لليهود وطنا وسط العرب لتشغلهم به وتهددهم ، وهى بذلك تفصل بين العالم العربى مشرقة ومغربه ، ولعلها بذلك قد نفذت توصيات المستعمرين فى تقرير كامبل بانرمان سالف الذكر .

تعيين صهيونى بريطانى مندوبا لبريطانيا فى فلسطين :

من الأمور الخطيرة التى نجحت الصهيونية فيها هو ضغطها على بريطانيا لتعيين أول مندوب سامى لبريطانيا على فلسطين من اليهود لكى يرعى تنفيذ وعد بلفور ويساعد الهجرة اليهودية إلى فلسطين وذلك الرجل الذى اختارته الصهيونية لهذه المهمة هو السير (هربرت صمويل) من أقطاب الحركة الصهيونية العالمية وعضوا فى المنظمة الصهيونية البريطانية ووزيرا فى وزارة الحرب فى بريطانيا ، وكان هو همزة الوصل بين اليهود وبين الحكومة البريطانية ، واستطاع أن ينقل إلى الوزارة البريطانية مطالب الصهيونيين ، ويشرح وجهات نظرهم ، ويدافع عنها ، وهو الذى أسهم فى إصدار تصريح بلفور وغيره من المشروعات الصهيونية منذ قيام الحرب .

وهذا الرجل بماضيه المعروف يمثل الصهيونية العالمية أكثر من تمثيله للحكومة البريطانية ، وبعبارة أخرى كان صهيونيا أكثر منه انجليزيا وبتعيينه فى هذا المنصب أصبح مضمونا لليهود أن يتوسعوا فى فلسطين ويتمكنوا فيها على حساب العرب فى ظل إنتداب مزيف للانجليز .

وقام صمويل (بتهديد أجهزة الحكم فى فلسطين) وبدأ ينشئ جهازا يرضى اليهود وينفذ أغراضهم وفتح أبواب المناصب لليهود برغم قلة عددهم حتى أصبحت أربعة أضعاف العرب وسلم إدارة الهجرة لمدير يهودى ، وكذلك إدارة التجارة ، ولم تبق دائرة إلا ويرأسها يهودى أو يساعد مديرها البريطانى يهودى آخر ، وبذلك أصبحت الدولة اليهودية فى الأرض المقدسة موجودة فعلا ، إذ ان السلطة العليا تنتهى دائما إلى هذا المنوب السامى الذى كانت مهمته هى التمكين لليهود وإعداد المسرح لخلق دولة يهودية فى فلسطين.

وإذا كان صمويل قد وضع اللبنات الأولى لليهود فإن بريطانيا واصلت طوال انتدابها إتمام ما بدأه صمويل .

تحويل ثروات فلسطين إلى يد اليهود :

كانت أغلبية الأرض الزراعية في يد عرب فلسطين فبدأ صمويل يبحث عن أسلوب يؤدى لافقار العرب وإبعادهم عن الأرض ، فشجع الفلاحين على الاقتراض من المرابين ، ولما تم جمع المحصول أصدر صمويل أمرا بمنع تصدير المحصولات فكسدت أثمانها ، وعجز الفلاحون الصغار عن سداد الديون ، فأقيمت حجوزات عديدة بيعت فيها أراضيهم سدادا لتلك الديون على الطريقة اليهودية العالمية .

ومن ناحية أخرى أخذ صمويل ينمى ثروة اليهود ويمكنهم اقتصاديا من فلسطين ، وأعطاه دستور فلسطين الذى وضعه الانجليز واليهود الحق فى أن يهب أو يؤجر ايه أرض من الأراضى العمومية أو أى معدن أو منجم وله أن يأذن بإشغال مثل هذه الأراضى بصفة مؤقته وبالشروط أو البنود التى يراها ملائمةولعل هذا يتفق وما تنص عليه المادة الثانية من صك الانتداب ، التى تنص على أن بريطانيا تتعهد بأن يجعل فلسطين فى وضع سياسى واقتصادى واجتماعى صالح لانشاء وطن قومى لليهود .

وقام صمويل بإقطاع اليهود ٢٠٠ ألف دونم فى مرج ابن عامر وأجلى ٩٠٠ أسرة عربية عن أملاكها التاريخية الموروثة وأجلاهم بقوة الجيش والبوليس ، كما أقطعهم أراضى فى مناطق الكباره وعتليت وتلال قسارية وهى حوالى ١٧٥ ألف دونم من أراضى سكنها العرب وفلحوها من آلاف السنين واغتصب كثيرا من الأراضى العربية بشتى الوسائل والحيل .

أما المشروعات المهمة فى فلسطين فقد عمل على تسليمها لليهود بتسهيلات كبيرة ، وكان من أهمها إمتياز الكهرباء سنة ١٩٢١ ، وأعطى صاحب المشروع حق نزع ملكية الأراضى من الفلسطنيين لإقامة المنشآت عليها، فى مقابل تعويض غير عادل وهكذا فتح المندوب السامى باب نزع الملكية على بصرعية لصالح اليهود لتغيير أوضاع الملكية لصالحهم فى المستقبل .

واستمر صمويل ومن جاء بعده من الحكام يتخذون كل يوم إجراءا جديدا لصالح اليهود حتى أصبحت فلسطين مهيأة لوضع سياسى جديد عندما اختل فيها ميزان القوى لصالح اليهود تحت حماية بريطانيا ومساعدة الدول الاستعمارية الغربية .وتحت سطوة قانون نزع الملكية الذى انفرد بتنفيذه المنوب السامى أخذ اليهود يستولون بقوة بريطانيا على الأراضى قطعة قطعة ، وكان هذا القانون يخول للمندوب السامى البريطانى اغتصاب الأراضى التى يرفض أهلها ثمنها والتخلى عنها وتسليمها إلى أصحاب المشروعات .

وفى أبريل عام ١٩٢١ أصدر المندوب السامى أمرا بتسليم أراضى الغور للصهيونيين ، وكان هذا الغور مسجلا باسم السلطان عبد الحميد أثناء العهد العثمانى يفلحه العرب ويعمرونه ، وكل من يستصلح أرضا منه يملكها ويستقر بها ، فلما بدأت فترة الانتداب على فلسطين أعلن المندوب الصهيونى أن الحكومة قد أقطعت أرض الغور للجمعيات الصهيونية لزراعتها والانتفاع بها ، وتسبب هذا الاجراء فى طرد آلاف الفلاحين العرب الذين توارثوا زراعة أرض الغور منذ مئات السنين وقامت المظاهرات العربية فى كل مكان من فلسطين تعلن سخطها واستنكارها [١] وانتشرت الاضطرابات فوصلت الناصرة وحيفا

(١) جريدة الأهرام ، عدد ١٥ من ابريل ١٩٢١م من خطاب مفتوح نشرته الجريدة من شاب عربى إلى تشرشل .

وطبرية والجليل ونابلس وأصدر المندوب أمره ، فألقى القبض على مئات من الشبان العرب .

أما في العراق: فكانت الدولة العثمانية تسيطر عليه وكان الانجليز لا يريدون قوة عسكرية أخرى في الخليج العربي ماعدا القوة البريطانية ، وكانت المشاريع الألمانية قد ظهرت في العراق وأهمها سكة حديد بغداد التي تمتد إلى تركيا .

ومن ثم بدأت بريطانيا تناوئ الألمان في مشاريعهم في العراق وحاول الانجليز أن يكون العراق من نصيبهم بعد الحرب نظرا لأهمية الاستراتيجية ولوجود البترول فيه بكميات كثيرة ولذلك نصت اتفاقية سايكس - بيكو ١٩١٦م مع روسيا وفرنسا على دخول العراق تحت الانتداب الانجليزي بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى .

وفعلا وقع العراق في يد القوات البريطانية عام ١٩١٧م وقد حكم الانجليز العراق حكما مباشرا متناسين وعودهم بتحرير العراق .

فيصل بن الشريف حسين يعين ملكا على العراق سنة ١٩٢٠م:-

ثار العراقيون في سنة ١٩٢٠م ثورة عنيفة كانت من نتيجتهما قيام حكومة برلمانية دستورية تعمل في إطار الانتداب البريطاني على العراق وعين الانجليز الأمير فيصل بن الشريف حسين ملكا على العراق ١٩٢٠م .

وبعد هزيمة تركيا والألمان وخروج الأتراك من العراق انفردت بريطانيا بالسيطرة على الخليج والعراق ولكن نادت الولايات المتحدة بسياسة الباب المفتوح ويكون لها نصيب في بترول العراق بنسبة حوالي ٢٣ر٧٥٪ من أسهم شركة بترول العراق ،ومنحت كل من فرنسا وبريطانيا وهولندا ٧٥ر٢٣٪ والباقي

وقدره ٥٪ للوسيط الأرمنى (سركيس) وهذا بموجب اتفاق الامتياز الذى صدر فى عام ١٩٢٣ وتأكد فى عام ١٩٢٩م .

وتم عقد معاهدة بين العراق وبريطانيا سنة ١٩٢٢ تم بموجبها إنهاء الانتداب على العراق اسميا فقط .

وتكونت فى العراق سنة ١٩٢٢ ثلاثة أحزاب سياسية هى :

١ - **الحزب الوطنى العراقى**: برئاسة جعفر أبو التمن المدافع عن الملكية والاستقلال ووحدة العراق .

٢ - **حزب النهضة العراقية**: ويتمسك بالاستقلال وتأكيد الوحدة العراقية .

٣ - **الحزب الحر العراقى**: برئاسة محمود النقيب وكان يؤيد عقد معاهدة تحالف مع الانجليز [1]

هذا إلى جانب عدة أحزاب أخرى تأسست فيما بعد قد ألف نورى السعيد (حزب العهد العراقى) سنة ١٩٣٠ وعقد بصفته رئيس الوزراء العراقى معاهدة مع بريطانيا سنة ١٩٣٠ خففت من قيود معاهدة سنة ١٩٢٢ .

وتكونت جمعية معارضة لنورى السعيد برئاسة ياسين الهاشمى الذى كون (حزب الاخاء الوطنى) مع الحزب الوطنى العراقى للوقوف فى وجه المعاهدة التى أبرمها نورى السعيد ، ونتج عن ذلك اندماج حزب الاخاء الوطنى فى حزب واحد هو : حزب الاخاء الوطنى برئاسة رشيد عالى الكيلانى .

وتوفى الملك فيصل فى ١٩٣٣م فجأة فى سويسرا فى حادث أودى به ويعلم الله أسرار ذلك الحادث فى وقت كان يمهد فيه لبدء ، نزول جديد فى

(١) رأفت الشيخ ، مرجع سبق ذكره ، ص ٤٢ - ٤٤ .

ميدان الوحدة العربية باتفاق مع بعض القادة السوريين (١) .وخلفه ابنه الملك غازى الذى استمر فى الحكم حتى سنة ١٩٣٩ وخلعه الانجليز ونصبوا ابنه الطفل فيصل الثانى تحت وصاية خاله الأمير عبد الاله .

العراق ابان الحرب العالمية الثانية :

وعندما بدأت الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٣٩م حاول الوطنيون فى العراق بزعامة رشيد الكيلانى مناواة بريطانيا وتطلعوا لإقامة علاقات مع ألمانيا عدوة بريطانيا من أجل تحقيق الاستقلال وكان نورى السعيد يتزعم اتجاها آخر موالى لبريطانيا .وكان (نورى السعيد) رئيس الوزراء فأعلن الحرب على ألمانيا وطرد رعاياها من العراق فاستاء العراقيون من ذلك فاضطر إلى الاستقالة .

وشكل رشيد عالى الكيلانى الوزارة الوطنية من ١٩٤٠ - ١٩٤١، واستاءت بريطانيا من سياسة هذه الوزارة الوطنية لتعاونها مع ألمانيا وسياستها القومية ومناصرتها للفلسطينيين ضد اليهود فى فلسطين وعلاقتهما مع مفتى فلسطين السيد محمد أمين الحسينى ، وعلاقاتها مع دول المحور .

وشكلت هذه السياسة التى أعلنها رشيد الكيلانى ثورة وأعلن استئناف الاتصالات البرقية بين ألمانياوإيطالياورفض قطع العلاقات مع ايطاليا وعدم ايقاف الدعاية المؤيدة للألمان والمعادية لبريطانيا فى الصحف وأعلن عن قرب استئناف العلاقات مع ألمانيا ومحاولة اتخاذ موقف الحياد فى الحرب بدلا من التحالف مع بريطانيا .

وزحفت القوات البريطانية على العراق وأعادت العراق إلى السيطرة البريطانية وعاد عبد الاله ونورى السعيد تحت رماح الانجليز وتسلطواعلى

(١) د. جلال يحيى ، العالم العربى الحديث ، ج ٣ ، ص ٢١ .

حكم العراق وسقطت حكومة رشيد الكيلانى فى صيف عام ١٩٤١ وخرج هو ورفاقه من بغداد وبدأ الحكم الجديد الانتقام من الوطنيين .

وصار نورى السعيد أبرز الشخصيات السياسية التى تولت الوزارة عدة مرات من ١٩٤١ حتى قيام ثورة (١٩٥٨م) وكان أكثر الزعماء العراقيين موالاة للغرب وبريطانيا .

تطور الوضع فى العراق بسبب استياء الشعب العراقى اثناء حرب فلسطين بسبب تخاذل الجيش العراقى فى فلسطين وانسحابه مما مكن العصابات الصهيونية من احتلال مواقعه .

وكان لحركة مصدق فى ايران التى طالبت بتأميم البترول الايرانى سنة ١٩٥١ صدا فى العراق فاندلعت المظاهرات فى العراق تطالب بالحفاظ على حقوق العراق فى البترول وقامت ثورة فى مصر فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ . فقامت على أعقابها انتفاضة عراقية فى نوفمبر ١٩٥٢ وكانت هذه التطورات مقدمة للثورة العراقية .

ثورة ١٩٥٨ :

حاول عبد الاله الوصى على عرش العراق ونورى السعيد تكميم أفواه العراقيين والقضاء على الانتفاضه الوطنية بعد عام ١٩٥٢م وهذا مما دفع العناصر الوطنية إلى التنسيق فيما بينها لمواجهة عملاء الانجليز فى العراق وتم رفض حلف بغداد الذى تم عقده بين بريطانيا وفرنسا وتركيا وإيران وباكستان والعراق لمقاومة الاتحاد السوفيتى وكان نورى السعيد من الضالعين فى انضمام العراق إلى هذا الحلف .

فقام ضباط الجيش العراقى بثورة ١٩٥٨م بزعامة عبد الكريم قاسم وعبد

السلام عارف وتم القضاء على الملك فيصل الثانى والأمير عبد الاله ونورى السعيد وأعوانهم وتم الغاء النظام الملكى وإعلان النظام الجمهورى .

ولكن الوضع فى العراق دخل فى صراع بين ضباط الجيش فوضع عبد الكريم قاسم عبد السلام عارف فى السجن وبعض أنصاره الذين عارضوا اتجاهه الشيوعى وحاول عبد الكريم قاسم الانفراد بالحكم واصطدم مع جمال عبد الناصر قائد الثورة المصرية ، وحاول الاستيلاء على الكويت فعارضه عبد الناصر فقامت ثورة ضده فى فبراير سنة ١٩٦٣ وأخرجت عبد السلام عارف من السجن وجعلوه رئيسا للعراق فدخل فى وحدة مع مصر وسوريا سنة ١٩٦٣م لكنها لم تدم بسبب موقف حزب البعث منها المناوىء لعبد الناصر ، وتوفى عبد السلام عارف فى حادث غامض فتولى أخوه عبد الرحمن عارف سنة ١٩٦٦ فقام بعث العراق بثورة ضده بقيادة أحمد حسن البكر وصدام حسين الذى يسيطر على الحكم إلى اليوم (١٩٩٧) .

الفصل الرابع

مشاريع الوحدة العربية بين الحربين

حاول العرب إبان الحرب العالمية الأولى أن يظفروا بالوحدة بعيدا عن تركيا ، وحاربوا تركيا من أجل هذا الهدف ولكنهم فشلوا لأن قيادتهم المتمثلة فى الشريف حسين لم تكن واعية ، فقد كان هو وأبناؤه يثقون فى بريطانيا ، وبريطانيا عدو للمسلمين جميعا من عرب وأتراك وغيرهم ، ولقد صدق حدس الضابط عزيز على المصرى عندما قال :

« الانجليز يريدون القضاء على العرب والأتراك معا فى وقت واحد ».

ولم يخف الانجليز عداءهم عندما دخل القائد الانجليزى «الجنرال اللنبى » بيت المقدس وقال قولته الشهيرة . «الآن انتهت الحروب الصلبية » وكذلك عندما دخل الفرنسيون دمشق بعد انتصارهم على السوريين بقيادة فيصل ابن الحسين قال أحد الضباط عندما ذهب إلى قبر صلاح الدين بدمشق وقال أمامه : « الآن عدنا يا صلاح الدين » .

فكأن الغرب المسيحى لم ينس تعصبه الصليبى على الرغم من أن العرب وقفوا بجانب الانجليز والفرنسيين إبان الحرب العالمية الأولى وتحالفوا معهم ضد إخوانهم الأتراك ، وجرد العرب قوميتهم من الروح الاسلامية وثاروا باسم العروبة فقط فلم يفلحوا وفشلوا .

وإبان الحرب حذرهم الروس من الانجليز والفرنسيين عندما قامت الثورة الشيوعية فى روسيا سنة ١٩١٧م وقدموا لهم الاتفاق السرى بتوزيع أملاك العرب التى كانت فى حوزة الدولة العثمانية ففى ٢٤ من نوفمبر ١٩١٧ وجهت الحكومة السوفيتيه الجديدة نداءها الرسمى الأول إلى كل المسلمين العاملين

جاء فيه [1] .

« لقد سقطت ممالك المغتصبين والقراصنة الرأسماليين وإن الأرض تغلى تحت أقدام المعتدين الاستعماريين ، يا مسلمى روسيا يا من خربت مساجدكم وهدمت بيوت عبادتكم نعلن أن عقائدكم الدينية وشعائركم ومنشآتكم الحضارية والقومية ستصبح إبتداء من اليوم مصونة لن تمتد إليها يد آثمة ، أقيموا حياتكم القومية فى جو الحرية دون أن يعوقها عائق فلكم الحق فى ذلك » .

وفى بيان آخر لاحق لهذا التاريخ قال لينين : موجها بيانه إلى مسلمى العالم « يا مسلمى الشرق يا مسلمى آيران وتركيا وبلاد العرب والهند ... يا من مارس المغتصبون الاستعماريون القادمون من أوربا التجارة قرونا بأرواحكم وأموالكم وحرياتكم وأوطانكم ، يا من قسم دياركم هؤلاء النهاب الذين أشعلوا الحرب العالمية و نعلن لكم :

ـ أن معاهدات القيصر المخلوع السرية التى نص فيها على السماح له بغزو القسطنطينية بالقوة قد مزقت ومحيت من الوجود ، فالجمهورية الروسية وحكومتها ترفض الغزو المسلح لأراضى دولة أجنبية .

ـ إن معاهدة تقسيم إيران قد مزقت وأزيلت من الوجود ، فبعد أن تنتهى العمليات الحربية ستسحب القوات الروسية مباشرة من إيران ، وستكفل الحرية للشعب الايرانى ليقرر مصيره السياسى عن طريق استفتاء شعبى حر .

ـ إن معاهدة تقسيم تركيا واغتصاب أرمينية قد مزقت وحجبت من

(١) باول شمتز ، الاسلام قوة الغد العالمية ، ترجمة محمد شامة ، ص ٢٤١ . وانظر أيضا : محمد على البار ، المسلمون فى الاتحاد السوفيتى . الذى يذكر أن هذا النداء كان فى ٢٢ من نوفمبر ١٩١٧م .

لوجود وبعد أن تنتهى العمليات الحربية ستكفل الحرية أيضا لشعب أرمينية ليقرر مصيره السياسى عن طريق استفتاء شعبى حر »[١] .

وواضح من النداء الشيوعى إلى العالم الاسلامى أن الروس أرادوابة عقد تحالف بينهم وبين المسلمين لمقاومة الاستعمار الراسمالى . وكان رد الفعل طيبا حيث تجاوبت أصداء البيان الروسى فى العالم الاسلامى وأحدث رجع الصوت دويا فى أرجاء المنطقة فتزايدت الأصوات فى تركيا وفارس وغيرهما التى هللت للبيان السوفيتى ووصفه البعض بأنه وثيقة الحرية الكبرى ـ لو تحقق ما جاء فيه .

وهكذا بدا أن المبادئ الأساسية لعمل مشترك بين روسيا وبين العالم الاسلامى الذى يئن تحت وطأة المغتصبين الأجانب ويشربون كأس عبودية الاستعمار الغربى قدوضحت وأن الظروف أصبحت ملائمةلتوحيد الجهود ضد الاستعمار .

واستمر الروس فى جذبهم للعالم الاسلامى فكونت موسكو (لجنة اسلامية) أى مجلس أعلى للشئون الاسلامية فى يناير ١٩١٨م ودعت هذه الجنة إلى عقد مؤتمر اسلامى فى ديسمبر ١٩١٨ وتكونت فى هذا المؤتمر «رابطة تحرير الشرق »[٢] .

وفى غضون ذلك راقب الغرب بحقد ما حققته الثورة الروسية من انتصارات حققب بيانها إلى العالم الاسلامى ، وتجاوبت أصداء ثورتهم فى العالم الاسلامى للتخلص من الاستعمار الغربى ففكر ر يكان فى وضع خطة لسحب البساط تحت أقدام الروس .

(١) المرجع السابق ص ٢٤٢ .

(٢) باول سمتز ، الاسلام قوة الغد العالمية ، ص ٢٤٢ ـ ٢٤٤ .

(اعلان حق تقرير المصير)

فأعلن الرئيسى الأمريكى ولسون (فى اكتوبر ١٩١٨) مبادئه الأربعة عشر التى تتعلق بحق تقرير المصير لكل الشعوب قاطبة دون تفرقة . فأعلن نهاية عهد التوسع وبداية عهد يمكن لكل أمه أن تحصل فيه على آمالها وأمانيها القومية على أسس من العدل والمساواة بين الأجناس ، وقرر نهاية استعباد الدول القوية للشعوب الضعيفة(١) .

وقد أخلف ويلسون وعوده وعهوده للشعوب الاسلامية ، وكما هى عادة الغرب حتى يومنا هذا فقد طبق تقرير المصيرفى أوربا على المسيحين فقط بالنسبة للدول التى كانت تخضع للدولة العثمانية فى شرق أوربا ، ولم يطبق في العالم الاسلامى والعربى وطبق بدلا منه مبدأ توزيع أسلاب الحرب ، وأعطى الاوربيون والأمريكان للعرب وغيرهم وعودا كاذبة .

واستمرت روسيا فى خطتها فى مغازلة العالم الاسلامى فدعت الحكومة الشيوعية الى عقد مؤتمر عالمى لشعوب الشرق فى (باكو) عاصمة أذربيجان، ووجهت الدعوة الى أكثر من ٢٥٠٠ عضو من كل بلاد العالم الاسلامى ، ولبى الدعوة أكثر من ١٨٠٠ عضو على الرغم من محاربة الدول الاستعمارية ومنع المدعوين والقبض عليهم فى الهند ووضع قنابل فى سفينة الوفد الفارسى الى المؤتمر ، ورفض إعطائهم تأشيرات خروج ، لأن الاستعمار يده من حديد فى بلدان العالم الاسلامى .

وفشل المؤتمر لمحاولة الشيوعيين المقارنة بين الاسلام والشيوعية تلك المقارنة التى رفضتها الوفود الاسلامية فى المؤتمر رفضا باتا ، واتضح لدى

(١) د. جلال يحيى ، العالم العربى ، الجزء الثانى ، ص ٥٣٥ ـ ٥٣٦ . وانظر أيضا : عبد الرحمن الرافعى ، ثورة ١٩١٩ الجزء الاول ص ٥٧ ـ ٥٩ .

السوفيت أن ما يبحث عنه الوطنيون الشرقيون لدى روسيا هو السلاح والمساعدات العسكرية والموقف الدبلوماسى ضد القوى الغربية ، وأظهرت موسكو استعدادا لتقديم هذا كله لأن نضال الشعوب الاسلامية ثورى فى رأيها ويمكن أن يمزق أوصال الاستعمار الغربى الذي هو العدو الرئيسى لموسكو[١].

كان هذا هو النشاط السياسى للدول الكبرى فى أواخر الحرب العالمية الأولى .

وبدأت بريطانيا تحاول تفتيت العالم الاسلامى وهى بصدد إهالة التراب على الخلافة الأسلامية فى تركيا بعد قضائها على الدولة العثمانية .

فكرة الجامعة العربية:

وبدأت فكرة إنشاء جامعة عربية تجمع الشعوب العربية بعيدا عن الدول الاسلامية الأخرى بتوجيه بريطانى عقب الحرب العالمية الأولى فى سنة ١٩٢١م ، وتحت زعامة مصر .

وتحت يدنا وثيقة تؤكد ذلك لم تنشر من قبل[٢]وهى عبارة عن مذكرة مقدمة إلى وزارة الخارجية البريطانية تقترح اقامة جامعة عربية وتقدمت بريطانيا بهذه المذكرة إلى وزارة الخارجية المصرية غير أن هذا الاقتراح لم ينفذ إلا بعد الحرب العالمية الثانية ودون الدخول فى تفاصيل ينبغى التنويه بادئ ذى بدء بما يلى :

أولا: أننا بصدد وثيقة تاريخية هامة يكشف عنها النقاب لأول مرة .

ثانيا: تتحدث الوثيقة بصراحة واضحة عن مبادرة الانجليزية لإقامة جامعة

---

(١) باول سمتز ، مرجع سبق ذكره ص ٢٤٦ ، ٢٤٧ .

(٢) انظر : محافظ عابدين ، محفظة رقم ٥٠ وزارة الخارجية ، الديوان العام ، تقارير وبرقيات دقم (١) .

عربية بزعامة مصر وتحت رقابة بريطانية منذ عام ١٩٢١م ، أى أن فكرة الجامعة العربية وليدة الحرب العالمية الأولى لا الثانية كما هو المعتقد من قبل ولذلك فإن الوثيقة تقلب الحقائق المسجلة فى التاريخ رأسا على عقب .

وتتكون الوثيقة من ديباجة تشرح الوضع فى شعوب الشرق العربى بعد الحرب الأولى ، وانتشار مبادئ الحق والعدل فيها والرغبة فى اعلان أمانيها القومية غير أن العجز يقعدها عن أن تحكم نفسها بنفسها .

وتتحدث الوثيقة عن أن الأفكار فى الغرب مشغولة بإحداث تعديل أساسى فى قواعد السياسة الاستعمارية وعلى الأقل فى البلاد العربية تكون بالرقابة عليها بدلا من حكمها مباشرة وتشرح الوثيقة أصول المشروع ومبرراته وفوائده ، ومنها عدم الشك فى نوايا بريطانيا ، وإظهار الآمال الوطنية بدلا من الشعور الدينى الذى كان حتى الأن مسيطرا على القلوب ، وتتدخل بريطانيا تدخلا تدريجيا فى المهام الاقتصادية والادارية .

وتذكر الوثيقة ملخص المشروع فتقول : نستطيع أن نلخص المشروع فيما يلى : جامعة سياسية جنسية للشعوب العربية أساسها محالفة تعقدها هذه الشعوب مع مصر لمالها من مكانة سامية بين العرب . وتتنبأ الوثيقة بخلع الشريف حسين من الحجاز ووضع حاكم مدنى آخر مكانه ، ولا تستبعد أن يكون الحاكم أميرا مصريا لما لمصر من هيبة فى الحجاز ، وفصل السلطة الدينية عن السلطة المدنية فى الحجاز .

وأخيرا إذا وافق المشروع السابق قبولا أمكن وضع برنامج تفصيلى يستعان معه بالمعلومات التفصيلية التى لدى الحكومة البريطانية عن تلك الشعوب وجاراتها كالعجم وآسيا الصغرى [1] .

---

(١) المصدر السابق نفس الوثيقة .

ولكن مشروع الجامعة العربية لم ينفذ إلا بعد الحرب العالمية الأولى ، ويبدو أن مصر لم تستجب فى هذه الفترة الواقعة بين الحربين لهذا المشروع ، وذلك نظرا لحركة المعارضة الاسلامية القوية التى قادها الأزهر على إثر الغاء مصطفى كمال الخلافة فى تركيا سنة ١٩٢٤ .

إلغاء الخلافة فى تركيا وصداه فى مصر :

لم تكد تنتهى الحرب العالمية الأولى حتى صفيت الدولة العثمانية وبقى أن يقضى على نظام الخلافة الاسلامية ، واصطنع الغرب الاستعمارى بعد الحرب مصطفى كمال من بين حطام الدولة فقام بدور رئيس فى إلغاء الخلافة فى سنة ١٣٤٢هـ (١٩٢٤م) وأعلن الجمهورية التركية وأعلن النظام العلمانى للدولة .

وكان لنبأ إلغاء الخلافة وقع أليم فى جميع الأوطان الاسلامية وخاصة فى مصر إذ أنبا منبر الأزهر الشريف والمعاهد الدينية الاسلامية والحفيظة على التراث والعلوم الاسلامية وتساءل الناس فى مصر إذا كانت الخلافة قد انتهت من تركيا فلماذا لا تعود إلى البلاد العربية ، وخاصة أن الخلافة كانت عربية فى أصلها وظلت كذلك قرونا عديدة قبل أن تنتقل إلى الأتراك عندما ضعف العرب ، لهذا فكر كثير من الناس ولاسيما علماء المسلمين فى إعادة الخلافة إلى حياة المسلمين وتجديدها وبدء عهد جديد فى حياتها [1] ولقد أثارت تلك المحنة لوعة الشعر والأدب فنظم أمير الشعراء شوقى مرثيته الشهيرة التى تعتبر بحق من أبلغ ما قيل بوصفه تأثيرا فى النفس ، يقول فى مطلعها :

ضجت عليك مآذن ومنابر ... وبكت عليك ممالك ونواح

---

(١) د. محمد ضياء الدين الريس ، الاسلام والخلافة فى العصر الحديث القاهرة ، ١٩٧٢ ص ٦٣ .

الهند والهة ومصر حزينة   تبكى عليك بمدمع سحاح

الشام تسأل والعراق وفارس   أمحامن الأرض الخلافة ماح

الأزهر يتزعم حركة عودة الخلافة :

تزعم علماء الأزهر الدعوة لإعادة الخلافة إلى حياة المسلمين وبدأ نشاطا قويا فى أوساط مصر السياسية والدينية يهدف إلى بحث مسألة الخلافة واتخاذ قرار بشأنها ، وفى تلك الأثناء انتهى الرأى فى مصر إلى ضرورة عقد مؤتمر اسلامى دولى يحضره ممثلون عن الدول الاسلامية ويكون مقره القاهرة تحت رعاية واشراف الأزهر ، ويتناول هذا المؤتمر مسألة الخلافة بالبحث لكى يصل إلى قرار بشأنها يكون محل اتفاق المسلمين لأن الخلافة لا تخص مصر وحدها بل تهم العالم الاسلامى كله ، وفضلت مصر أن تتبع الطرق القانونية فى هذا الأمر الخطير .

وفى يوم ٢٥ مارس سنة ١٩٢٤ عقد علماء الأزهر اجتماعا تحت رئاسة الاستاذ الأكبر شيخ الأزهر وتداولوا فى الأمر ثم أصدروا بيانا جاء فيه ما يلى :

« كثر تحدث الناس فى أمر الخلافة بعد خروج عبد المجيد الثانى من الاستانة ، واهتم المسلمون بالبحث الكثير فيما يجب عليهم عمله قياما بما يفرضه عليهم دينهم الحنيف » ثم بينوا الضرورة القصوى التى تستلزم وجود خليفة وامام للمسلمين كافة وانتهوا أخيرا الى القرار التالى :

« لهذه الأسباب نرى أنه لابد من عقد مؤتمر دينى إسلامى يدعى اليه ممثلوا جميع الأمم الاسلامية للبحث فيمن يجب أن تسند اليه الخلافة الاسلامية ويكون المؤتمر بمدينة القاهرة تحت رئاسة شيخ الاسلام بالديار المصرية (وهو شيخ الأزهر فى مصر) وأن يكون عقد المؤتمر فى شهر

شعبان سنة ١٣٤٣ هـ (مارس ١٩١٥)[1] وفى تلك الأثناء فوجئ الناس بالشريف حسين بن على ملك الحجاز يومئذ يعلن نفسه خليفة على المسلمين دون تشاور معهم أو بيعة منهم ورفض كثير من المسلمين الاعتراف له بالخلافة .

وفيما هو جدير بالذكر أن الملك عبد العزيز بن سعود بدأ الزحف على الحجاز سنة ١٩٢٥ وأخرج على بن الحسين من جدة فى ديسمبر سنة ١٩٢٥ وأعلن عبد العزيز ضم الحجاز الى مملكته فى يناير ١٩٢٦ ثم أعلن نفسه ملكا على نجد والحجاز سنة ١٩٢٧ .

ونشطت الجهود استعدادا لعقد هذا المؤتمر فى داخل مصر وخارجها وبدأ ملك مصر يومئذ وهو الملك فؤاد حفيد محمد على يعد نفسه لتولى هذا المنصب منافسا بذلك الشريف حسين بن على .

ووسط هذه الظروف السياسية الصعبة التى تتعلق بمصير الخلافة الاسلامية صدر كتاب فى مصر بعنوان « الاسلام وأصول الحكم » فى أبرايل سنة ١٩٢٥ يبحث فى الخلافة والحكومة فى الاسلام مؤلفة قاضى شرعى فى مصر وعالم من علماء الأزهر هو الشيخ « على عبد الرازق » حاول فيه مؤلفه أن يثبت أن الخلافة ليست من الاسلام وذلك لأن الاسلام دين والدين ضد الدنيا ، فلا علاقة للاسلام بشئون الدنيا ومنها الخلافة ، وأن الاسلام لاصلة له بالحكم ولا بالمجتمع ولا بالدنيا وأنه يجب اذن انهاء الخلافة من حياة المسلمين ، وأن الخلافة الاسلامية التى قامت فى التاريخ لم تكن اذن اسلامية بل ملكا دنيويا وان أبا بكر كان أول ملك فى الاسلام ، وأن الاسلام فى ليس

---

(١) أنظر : قرار الهيئة العلمية ، الدينية الاسلامية الكبرى بالديار المصرية فى شأن الخلافة ، سنة ١٣٤٢هـ محفظة رقم ٢ من محافظ الخلافة ، دار الوثائق بالقاهرة .

فيه (جهاد) ، وأن جهاد النبى لم يكن من صميم الرسالة ولا جزءا منها لأن الجهاد ـ كما يزعم ـ مؤلف هذا الكتاب انما يكون فى سبيل الملك وتوسيع السلطان .

الى غير ذلك من الآراء الشاذة التى تخالف ما يعتقد المسلمون وما اجتمع عليه علماؤهم والتى أحدثت دويا فى أوساط المسلمين ولا يمكن الا أن تكون إلا آراء لمستشرق استعمارى صهيونى عدو للاسلام والمسلمين ولا يريد لهم القوة .

والذى لامراء فيه هو أن آراء الشيخ على عبد الرازق التى طرحها فى كتابه كانت (تطابق تماما أهداف الانجليز) والسياسة الاستعمارية فى العالم الاسلامى ، فالانجليز كانوا يريدون هدم الخلافة والقضاء على كل فكرة من أجل التجمع من جديد حول الوحدة الاسلامية وهذا هو الغرض الاساسى من الكتاب كله [1] .

وأعداء الاسلام يعمدون دائما الى تشويه تاريخ الاسلام والطعن فى شخصياته وهذا هو الذى قرره وأكده الشيخ عبد الرازق بعبارات حماسية عنيفة فى كتابه ، والمستعمرون عامة يعملون على إبعاد الاسلام عن السياسة وفصله عن الدولة وتجريده من القوة وواجب الجهاد والحرب وحق الدفاع عن نفسه ، ليسهل على المستعمر الاعتداء على المسلمين واستعبادهم واحتلال بلادهم واغتصاب أراضيهم وثرواتهم ، فلا يكون للمسلمين جهاد ولا دفاع ضدهم ولا تدخل فى السياسة لأن هذه الأمور كلها من شئون الدنيا .

وهذه الآراء التى هى فى مجملها آراء المستشرقين انبرى للدفاع عنها

(١) انظر : د. ضياء الريس : الاسلام والخلافة فى العصر الحديث ، نقد كتاب الاسلام وأصول الحكم ، القاهرة ، ١٩٧٦م ص ١٨٣ .

الحزب الموالى للانجليز فى مصر والذى ينتمى اليه الشيخ على عبد الرازق وأسرته وهو (حزب الأحرار الدستوريين) الذى انبثق من (حزب الأمة) ربيب الاستعمار الانجليزى فى مصر ، واذا كان حزب الأمة المنحل قد نشأ بإيحاء ورعاية « اللورد كرومر » المندوب السامى فى مصر ، فإن حزب الأحرار الدستوريين نشأ كذلك بتأييد الانجليز ورعاية « اللورد اللبنى » فمثل الاستعمار البريطانى فى مصر والشرق ، وكان هذا الحزب الأخير الذى ينتمى اليه الشيخ على عبد الرازق وأسرته يقوم على أساس مبدأ التعاون مع الانجليز وصداقتهم ومسايرة سياستهم ومعادات الملك ومعارضة سياسته ولا شك أن هذا الكتاب وضع بالتعاون مع المخابرات البريطانية .

وقامت ثورة فى « الصحافة المصرية » ، بين مؤيد ومعارض ، فالصحف التى كانت تعيش فى ظل الاحتلال البريطانى أيدت الفكرة وأسبغت على الشيخ ألقايا كثيرة لا يستحقها من بينها : « العلامة الكبير » و « الأستاذ المحقق » و « المصلح المجدد » بينما رمته الصحف الوطنية بالطيش فى الرأى والألحاد فى العقيدة وتعرض لهجوم شديد من كثير من المفكرين الوطنيين ورماه كثير منهم بالخيانة .

وكان من نتيجة نشر هذا الكتاب أن قامت بعض (المظاهرات) فى مصر من الأزهر تعلن الاحتجاج ورفعت عرائض وقع عليها عدد كبير من العلماء الى شيخ الأزهر وبعض الجهات الرسمية طالبوا فيها أن ينهض الأزهر بواجبه فى الدفاع عن الاسلام والرد على هذه الدعوات الا لحادية الهدامة التى تعد خروجا على أحكام الدين وتحريفا لحقيقة الاسلام وطعنا فى تاريخه .

وكانت النتيجة أن صدر (قرار من الأزهر) بتقديم مؤلف الكتاب الشيخ « على عبد الرازق » الى محكمة تأديبية أمام هيئة كبار العلماء .

وكان لهذه المحاكمة دويا لأن التهمة فيها تتعلق بمسألة دينية وسياسية فى نفس الوقت ، وصدر الحكم فيها باخراج الشيخ على عبد الرازق من زمرة العلماء ومهما يكن من أمر هذا الحكم فإن الكتاب قد ساهم فى نسق فكرة عودة نظام الخلافة لجمع شمل المسلمين .

أما عن المؤتمر الذى دعا اليه الأزهر لبحث مسالة الخلافة فقد انعقد فى القاهرة فى مايو ١٩٢٦م وذلك بعد أن تأخرى عاما عن الموعد الذى حدد لانعقاده فى مارس ١٩٢٥م وظهر فى أول جلساته أنه مختلف الاتجاهات وبدا أنه من المتعذر الوصول الى اتفاق ، عند ذلك رأى القائمون عليه أن أسلم طريقة لحفظ كلمة المسلمين من التفرق وابقاء على الخلافة وحماية لها هو أن يسعوا لفض هذا المؤتمر قبل أن يتخذ قرارات معينة من شأنها أن تزيد النفرة بين المسلمين .

ويلاحظ أن علماء الأزهر اكتشفوا فى مؤتمر القاهرة مدى اتساع الهوة بين الشعوب الاسلامية وازدياد الفرقة التى عمل الاستعمار على تعميقها وأن هناك حواجز تحتاج الى وقت طويل تصلح فيه النفوس التى أفسدها الاستعمار، واحتاج المسلمون نحو نصف قرن بعد ذلك لكى يجتمعوا بزعامة قادتهم ورؤسائهم فى اجتماع القمة بالمغرب سنة ١٩٦٩م عقب حريق المسجد الأقصى بفلسطين ، وكان هذا الاجتماع على الرغم من سلبياته الا أنه كان أشبة بالمعجزة .

ولعل سبب فشل مؤتمر القاهرة يرجع الى عوامل خارجية وداخلية .

أما العوامل الخارجية : فكانت تتلخص فى خطورة المسألة الموضوعة على بساط البحث وعدم امكان الاتفاق بين زعماء المسلمين على من يرلونه خليفة وفى أى قطر تكون الخلافة فكان هناك تنافس شخصى وسياسى بين الملوك

والرؤساء أركاه الانجليز ، وعدم وجود من يصلح لهذا المنصب الجليل وكان لدسائس الاستعمار ومساعى بريطانيا بالذات كبير الأثرفى ايجاد التفرقة وعرقلة الجهود الرامية الى اقامة الخلافة من جديد ، كما كان لاعلان الشريف حسين بن على نفسه خليفة على المسلمين وعدم اشتراكه فى المؤتمر من العوامل المؤثرة والمؤدية الى فشل المؤتمر ، كما أبرق أحد زعماء المسلمين الهنود الخاضعين للانجليز الى المؤتمر بأنه لا يزال على مبايعته لعبد المجيد الثانى العثمانى المعزول ، وأنه لا يزال يعده خليفة المسلمين كما بعث كثير من المسلمين يسألونه ويشككون فى مقاصد المؤتمر ويقولون : هل المراد من المؤتمر حفظ الخلافة قياما بالواجبات الدينية أم أن المقصود فقط هو نقل الخلافة من شاطئ البسفور الى شاطئ النيل .

وأما العوامل الداخلية : الخاصة بمصر فهى أن الملك فؤاد الذى يبدو وأنه أعد نفسه لهذا المنصب كان لا يظهر أنه الرجل الذى تتوفر فيه شروط الخلافة اذ أن لها شروطا عالية ، من حيث العلم والتقوى فضلا عن أنه ليس من أصل عربى وتربى فى أوربا وكان مفتونا بها ، وأكثر من ذلك أنه لم يكن محبوبا من شعبه فى الداخل ، فلم يتجاوب مع أمانى الشعب الوطنية فى الحرية وكان يريد أن يقمع إرادته وينفرد بالحكم ، وكان يناصب زعيم الشعب المصرى (سعد زغلول) العداء وتآمر عليه لاخراجه من الحكم فلم يكن أحد من الشعب المصرى يرحب أن يرتفع هذا الملك الى مقام الخلافة السامى لكى يزداد نفوذه فى البلاد ويزداد استبداده اللهم الا اذا تحققت شروط معينة لتقييد سلطته من أجل منع هذه المخاطر ، كما رأى علماء الأزهر الذين تحمسوا لفكرة الخلافة وضرورة عودتها للهيمنة على حياة المسلمين من جديد [١] .

---

(١) د. ضياء الريس : مرجع سبق ذكره ، ص ٨٧١ ـ ٩٧١ .

وكانت هذه الظروف الخارجية والداخلية السالفة أقوى من تحمس علماء الأزهر لفكرة عودة الخلافة ففشل المؤتمر وفشلت جهودهم لاعادة وحدة المسلمين وقتل الموضوع فى مهده ، وانفض المجتمعون وعاد كل الى وطنه وبقى العالم الاسلامى حتى وقتنا هذا بدون خليفة ، ويبدو من واقع المسلمين الحالى أنه ليست هناك أيه محاولات لعودة الخلافة من جديد وذلك بفعل ألاعيب الاستعمار وتفريقه للمسلمين .

وبعد أن انطفأت فكرة اعادة الخلافة للعالم الاسلامى تمكن الاستعمار من ترويج فكرة القوميات لتمزيق العالم الاسلامى الى عصبيات جنسية متعادية ومتنافسة ومتحاربة أحيانا ، وتفريق كلمتهم كما هو واقع المسلمين اليوم ، ونفذت فكرة الجامعة العربية بعد الحرب العالمية الثانية ، برعاية من الانجليز وقيادة مصرية .

الموقف العربى أثناء الحرب الثانية :

كانت المعارضة لبريطانيا أثناء الحرب العالمية الثانية قد زادت بسبب ما فعلته بريطانيا بالعرب فى الحرب العالمية الأولى فى أعقاب تصريح بلفور وتمكين اليهود من فلسطين ومحاربة الآمال العربية فى الوحدة على أساس اسلامى وقامت بتعميق مفهوم الوطنية بعيدا عن التجمع الاسلامى وأفشلت مشاريع إعادة الخلافة ، وعلى الأخص طموح مصر بإعادة الخلافة الاسلامية إليها .

وهذا ما جعل القوى الوطنية فى مصر تتمنى هزيمة بريطانيا وفرنسا فى الحرب أمام ألمانيا ، وأحست بريطانيا أنها فى حاجة إلى أن تقبض بيد من حديد على الأوضاع فى مصر وخاصة عندما زحفت قوات الألمان بسرعة إلى العلمين فى غربى مصر بقيادة (روميل) سنة ١٩٤٢ ، وخرجت المظاهرات

فى شوارع القاهرة منادية « إلى الأمام يا روميل » وكان الشعور العام فى مصر ضد بقاء قوات الاحتلال ، عند ذلك زاد انزعاج الحكومة البريطانية ففكرت فى فرض إرادتها .

حادث ٤ فبراير ١٩٤٢ :

رأت بريطانيا أن تضمن الاستقرار فى مصر إبان الحرب ، لذا قررت أن يتولى حزب الوفد الحكم ، فقد كان النحاس متفاهما مع الانجليز بدليل أنه رفض تأليف حكومة قومية من الأحزاب كلها ، ولو قبل النحاس هذا لما تدخل الانجليز فى مصر وأرسل السفير البريطانى إنذاره المشهور فى ٤ فبراير ١٩٤٢ يقول فيه « إذا لم أسمع قبل الساعة السادسة مساء أن النحاس باشا قد دعى لتأليف وزارة فإن جلالة الملك فاروق يجب أن يتحمل ما يترتب على ذلك من نتائج »[١] وجاءت الدبابات البريطانية إلى قصر عابدين لتأييد الانذار البريطانى ، وقبل الملك الإنذار تحت التهديد بالخلع ، وقامت وزارة مصطفى النحاس طوال مدة الحرب .

وقد أثبت حادث ٤ فبراير ١٩٤٢ أن استقلال مصر خرافة ما دام هناك احتلال وجيش بريطانى ، ويقول المؤرخ عبد الرحمن الرافعى عن هذا الحادث.

« إن مصطفى النحاس باشا هو المسئول الثانى عن حادث ٤ فبراير ، وليس عمله من الاستقامة الوطنية فى شئ » وكان المسئول الأول عن هذا الحادث هو الملك فاروق بطبيعة الحال .

وعلى كل فإن هذا الحادث كان بداية هزة اجتماعية فى مصر وبعده فكر

---

(١) د. مصطفى عفوت ، مصر المعاصرة وقيام الجمهورية العربية المتحدة ، ص ١٥٦ .

ضباط الجيش المصرى فى تشكيل جهاز سرى للضباط الأحرا الذى خطط لثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ فيما بعد .

أما فى العراق: فقد تعاونت حكومة نورى السعيد مع الانجليز وقطعت علاقاتها مع ألمانيا فاستاء الشعب العراقى فاستقالت حكومة نورى السعيد ، وجاءت وزارة رشيد الكيلانى فى مارس ١٩٤٠ ، ورفضت هذه الوزارة اعلان الحرب على إيطاليا ، وحاولت بريطانيا عن طريق الأمير عبد الا له الوصى على عرش العراق الضغط لإزاحة وزارة الكيلانى من الحكم ولكن ضباط الجيش رأوا فى ذلك تدخلا بريطانيا واضحا للسيطرة على البلاد ، وأصروا على ضرورة بقاء رشيد عالى الكيلانى فى الحكم ، وتحركت قوة بقيادة أربعة من العقداء لمؤازرة الكيلانى ، وتألفت حكومة الدفاع الوطنى برئاسة الكيلانى، وانتخب البرلمان وصيا على العرش بدلا من الأمير عبد الإله وهو الشريف شرف [(١)] .

وتحركت بريطانيا لضرب ثورة الكيلانى ، فقامت القوات البريطانيه بضرب القوات العراقية من الجوفى قاعدة الحبانية فاتصلت العراق بألمانيا لإعادة العلاقات معها ، ولم تتمكن ألمانيا من مساعدة العراق بالأسلحة والذخائر لأن حكومة (فيشى) فى سوريا ولبنان رفضت نزول ومرور الطائرات الألمانية فيها أو عبرها صوب العراق ، وقام البريطانيون بهجومهم من جنوب العراق ومن شرق الاردن بقوات الفيلق العربى الخاضعة للأمير عبد الله بن الحسين ، وفى وقت تمكنت فيه من السيطرة على موارد البترول فى العراق .

وكانت بريطانيا تخشى نزول الألمان فى سوريا خوفا من زحفهم على العراق للاستيلاء على البترول فى شمال العراق وإيران ، وكانت ألمانيا تواصل

---

(١) د. جلال يحيى ، العالم العربى ، جـ٣ ، ٤٦ ـ ٤٧ .

الدعاية ضد بريطانيا فى المنطقة العربية بأن بريطانيا سلمت فلسطين لليهود ، وتحرج موقف بريطانيا فى العالم العربى فى صيف عام ١٩٤١ .

وفى مايو ١٩٤١ أصدر مفتى فلسطين أمين الحسينى منشورا يدعو فيه العرب والمسلمين إلى الجهاد ضد الانجليز كما حدث فى العراق .

وعندما صدرت الأوامر للفليق العربى بالزحف صوب العراق رفض جنود الفليق العربى الهجوم على العراق ، وهددوا الضباط الانجليز بضربهم وأداروا رشاشاتهم عليهم إذا لم يسمحوا لهم بالعودة إلى قواعدهم فى شرقى الاردن .

وتحرج موقف بريطانيا ، فاضطرت إلى بذل مجهودات للسيطرة على الموقف ، وخاصة فى تلك المنطقة التى تمر فيها قناة السويس والتى تشتمل على موارد البترول فى الخليج والعراق وإيران ، ولا يمكن لبريطانيا مواصلة الحرب بدونها .

ولذلك بدأت بريطانيا تؤيد فكرة التقارب بين الدول العربية من أجل الوحدة لسلامة قواتها المحاربه فى المنطقة من ناحية والقضاء على المعارضة لها من ناحية أخرى ويضمن لبريطانيا الاتصال بالعرب سلميا والسيطرة عليهم عن طريق هذه الوحدة ، ومن أجل أن تمحو بعض مساوئها السابقة التى قامت بها فى العالم العربى .

تصريح إيدن ١٩٤١/٥/٢٩ :

أدلى إيدن وزير خارجية بريطانيا بتصريح فى ١٩٤١/٥/٢٩ مضمونه أن بريطانيا تعطف على أمانى العرب فى الاستقلال وتساعد أى جهود عربية للوحدة بشرط أن تلقى موافقة عامة [١] .

---

(١) المرجع السابق ، جـ٣ ص ٤٨ ـ ٥٣ .

ويلاحظ أن هذا التصريح أعاد إلى الساحة مشروع الجامعة العربية التى سبق أن طرحته بريطانيا على مصر فى أعقاب الحرب العالمية الأولى ولم تجرؤ مصر على المضى فيه لأنها كانت مشغولة بموضوع اعادة الخلافة الاسلامية . وهو المشروع الذى سبق أن تحدثنا عنه .

ويلاحظ أيضا أن التصريح لم يتعرض لفلسطين مع أهميتها فى الوقت الذى أسلمت فيه بريطانيا فلسطين لليهود . وأرادت بريطانيا من هذا التصريح إنقاذ موقفها مع العرب وخلق جو جديد من الثقة مع العرب ، وأرادت بريطانيا بذلك التصريح أن تسبق ألمانيا وتقطع عليها خط الرجعة لإغواء العرب، وخاصة أن (رشيد عالى الكيلانى)و (أمين الحسين) مفتى فلسطين التجأ كل منهما إلى برلين وأوعزت بريطانيا إلى الجنرال ديجول رئيس حكومة فرنسا الحره أن يعلن إستقلال سوريا ولبنان ونشر هذا الاعلان فى ٨ يونيو ١٩٤١ ، وذلك للقضاء على نفوذ حكومة فيشى فى بلاد الشام .

وكان على العرب الاسراع باختيار قيادة للقيام بعملية الوحدة ، وكانت المتناقضات كثيرة والأطماع داخل العالم العربى بين الرؤساء والملوك ، فهناك الهاشميون : فى شرق الأردن والعراق ، والسعوديون فى الجزيرة العربية بقيادة الملك عبد العزيز الذى لا يرتاح للهاشميين وهم لا يرتاحون إليه كذلك ، وهناك أحرار سوريا الجمهوريون وهناك مصر مركز الثقل العربى وشقيقه العرب الكبرى والتى كانت مشغولة بهجمات ألمانيا وإيطاليا فى صحرائها الغربية ، ولم تكن لمصر أطماع فى زعامة العالم العربى . ولكن ظروف نموها الطبيعية فى الميادين الاقتصادية والثقافة هى التى تؤهلها للقيام بدور الشقيقة الكبرى لبلدان العالم العربى ، وتقوم بالتوفيق بين وجهات النظر العربية المختلفة فى مشاورات الوحدة [١] .

وكانت فى مقدمة مشاريع الوحدة التى تقدم بها العرب إلى بريطانيا

(١) المرجع السابق ، جـ ٣ ص ٦٢ ـ ٦٣ .

مشروعان هاشميان تقدم بهما الحكام الهاشميون فى كل من بغداد وعمان ، **فالأول** : مشروع الهلال الخصيب والذى تقدم به نورى السعيد رئيس وزراء العراق .**الثانى**:مشروع سوريا الكبرى ، وتقدم به الامير عبد الله بن الشريف حسين أمير شرق الأردن .

أما المشروع الأول وهو الهلال الخصيب:وهو مشروع عراقى وضعه نورى السعيد رئيس الوزراء العراقى فى اكتوبر ١٩٤٣م يطلب فيه توحيد سوريا ولبنان وشرق الأردن والعراق فى دولة واحدة وعودة فلسطين إلى سوريا التاريخية ونشر هذا المشروع فى كتاب أزرق عراقى سنة ١٩٤٣ وقدمه لبريطانيا ، وذكر أن المشروع سيؤدى إلى منافع متبادلة بين بريطانيا والعرب ، وذكر بريطانيا بوعودها للعرب بالاستقلال منذ الحرب الأولى ، وخوفها من خطورة تفتيت العرب فى دويلات صغيرة ، وأن فكرة الوحدة بين هذه الأقاليم ستسمح لهم بتقديم الخدمات الدفاعية للحلفاء . وحاول نورى السعيد إبعاد مصر والسعودية عن مشروعه فى المرحلة الأولى منه ، وبعد نجاح الوحدة بين العراق وسوريا التاريخية يمكن انضمام دول أخرى له واقترح نورى السعيد منح اليهود فى فلسطين نظام حكم شبه ذاتى ، ويكون لهم الحق فى ادارة أقاليمهم فى المدن والريف ويمكن منح لبنان نظاما خاصا إذا اقتضى الأمر .

وأرسل نورى السعيد نسخا من هذا المشروع إلى زعماء العرب ثم نشر فى كتاب أزرق عراقى صدر فى بغداد سنة١٩٤٣ .ولكن بريطانيا نظرت إلى المشروع بعدم استحسان ولذلك رفضت المشروع على لسان « إيدن » وزير خارجيتها . ورفضته مصر والسعودية وسوريا أما فرنسا فقد خوفت لبنان من هذه الوحدة وحاولت ضرب الزعامات العربية ببعضها [1] .

والمشروع الثانى:هو مشروع سوريا الكبرى فقد انتهز أمير شرقى الأردن

(١) د. جلال يحيى ، العالم العربى الحديث ، جـ٣ ، ص ٦٥ ـ ٨٠ .

عبد الله بن الحسين ، عملية رفض مشروع الهلال الخصيب وتقدم بمشروع آخر سنة ١٩٤٣ مماثل لمشروع بغداد وإن كان يهدف إلى سوريا كخطوة أولى يصل منها إلى كل الهلال الخصيب .

وتقدم الأمير عبد الله بمذكرة إلى الحكومة البريطانية استند فيها بمطالبة الأحرار فى سوريا والأردن بوحدة سوريا والأردن ولبنان وفلسطين فى دولة واحدة يتولاها الأمير عبد الله ، ونص على منح كل من فلسطين ولبنان إدارة خاصة لحفظ حقوق الأقلية اليهودية وإلغاء وعد بلفور ، كما اشتمل على ضرورة تكوين اتحاد عربى تعاهدى أو فيدرالى يتشكل من كل من سوريا والعراق فى المستقبل ويترك الباب مفتوحا لدخول أى دولة عربية أخرى ترغب فى الانضمام إلى المشروع فيما بعد (٢) .

ولقد نشر هذا المشروع بعد ذلك فى كتاب أبيض أردنى فى عمان ، وأخيرا فشل هذا المشروع الهاشمى كسابقه بسبب موقف فرنسا منه ومعارضة مصر والسعودية للمشاريع الهاشمية ورفض السوريون الجمهوريون حكما ملكيا عليهم كالأمير عبد الله بن الحسين الذى يحتاج إلى بريطانيا فى تدعيم ميزانية بلاده ، ويضع قوات فيلقه العربى فى خدمة الانجليز .

وكان فشل المشاريع الوحدوية الهاشمية مقدمة لمشروع الجامعة العربية التى قادته مصر بقيادة مصطفى النحاس رئيس وزراء مصر ، الذى دعا الحكومات العربية للتشاور حول إنشاء الجامعة العربية بالاسكندرية وجعل المشاورات خاصة بالدول المستقلة وبذلك استبعد فلسطين وعرب المغرب للوصول إلى قرارات سليمة يمكن تنفيذها دون تدخل الدول الكبرى ذات المصالح والنفوذ فى هذه الأقاليم .

---

(٢) المرجع السابق ، جـ٣ ص ٨٠ ـ ٨٥ .

الفصل الخامس

الموقف العربى بعد الحرب الثانية :

أما عن موقف العرب بعد الحرب الثانية ، فكانوا قد حاولوا تكوين الجامعة العربية فى نهاية الحرب وتنادى ملوك العرب ورؤساؤهم إلى عقد مؤتمر قمة عربى يعقد فى (إنشاص) بمصر لبحث القضية الفلسطينية فى ٢٨ من مايو ١٩٤٦ .

وقد حضر هذا المؤتمر وفود من مصر والأردن وسوريا ولبنان والسعودية واليمن والعراق وقد أصدر المؤتمر بيانا أكد فيه أن قضيةفلسطين قضية عربية عامة ، وأنه يتحتم على الدول العربية وشعوبها صيانة عروبتها ، ورفضوا الهجرة اليهودية إلى فلسطين ، وقرروا تأليف هيئة تمثل الفلسطينيين وترفع صوتهم عاليا .

وبعد ذلك بشهر عقدت الجامعة العربية مؤتمرا فى (بلودان) بسوريا ، وقرر هذا المؤتمر تخصيص مليون جنية لهيئة فلسطين العربية سنويا لانقاذ أراضى فلسطين ، ولكن هذا المبلغ لم يكن يفى بشئ أمام الامكانيات اليهودية المدعومة من أوربا وأمريكا ويهود العالم .

وصفوة القول أن الموقف العربى كان يتمسك بالنواحى القانونية والاجتماعات السياسية لاثبات حق العرب فى فلسطين بينما اليهود يهيئون المسرح فى فلسطين من الناحية العملية للاستيلاء عليها بالقوة عن طريق العصابات الصهيونية فى فلسطين .

أعمال العنف الصهيونية للاستيلاء على فلسطين :

كان استخدام القوة من وسائل الحركة الصهيونية للاستيلاء على فلسطين، فأنشأت فى العشرينيات كثيرا من العصابات أهمها :

الهاجاناه : التى ما لبث أن اشتد ساعدها تبعا لازدياد الهجرة اليهودية ، فقد وصفتها حكومة الانتداب فى بيان لها سنة ١٩٤٦ بأنها منظمة عسكرية غير مشروعة وحسنة التسليح يقدر عددها بحوالى ٦٠ ألف جندى بالاضافة إلى عصابتين منشقتان عنها هما :

١. **عصابة أرجون زفاى ليؤمى :** أى المنظمة العسكرية القومية ، ويقدر عدد أفرادها بحوالى ٥٠٠٠ جندى .

٢. **عصابة اشتيرن :** أى المناضلون ، وعدد أفرادها فى تلك الفترة حوالى ٣٠٠ من الارهابيين المتعصبين .

وأثناء الحرب العالمية الثانية ، تقدمت الوكالة اليهودية تطلب إلى الحكومة البريطانية لتشكيل (فيلق يهودى) كوحدة مستقلة ملحقة بالجيش البريطانى ، وبالرغم من معارضة بعض القادة العسكريين الانجليز وعلى رأسهم [الجنرال ويفل] قائد القوات البريطانية فى الشرق الأوسط ، فقد وافقت الحكومة البريطانية على طلب الوكالة اليهودية وسمحت بإنشاء الفليق اليهودى ، وفرق الكوماندوز اليهودية التى يطلق عليها (البالماخ) .

وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية ، عادت هذه التشكيلات العسكرية إلى فلسطين بكامل أسلحتها وانضمت إلى قوات الهاجاناه ، وهكذا أصبح لدى الوكالة اليهودية فى فلسطين قوات عسكرية راقية التدريب والتسليح تكون منها الجيش الاسرائيلى فيما بعد ، وقد أخذت هذه القوات تقوم بإعمال إرهابية

محكمة المخطط ضد الأهالى العرب والسلطات المنتدبة ، تحت ستار حركة المقاومة اليهودية .

ولقد قال منا حم بيجن زعيم عصابة أرجون ورئيس وزراء اسرائيل فيما بعد : أنه من الضرورى إرهاب العرب بالقتل والافناء لكى يتركوا فلسطين لليهود .

ولقد سمحت بريطانيا لليهود بهذا النشاط العسكرى والارهابى بينما كانت تتعقب العرب فى كل مكان وتشدد الرقابة عليهم الأمر الذى جعلهم ضعفاء من ناحية الاعداد العسكرى وسمحت لليهود بإدخال السلاح إلى فلسطين من كل مكان ، حتى إذا جاءت ساعة الاحتكاك العسكرى كان اليهود أكثر تنظيما وأكثر سلاحا من العرب .

تقسيم فلسطين :

بعد أن هيأت بريطانيا الوضع فى فلسطين لاقامة وطن قومى لليهود بها وتمكن اليهود من ثروة البلاد ، أعلنت عرض مشكلة فلسطين على الجمعية العامة للأمم المتحدة وذلك فى مطلع أبريل ١٩٤٧ .

وفى نفس الوقت طلبت الدول العربية من الأمم المتحدة إنهاء الانتداب على فلسطين واعلان إستقلالها .

وقد شكلت الأمم المتحدة لجنة دولية لتقصى الحقائق حول المشكلة الفلسطينية ، وقد رفضت الهيئات العربية فى فلسطين مقابلة هذه اللجنة لاعتقادهم أن هذا التحقيق يسير فى غير صالح (لقضية الفلسطينية) . وقد أوصت أغلبية اللجنة بضرورة تقسيم فلسطين بين العرب واليهود وقيام دولتين مستقلتين وتدويل منطقة القدس وقد تبنت الولايات المتحدة الأمريكية هذه

التوصية وعملت على اقناع الدول الأعضاء فى الأمم المتحدة والتى تسير فى فلكها بتأييد هذه التوصيات .

وفى ٢٩ نوفمبر ١٩٤٧ قررت الجمعية العامة الموافقة على مشروع تقسيم فلسطين بأكثرية الثلثين ، وخصص هذا القرار ٥٧٪ من مجموع فلسطين للدولة اليهودية و ٤٣٪ للدولة العربية . واختارت لجنة للاشراف على تنفيذ القرار .وكان العدل يقتضى أن تقرر الجمعية العامة إجراء استفتاء فى فلسطين بما يتمشى مع (حق تقرير المصير) الذى هو من مبادئ الامم المتحدة ، ولكن الجمعية العامة أشاحت بوجهها عن هذا تحت ضغط أمريكا لأن الاستفتاء سيكون من صالح العرب .

وبذلك فإ الأمم المتحدة انتهكت ميثاقها عندما رفضت أن تعترف للعرب بحق تقرير المصير مع أنهم كانوا يشكلون ثلثى عدد سكان فلسطين .

وحتى من وجهة النظر القانونية البحتة هناك عدة أسئلة تتبادر إلى الأذهان وهى :

- صدر قرار التقسيم من الجمعية العامة ولم يصدر من مجلس الأمن فهو يعتبر بهذه الصفة توصية وليس قرارا واجب التنفيذ .

- لم يكن الفلسطينيون وحدهم هم الذين رفضوا ذلك التقسيم فقد رفضته عصابة أرجون (وزعيمها مناجم بيجن) قائلة إنه عمل غير مشروع ، ولن يعترف به أبدا ودعت اليهود إلى طرد العرب بل إلى الاستيلاء على أرض فلسطين كلها .

واستطاعت العصابات الصهيونية الاستيلاء على (طبرية) و (حيفا) و (يافا) و (صفد) واتسعت الأرض التى منحتها الأمم المتحدة لاسرائيل

وكانت تبلغ ٥٧٪ من أراضى فلسطين فصارت ٨٠٪ منها . بالقوة والعنف على يد عصابات الهاجاناه وأرجون وشترن[١].

صدى القرار فى الأوساط الدولية :

أعلنت الدول العربية الأعضاء فى الأمم المتحدة أن قرار الجمعية العامة يجافى حق عرب فلسطين فى تقرير مصيرهم ، واستقلال بلادهم ويتنافى مع ميثاق الأمم المتحدة ومبادئها ، ولذلك فهى تعلن رفضها لهذا القرار ، وتعلن أنه لا يمكن تنفيذه بالوسائل السلمية ، وأن فرضه بالقوة يهدد السلم والأمن فى المنطقة .

وفى نفس الوقت أعلن مندوب (بريطانيا) أن بلاده قررت التخلى عن الانتداب وأنها حددت يوم ١٥ مايو ١٩٤٨ ميعادا للانسحاب من فلسطين عدا منطقة حيفا التى ستنسحب منها فى أغسطس ١٩٤٨ لأسباب تتعلق بسلامة وأمن قواتها .

وفى نفس الوقت تعهد مندوب بريطانيا بأن تظل بلاده مسئوله عن الأمن فى البلاد إلى أن يتم أنسحاب قواتها النهائى من فلسطين .

أما (اليهود) فقد استقبلوا التقسيم بالفرحة والابتهاج ، وقاموا باتخاذ الوسائل الكفيلة بتحقيقه فى الداخل والخارج وما أن حل فبراير ١٩٤٨ حتى كانت الهيئات اليهودية قد تسلمت من الدولة المنتدبة معظم المناطق المخصصة لليهود وبهذه الوسيلة أصبح ميناء (تل أبيب) تحت سيطرتها المباشرة فاستغلته فى نقل المهاجرين والأسلحة والمتطوعين إلى داخل فلسطين .

---

(١) روجية جارودى ، مرجع سبق ذكره ، ص ٦١ - ٦٢ .

فى الوقت الذى ظلت فيه السلطات البريطانية تمارس سلطاتها الكاملة فى المناطق المخصصة للدولة العربية وتحول دون تمكن العرب من الدفاع عن أنفسهم ضد العصابات الارهابية اليهودية ، وتعرقل نشاطهم العسكرى وتفرض حصارا عليهم .

الوضع فى فلسطين بعد صدور قرار التقسيم :

بعد قرار التقسيم انفجرت الاضطرابات فى البلاد ودعى العرب إلى اضراب عام استمر ثلاثة أيام كدليل على الاحتجاج وفى خلال بضعة أسابيع من الاضطراب بلغ عدد القتلى من الجانبين حوالى ١٧٠٠ شخصا فارتاعت الامم المتحدة لما أدى إليه قرارها الجائر .

وأرادت الأمم المتحدة العدول عن التقسيم ولكن اليهود قاموا بأعمال عنف مضادة لاحباط المحاولات التى يقوم بها مجلس الأمن لابطال مفعول قرار التقسيم ، فقامت العصابات الصهيونية بهجمات مركزة على السكان العرب الذين كانوا يتمسكون بقراهم .

غير أن الحادث الذى أسرع فى إشاعة الذعر وهروب السكان العرب من ديارهم هو : (مذبحة دير ياسين) التى حدثت فى ٩ من أبريل ١٩٤٨ التى ذهب ضحيتها ٦٥٠ قتيلا من النساء والرجال .

وقد قاد هذا الهجوم الغادر على القرية الآمنة مناحم بيجن رئيس وزراء اسرائيل الأسبق وزعيم عصابة أرجون يومئذ ، وهو الذى قال لولا النصر فى (دير ياسين) لما كانت هناك دولة (اسرائيل نبعد هذا الحادث ، قامت العصابات اليهودية بعدد من الهجمات على الأراضى والقرى المخصصة للعرب وعلى الأراضى والقرى العربية فى المنطقة المخصصة لليهود وطردوا

كثيرا من العرب الذين وصل عددهم حتى منتصف مايو ١٩٤٨ إلى نحو ٤٠٠ ألف عربى عرفوا فيما بعد (باللاجئين الفلسطينين) وتفرقوا فى البلاد العربية، وانتقل جزء منهم إلى الضفة الغربية لنهر الاردن وهى من الجزء الذى خصص للعرب من فلسطين ، وانتقل البعض منهم إلى قطاع غزة .

تدخل الدول العربية :

بعد هذا الغدر الذى حدث للشعب الفلسطينى على يد بريطانيا وهى الدولة المنتدبة وعلى يد اليهود وعصاباتهم التى حماها الانجليز فى البلاد . اضطرت الدول العربية إلى التدخل فعقدت اللجنة السياسية للجامعة العربية اجتماعا فى دمشق بتاريخ ١٢أبريل ١٩٤٨ ، وتلبية لنداء الرأى العام العربى بحماية شعب فلسطين من غدر العصابات الصهيونية ومؤامرة الدول الاستعمارية واستشعارا بمسئوليتها بوصفها منظمة إقليمية بالمعنى الوارد فى أحكام الفصل الثامن من ميثاق الأمم المتحدة . فوجهت الدول العربية إلى الأمم المتحدة نداء بوضع حل سلمى وعادل للقضية الفلسطينية وفق مبادئ وميثاق الأمم المتحدة .

ولكن اليهود أعلنوا قيام دولتهم اسرائيل فى الخامس عشر من مايو ١٩٤٨ ، وسرعان ما اعترف رئيس الولايات المتحدة الأمريكية (ترومان) بالدولة الوليدة فور إبلاغه بقامها ، ثم تتابعت اعترافات الدول الأخرى بهم وكان من أسبقها أيضا دولة الاتحاد السوفيتى .

فواجهت الدول العربية هذا الوضع بالتدخل عسكريا بجيوشها ، فزحفت جيوش مصر وسوريا والسعودية ولبنان والأردن والعراق واليمن على فلسطين ،

وهى فى صورة متباينه من الرأى والقوة لتحارب جماعات يهودية ، منظمة مسنودة ببريطانيا وأمريكا ، وأعلنت الحكومات العربية الحصار البحرى على فلسطين ، واستقبلت الشعوب العربية نبأ الزحف بحماس بالغ ، وكانت هذه القوات نحو عشرين ألف ينقصها التماسك وإن كان قد تولى قيادتها من الناحية الشكلية (الملك عبد الله) ملك شرق الأردن . وكان رئيس اركانه الجنرال (جلوب) البريطانى ، وبذلك كانت الأوامر العسكرية التى تصدر باسم القائد العام الملك عبد الله إنما يصنعها وينفذها القائد البريطانى فى الجيش العربى . بل إن الحوادث برهنت على أن (جلوب) [١] القائد البريطانى للجيش العربى خان الدول العربية وكان سلوكه يساعد على إنتصار اليهود . فقد سحب قواته من اللدو الرملة التى تضمنها قرار التقسيم ضمن الدولة العربية وتخلى عنهما لليهود وقد ذكر القائد العربى عبد الله التل [١] فى كتابه (كارثة فلسطين) أسماء كثير من ضباط الانجليز كانوا فى مراتب قيادة الالوية والكتائب ، ومن عجب أن تدخل الجيوش العربية معركة مصيرية وجيش القيادة يقوده بريطانيون سعوا للتهويد وعملوا لتقسيم فلسطين .

ولنا أن نتصور النتيجة سلفا لهذه الحرب إنها كانت الهزيمة المؤلمة للعرب الذين كانت قيادتهم فى يد عدوهم .

ذلك لأن بريطانيا أنقذت اليهود بفرض الهدنة بعدما كانت الجيوش العربية تضرب اليهود ضربات فعالة فى كثير من الاماكن وخاصة منطقة القدس. فتقدمت بريطانيا إلى مجلس الأمن تطلب وقف القتال ، ووافق مجلس الأمن وأرسل المجلس مندوبا عنه الكونت (برنادوت) وسيطا من قبل

(١) عبد الله التل ، كارثة فلسطين ص ٨١ ـ ٨٣ .

هيئة الأمم مهمته التوفيق بين العرب واليهود . وقد قامت العصابات الصهيونية بقتل هذا الوسيط الدولى فى ١٧ من سبتمبر ١٩٤٨ .

ومضت اسرائيل فى خلق كيان دولى لها فتقدمت بطلب إلى الامم المتحدة تطلب أن تكون عضوا فى الهيئة الدولية ، وعلى الرغم من اعتراض كثير من الدول الحرة على ذلك إلا أن الدول الاستعمارية ساعدتها وقبلت عضوا فى مايو ١٩٤٩ .

واخيرا أضطرت الدول العربية المواجهة لاسرائيل إلى الدخول فى مفاوضات بعقد هدنة دائمة فى جزيرة رودس وبدأت هذه المفاوضات فى ١٠ يناير ١٩٤٩ وانتهت بعقد اتفاقيات الهدنة بين الدول العربية واسرائيل فى ٢٠ من يوليو ١٩٤٩ ووقعت كل من مصر وسوريا والأردن ولبنان على هذه الهدنة.

وظلت القوات المصرية مسيطرة على قطاع غزة والقوات الأردنية مسيطرة على ضفة الأردن الغربية والقدس العربية . حتى حرب ١٩٦٧ التى انتصرت فيها اسرائيل وضمت هذه المناطق إليها بالاضافة إلى سيناء والجولان وبعض أراضى شرق الأردن .

وفى الفترة من ١٩٦٧ إلى ١٩٧٣م استندت اسرائيل إلى الولايات المتحدة التى تمدها بالسلاح وبالغذاء وتقف معها فى المحافل الدولية ، ومن ثم ضربت اسرائيل قرارات الأمم المتحدة عرض الحائط ، ولم تقبل عودة الاجئيين إلى ديارهم أو الانسحاب من الأراضى العربية .

وقد نجحت مصر وسوريا فى خوض حرب رمضان ١٣٩٣هـ أكتوبر

١٩٧٣ ضد اسرائيل ، وعبرت القوات المصرية قناة السويس إلى سيناء وتمركزت فيها ، واخترقت القوات السورية خط وقف النار وحققت بعض المكاسب . وأدارت مصر وسوريا جولة من المفاوضات مع أمريكا عن طريق وزير خارجيتها كيسنجر اليهودى وتم فيها فك الاشتباك الأول فى مصر وسوريا للفصل بين القوات المتحاربة .

ولكن تمكن هنرى كيسنجر من زرع العداوة بين مصر وسوريا الأمر الذى جعل الأشقاء الذين دخلوا الحرب مع بعضهم يدا واحدة يتفرقون فى معركة ما بعد الحرب وهى معركة المفاوضات . وتمكن الأمريكان من الضغط على الزعامة المصرية لجعلها تمشى فى طريق بعيد عن الاجماع العربى وعقدت مع اسرائيل اتفاقية كامب ديفيد فى ١٩٧٩م وتم إجلاء اسرائيل عن سيناء أما فيما يتعلق بالضفة الغربية والقدس وغزة والجولان فإن اسرائيل ما زالت تماطل بشأن الالتزام بالجلاء عنها .

ودفع السادات حياته ثمنا لهذه الاتفاقية حيث اغتاله ضابط مصرى هو خالد الاسلامبولى سنة ١٩٨١ م .

وفى عام ١٩٩٠ حدثت كارثة احتلال العراق للكويت وتسببت هذه الحادثة فى حرب الخليج الثانية التى مكنت الدول الغربية من اعادة احتلال دول الخليج لحماية النفط وتم فرض الحصار على العراق وتحريك الأقليات به لتمزيق دولته وانفردت الولايات المتحدة بالزعامة فى العالم وتحكمت فى الامم المتحدة وخاصة بعد سقوط الاتحاد السوفيتى سنة ١٩٩٢ م .

الحرب الإيرانية العراقية:

كانت هناك خلافات على الحدود بين العراق وإيران منذ قامت إيران بضم إقليم (عربستان) إليها فى بداية حكم (رضا خان) سنة ١٩٢٥ ، وهى العملية التى قضت بها إيران على إمارة المحمرة المستقلة ، التى كان يحكمها « الشيخ خزعل الكعبى » آخر أمراء بنى كعب ، وتمكنت إيران من ذلك بمعونة بريطانيا ، التى أرادت ألا يكون بترول هذه المنطقة الكثير فى يد عربية، فيكون بترول الخليج العربى كله عربيا ، فدبرت مؤامرة مع (رضا بهلوى) للاستيلاء على هذا الاقليم العربى ، وفى مقابل هذا أعطاها رضا بهلوى ما أرادت من نفوذ داخل إيران ، وكان إقليم عربستان أقرب إلى العراق منه إلى إيران تاريخا ولغة وتقاليد سائدة فى كلا المنطقتين ، كما أنه مكمل لجبهة العراق المطلة على الخليج العربى ، والتى أصبحت العراق بدونه تطل على الخليج بجبهة حوالى ١٣ ميلا غير صالحة لرسو السفن ، أى أن بريطانيا خنقته بذلك العمل أيضا .

وبعد أن استوعبت إيران الإقليم تماما ، بقيت بعض المشاكل على الحدود العراقية الإيرانية معلقة بين البلدين حتى سنة ١٩٧٥ ، وفى تلك السنة وقعت كل من العراق وإيران اتفاقية فى الجزائر وأدت هذه الاتفاقية إلى تسوية أهم مشكلة بالنسبة للعراق ، وهى مشكلة تمرد الأكراد فى شمال العراق والتى كانت إيران وراءها ، فقد كانت تمد الأكراد بالسلاح وتدعم موقفهم الانفصالى عن عرب العراق ، وقدمت العراق لإيران بعض التنازلات فى شط العرب ، لكن الاتفاق كان يتضمن إعادة تخطيط كامل للحدود ، تحصل العراق من خلاله على مائة كيلو متر مربع من الأرض يستقيم بها خط الحدود العراقية ،

وتكونت لجان مشتركة لتحديد المناطق التى ستحصل عليها العراق [1] .

وعندما قامت الثورة الإيرانية بزعامة الخمينى ١٩٧٩م ، توقفت أعمال اللجان فجأة وأحس العراقيون أنهم نفذوا الجزء الخاص بهم فى اتفاقية الجزائر ، ولكن إيران لم تعطهم ما التزمت به ، ومنذ عودة الخمينى من منفاه إلى إيران عام ١٩٧٩م والعلاقات تسوء وتتدهور بين البلدين ، وعلى الرغم من أن العراق بادر بمباركة الثورة الإيرانية رسميا ، فأرسل الرئيس أحمد حسن البكر برقية إلى الخمينى يعلن فيها عن سروره للقضاء على حكم الشاه المتعاون مع الصهيونية ، وأعلن الرئيس العراقى عن سياسة بلاده التى رحبت بالثورة الإيرانية ، التى أبدت تعاطفها مع الثورة الفلسطينية ، وبعد أن جرى الاستفتاء على الدستور الإسلامى فى إيران ، أرسل الرئيس صدام حسين (الذى خلف الرئيس البكر) برقية تهنئة أخرى بمناسبة تصديق الشعب الإيرانى على هذا الدستور ، ولكن رد الخمينى على برقية صدام حسين ، فقدم الشكر للشعب العراقى فى عبارات غامضة ، ثم أنهى البرقية بقوله « والسلام على من اتبع الهدى » [2] ومن المعروف تاريخيا أن هذه العبارة كان يختم بها الرسول عليه الصلاة والسلام رسائله إلى الكفار والمشركين ، عندما كان يدعوهم إلى الإسلام ، وكان معنى ذلك أن الخمينى ينظر إلى صدام حسين باعتباره خارجا عن الإسلام .

وبذلك بدأ التوتر يزداد فى العراق بسبب هذه الروح العدائية ، وصاحب

---

(١) انظر : نص اتفاقية الجزائر سنة ١٩٧٥ فى نشرة صادرة عن « منشورات العالم العربى» فى باريس سنة ١٩٨١ ، بعنوان « الصراع العربى الفارسى » ، الملحق الثانى عشر ، ص ٢٢٩ - ٢٤٦ .

(٢) محمد حسنين هيكل مدافع آيات الله الطبعة الأولى ، دار الشروق بيروت ١٤٠٢هـ ص ٢٦٧م .

هذا بداية عمليات تخريب فى العراق بفعل بعض العملاء الشيعة فى العراق وما أكثرهم ، فاتخذت العراق تدابير حازمة لحماية الدولة من التمزق ، وخاصة أنها مرتع لكثير من الشيعة الإيرانيين فى كربلاء والنجف ، ففى هاتين المدينتين كثير من المدارس ، والمعاهد الإيرانية ، وتوجد بهما كثرة من المدرسين والطلاب الإيرانيين ، ووراءهم أنصار كثيرون من شيعة العراق ، الذين يبلغ عددهم ما يقرب من نصف العراق ، وقامت بترحيل بعض زعماء الشيعة الذين يعيشون فى المناطق الحساسة ، وحملتهم السيارات إلى الحدود الإيرانية وألقت بهم ، وشقوا طريقهم إلى طهران ، وتصاعد التوتر على الحدود ، وصرح أبو الحسن بنى صدر رئيس وزراء إيران بقوله « إذا استمرت الاستفزازات العراقية ، فأنا لا أستطيع أن أمنع جيشى من الزحف على بغداد»[1].

وتلقفت أمريكا هذه المشاكل ، وكانت تواقة إلى الانتقام من إيران الثورة فوجدتها فرصة لتنفيذ خطتها المعروفة بالضرب بيد إسلامية ، وتكون هى غير ظاهرة فى الصورة ، فلعبت دورا كبيرا فى إذكاء الخلاف بين الطرفين، وخاصة أنها قدرت أن مثل هذا الصدام العراقى الإيرانى سيقضى على وفاق عربى إيرانى محتمل بعد تعاون منظمة فتح والفلسطينيين مع الثورة الإيرانية ، ويمزق أى إمكانية لالتقاء عربى إيرانى ،فضلا عن تحالف عربى إيرانى ، يجعل الشرق الأوسط كله منطقة منزوعة النفوذ الأجنبى ، ويطرح إمكانية استخدام موحد للنفط فى مواجهة الاحتكارات العالمية ، ومواجهة السياسة الأمريكية المنحازة لإسرائيل [2].

(١) المرجع السابق ، ص ٢٦٨

(٢) انظر : تحليلا للموقف قبل الحرب ، كتبه الكاتب الصحفى محمد جلال كشك فى مجلة الحوادث اللبنانية ، عدد ١١٨٠ ، بتاريخ ١٩٧٩/٦/١٥، بعنوان « الخليج يحترق فى الشتاء » .

وتصاعدت الاشتباكات على الحدود بين العراق وإيران فى شهرى يوليو وأغسطس عام ١٩٨٠ ، وفى بداية شهر سبتمبر بدأت معارك محدودة جوية وبحرية ، وزادت حشود الطرفين على الحدود ، وفى ١٧ من سبتمبر قام صدام حسين بإعلان من جانب واحد بالغاء اتفاقية الجزائر (١٩٧٥) ، بحجة أن حكام إيران قد أخلوا بالاتفاقية منذ بداية عهدهم .

وفى ٢٢ من سبتمبر عام ١٩٨٠ احتاجت القوات العراقية الحدود الإيرانية فى هجوم كاسح على إيران ، وتحركت القوات الجوية العراقية وأغارت على عشر قواعد عسكرية وجوية فى عمق الأراضى الايرانية ، وعطلت مدارجها ، وشلت العديد من هذه المواقع ، وكان أهمها مطار كرمنشاه العسكرى ، وقاعدة همدان الجوية ، وقاعدة طهران الجوية ، وقاعدة أصفهان ، ومطار الأحواز ، وقاعدة شيراز ، وقاعدة تبريز .

وقامت الطائرات الإيرانية بغارات على البصرة وبغداد ونينوى وواسط فى الأراضى العراقية ، ووجهت السلطات الإيرانية تحذيرا إلى دول الخليج من أى هجوم برى أو بحرى أو جوى ينطلق من موانيها ضد الأراضى الإيرانية ، ولهذا التحذير الإيرانى مغزاه ، لأن إيران تدرك أن العراق سيحتاج أثناء الحرب إلى الارتكاز فى بعض الموانى الكويتية ، وخاصة حول جزيرة (بوبيان) الكويتية التى تقع فى خليج الكويت ، لأن العراق كما سبق أن أوضحنا ليس لديه موانى فى الخليج صالحة لرسو السفن .

وتطورت الحرب ، فاتجهت لتخريب أماكن صناعة البترول فى كلا البلدين وفى الأيام الأولى تمكنت العراق من التغلغل فى داخل الأراضى الإيرانية وعزلت مدينة المحمرة ، ودمرت قسماً من مصافى « عبدان » البترولية فى القسم الجنوبى من الجبهة ، وحقق العراق بذلك أهدافا عسكرية داخل

الأراضى الإيرانية ، وهددت إيران بإغلاق مضيق هرمز ، وتفجير منافذه ، فأخذت الحرب أبعادا دولية ، وشعرت الدول الصناعية الكبرى فى العالم ، أن اقتصادها أصبح مهددا أمام التهديدات الإيرانية ، وذلك لأن مصانعها تعتمد على البترول الذى يرد إليها من الخليج عن طريق مضيق هرمز .

ونتج عن هذه الحرب إيقاف تصدير النفط الإيرانى ، وتأزمت الأوضاع الاقتصادية فى إيران ، وكانت العراق تود أن يكون هذا باعثا لإيران على طلب المفاوضات لتسوية الخلافات ، ولكن ذلك لم يحدث ، وتطورت الحرب تطورا مفزعا ، حيث أقدمت كلا البلدين على تدمير كل ما يمكن تدميره فى داخل الأراضى العراقية والإيرانية ، دون تمييز للأهداف المدنية من العسكرية، واريقت دماء إسلامية بسبب العناد الإيرانى .وتمادى الإيرانيون فى رفض الصلح الذى طلبه صدام حسين أكثر من مرة ولعبت الدول الكبرى دورا خبيثا فى مجال إذكاء وإشعال نار الحرب لكى تقضى على قوة الدولتين الإسلاميتين، واعتبر الإيرانيون بعد فترة أن الحرب كانت لازمة لهم لتوحيد الجبهة الداخلية فى إيران بعد الثورة ، حيث كان الصراع داخل إيران على أشده ، فجاءت الحرب مع العراق فوحدت كل هؤلاء ضد العدو الخارجى ، وتطهر الجيش الإيرانى ، على حد تعبير آيات الله فى إيران ، ولكن نسى هؤلاء أن الدم الإسلامى يراق ، وإذا التقى سيفان فى الاسلام فالقاتل والمقتول فى النار ، وأن هذه الحرب تعمق الحقد والكراهية بين الشعوب الإسلامية .

وتقدمت إسرائيل على الرغم من جرحهما الذى ما زال ينزف من إيران الثورة ، تقدمت إلى مساندة إيران فى الحرب ، لإضعاف العرب والمسلمين عموما ، فأمدت إيران بالمعدات العسكرية ، التى أضحت إيران فى حاجة ماسة إليها من أى مكان ، لأن نار الحرب أحرقت كل مخزونها من السلاح ،

تلك الحرب التى استمرت حوالى تسع سنوات ، وقامت الطائرات الإسرائيلية بالهجوم على المفاعل النووى العراقى ، الذى تقدم العراق عن طريقه فى مجال الأبحاث النووية ، وتم ذلك فى سنة ١٩٨١ .

ويدأ الخمينى يوجه رسائله إلى الشعب العراقى ، يطالبه فيها بالاطاحة بحكومة صدام حسين ، ودعا الجيش العراقى إلى توجيه أسلحته إلى صدور قادته ، وإسقاط النظام الحاكم فى بغداد ، وبدأت إيران تتلقى أسلحة من كثير من المصادر الروسيةوالأمريكية والفرنسية وغيرها من المصادر ، والهدف واضح من هؤلاء جميعا ، ليس لصالح العالم الإسلامى ، وإنما لتدمير البلدين ، وتنفست أمريكا الصعداء ، واعتلاها ارتياح لما أصاب إيران والعراق على السواء ، على الرغم من النفاق الأمريكى المعهود ، والإعلانات التليفزيونية بأنها على الحياد .

وفشلت جهود الوساطة الإسلامية ، التى أنبثقت من مؤتمر القمة الإسلامى بمكة المكرمة سنة ١٤٠١هـ (١٩٨١م) ، فقد كون المؤتمر لجنة إسلامية برئاسة الرئيس الغينى (أحمد سيكوتورى) ، لحل النزاع بالطريق السلمية ، وبدأت اللجنة مباشرة مهامها بعد فض المؤتمر مباشرة ، وأصدرت اللجنة بعدما قامت بالمفاوضات مع الطرفيين بيانا حول مقترحاتها لتحقيق الحل السلمى الشامل للنزاع فى مارس عام ١٩٨١ ، ويقضى باقتراح وقف إطلاق النار بين الطرفين فى ١٣ مارس عام ١٩٨١ ، وتقوم لجنة عسكرية إسلامية للإشراف على وقف إطلاق النار ، على أساس إعلان كل من العراق وإيران احترام السيادة الوطنية لكل منهما ، وعدم جواز الاستيلاء على الأراضى بالقوة وعدم تدخل كل منهما فى شئون الآخر الداخلية ، وتسوية الخلاف

بالطرق السلمية (١) .

ومع ذلك لم تلتزم إيران بوقف إطلاق النار ، بينما التزمت به العراق لفترة ثم بدأت ترد على إطلاق النار بإطلاق مثله ، وكل يوم تزداد الخسائر بين القطرين المسلمين ، ويتحسر العقلاء أسى وأسفا على هذه الحرب المحرمة ، وعلى هذه القدرات التى تهدر فى ساحات الحرب ، وكان من الأجدر توفيرها لحاجة المسلمين فى صراعهم ضد أعدائهم المتربصين .

وقف الحرب الإيرانية العراقية :

انتهت الحرب الإيرانية العراقية فجأة عام ١٩٨٨ ، عندما اقتنع « آية الله الخمينى » أن استمرارها لم يعد ممكنا ، بسبب استنزافها لموارد بلده المالية والبشرية ، وقال : « آية الله الخمينى » فى كلمة قصيرة حزينة لشعبه ، قال فيها « إنه كان أهون عليه أن يتجرع كأسا من السم ولا يقبل بوقف إطلاق النار ولكنه الآن يقبله »(٢) .

وأدى الانهيار المفاجئ لإيران ، إلى مشاعر متناقضة فى بغداد ، وبشكل ما فإن العراق أحس بالفراغ المباشر ، نتيجة لتوقف حرب شغلته واستغرقته بالكامل سياسيا وعسكريا واقتصاديا ونفسيا ، وبتوقف المعارك بدأت قوة العراق تواجه نوعا من البطالة ، قريب الشبه بالفراغ الذى دهم القوات المسلحة الأمريكية بعد سقوط التهديد السوفيتى .

حرب الخليج الثانية :

وعقب ذلك حاول « صدام حسين » أن يستثمر انتصاره ، بعلاقات

---

(١) انظر : نص بيان لجنة المساعى الحميدة ، المنشور فى جريدة عكاظ السعودية بتاريخ ٣٠ من ربيع الآخر ١٤٠١ هـ / ٦ من مارس ١٩٨١ .

(٢) محمد حسنين هيكل ، حرب الخليج ص ٢٢٥ ـ ٢٢٨ .

طية مع الولايات المتحدة الأمريكية ، ولكن الإعلام الأمريكى لم يعطه الفرصة ، وبدأ فى سنة ١٩٩٠ يركز على خطورة صدام حسين العسكرية ، وقوته التى خرج بها بعد انتصاره على إيران ، واشتركت إسرائيل فى الهجوم عليه ، وبدأت تهدد العراق بضربة أخرى وقائية ، إذا أحست أنه اقترب من إنتاج أسلحة نووية ، ورد صدام حسين على إسرائيل بخطابه المشهور ، الذى قال فيه « أننا سنرد على إسرائيل ، إذا استعملت ضدنا أسلحة نووية » ، ثم أقسم بعد ذلك فى خطابه أنه « إذا تعرض العراق لهجوم نووى إسرائيلى ، فإنه سوف يستعمل أسلحة متطورة تحرق بالنار نصف إسرائيل » (١).

ودخلت العراق فى خلاف مع الكويت ، بسبب حصص البترول واتهمت الكويت بأنه السبب فى انخفاض أسعار البترول ، وأن ذلك يضر بالعراق ، وتحركت أطماع العراق القديمة فى الكويت ، وتحرشت القوات العراقية بها ، وشاركت السفيرة الأمريكية فى إغرائه باحتلال الكويت ، قائلة بأن أمريكا لا تتدخل فى نزاعات بين العرب ، وفى الثانى من أغسطس عام ١٩٩٠ احتل العراق الكويت ، وادعى بأنها جزء من بلاده ، وأطلق عليها المحافظة رقم ٩١ من بلاده ، وثار العرب فى الخليج والعالم العربى ، وأهم من ذلك ثارت أمريكا ، ولم تقبل أن يكون في يد صدام ثلث بترول الخليج ، يتحكم فيه ويهدد الباقى .

وتم إرسال قوات أمريكية إلى الخليج ، بطلب من الكويت والسعودية ومعها قوات فرنسية وانجليزية ثم عربية ، مصرية وسورية وخليجية ، وبعض الدول الإسلامية ، وظهرت قوة أمريكا فى السيطرة على الأمم المتحدة ، بعد ضعف الاتحاد السوفيتى ، الذى أصبح يستجدى المعونات من أمريكا لإطعام

---

(١) المرجع السابق ص ٢٤١ .

الجوعى فى روسيا وغيرها من الدول التى أفقرتها الشيوعية .

ويدأ العراق يشعر بأنه محاصر بقوى معادية ، وأغلقت فى وجهه كل السبل ففكر فى اللجوء إلى إيران فى أزمته ، رغم ما جرى بين البلدين من حرب فى عقد الثمانينات ، قضت على الأخضر واليابس ، فأعلن « صدام حسين » فجأة استجابته من طرف واحد لكل طلبات إيران ، وبعث إلى طهران برسل على مستوى عال ، بينهم السيد « طارق عزيز » وأبدى الإيرانيون استعدادا للتعامل مع الموقف بمرونه ، على الرغم من تحرك أطراف عربية ودولية ضد هذا التقارب ، ومنها سوريا .

والذى دفع العراق إلى ذلك هو الحصار البحرى والجوى ، الذى أحاط به بطوق من الفولاذ إلى حد يجلب شعورا بالاختناق ، وبذلك كسبت إيران من العراق كل ما كانت تود أن تأخذه ، الأمر الذى جعل الناس يقولون : ولماذا كانت تلك الحرب المهلكة طوال ثمان سنوات ؟

ووقعت الحرب ولم تستفد العراق من هذا التنازل الضخم شيئا ، بل على العكس خسرت حوالى ١٣٥ طائرة لجأت اضطراريا إلى الهبوط فى إيران، ولم تعترف إيران منها سوى بحوالى ٢٣ طائرة ، قالت أنها جزء من تعويضات الحرب .

وتحطمت قوة العراق العسكرية ، وضربت قوات التحالف كل منشآته ، وأراد الأمريكان فى النهاية تقسيم العراق ، إلى ثلاث دول : دولة كردية فى الشمال ، ودولة شيعية فى الجنوب ، وثالثة سنية حول بغداد ، وكانت إيران جاهزة لتشجيع إخوانها الشيعة فى جنوب العراق ، وظهرت حكومة مؤقتة شيعية ، مقرها طهران بقيادة السيد « محمد باقر الحكيم » [١] .

---

(١) المرجع السابق ، ص٥٧٣ ـ ٥٧٤ .

وفوجئت السعودية التى تعد هى الأخرى لحكومة مؤقتة للعراق ، أعدتها وحرصت على طابعها السنى ، وكانت المفاجأة قاسية للسعودية التى تخشى من الشيعة ، لأنهم يتمركزون بالدرجة الأولى فى شريط يمتد من جنوب العراق إلى جنوب شبه الجزيرة العربية ، ويرى البعض بأنهم قاموا بأدوار بارزة فى تاريخ الحركة القومية العربية ، لكن بعض المؤسسات الرسمية للفكر السنى ، لم تستطع فى كثير من الأحيان تقدير هذا الدور ، وقد راحت هذه المؤسسات تخلط مرات كثيرة ، مفترضة وجود خلافات أعمق بين المذاهب الإسلامية وبدلا من أن تحاول مؤسسات السنة الواثقة من نفسها ، بحكم أغلبيتها الساحقة فى العالم العربى ، تقريب الخلافات بين المذاهب ، فإنها ـ واعية أو غير واعية ـ راحت تزيد الفجوة ، غير مدركة أنها بذلك تفتح ثغرات لا داعى لها فى الجسم العربى [1] .

وفى مارس عام ١٩٩١ ، والسعودية لا تخفى سعادتها بما حدث للعراق، جاءت يقظتها المفزعة من هذه السعادة بمخاوفها من أن الشيعة على وشك الاستيلاء على السلطة فى العراق ، وأن الخطر الشيعى أصبح العدد رقم واحد حتى بعد « صدام حسين » ، وأنه إذا نجح الشيعة فى الجنوب واستولوا على بغداد ، أو إذا أقاموا دولة لهم فى الجنوب فقط ، فإن المد الشيعى سوف يصل من هناك إلى الكويت وإلى البحرين ، ويندفع إلى المنطقة الشرقية للسعودية ، وبالذات منطقة القطيف وعاصمتها « الظهران » ، عاصمة البترول السعودى ، ولذا فالامر جد خطير .

ولكن الجيش العراقى ، الذى عاد من معركة الكويت خاسرا يلعق جراحه ، اندفع إلى الجنوب الشيعى والشمال الكردى ، الذى كانت تعد فيه مؤامرة شبيهة بمؤامرة الجنوب ضد العراق ، وجرت معارك شرسة غير متكافئة

(١) المرجع السابق ، ص٥٧٤ .

استطاع بها الجيش العراقى أن يستعيد السيطرة على الشمال والجنوب ، وتخلت الأطراف الخارجية عن معاونة الشيعة فى الجنوب والأكراد فى الشمال، خوفا من عواقب الأمور المرتقبة ، والنتائج المزعجة من إقامة دولة شيعية فى الجنوب أو كردية فى الشمال .واكتفت الولايات المتحدة الأمريكية وحلفائها بتشديد الحصار الاقتصادى والعسكرى على العراق ، وملاحقته بتدمير إمكانياته العسكرية الباقية بعد أن أصبح مجلس الأمن أداة طيعة فى يدها،وعدم وجود قوة موازنة تقف أمام جبروت أمريكا .

المحصلة النهائية:

والمحصلة النهائية ، أن الحرب التى أثارتها العراق ، ومن ورائها أمريكا والغرب ، ومدعمة من دول البترول ضد إيران ، قد دعمت من قوة الثورة الإسلامية فى إيران ، على مدى ثمان سنوات ، وأعطت رجال الثورة القوة ، بأن يضربوا معارضيهم فى إيران بيد من حديد ، لأنه لا صوت يعلو على صوت المعركة مع أعداء الوطن ، حتى أن ابن شاه إيران المخلوع عرض على الخمينى أن يأتى إلى وطنه من المنفى ، لكى يحارب ضد أعداء الوطن .

وهكذا فإن الفرصة أعطيت للثورة الإسلامية ، لكى تتمكن من السلطة وتقود الوطن ، والذى أعطاها هذه الفرصة هم أعداؤها ، وذلك مثل الفرصة التى أعطيت للثورة الفرنسية فى أوربا ، عندما تحرش بها أعداؤها فى أوربا ، وأثاروا حربا أوربية ضدها ، فانتشرت مبادئ الثورة الفرنسية فى أوربا كلها .

ومثل هذا حدث للثورة الإسلامية فى إيران ، فإن مبادئها انتشرت بقوة فى المنطقة العربية والبلاد الإسلامية ، وكانت مبادؤها تنتشر بقوة فى دول الجوار ، وعلى الأخص أفغانستان وباكستان وطاجيكستان ، ومن ثم فإننا سنشهد نضالا قويا ضد الاتحاد السوفيتى فى أفغانستان ، ستكون له نتائج ضخمة ، ليس فى أفغانستان وحدها ، وإنما فى الاتحاد السوفيتى نفسه ، وفى البلاد الاسلامية ، والعربية وغير العربية .

الباب الثانى

اليقظة الإسلامية فى أفريقيا

الفصل السادس

المسلمون فى شمال أفريقيا

ترتبط اليقظة الإسلامية فى شمال وغرب أفريقيا بالطرق الصوفية التى قادت حركة الإصلاح . مثل السنوسية والقادرية والتيجانية فى غرب ووسط أفريقيا .

امتدت اليقظة الإسلامية إلى وسط وغرب أفريقيا تماما كما قامت فى أكثر أقطار العالم الإسلامى أثناء القرن ١٩ محاولات مخلصة لإيقاظ المسلمين من رقدتهم وإصلاح عقائدهم وما كانت بلدان غرب أفريقيا أن تبقى بعيدة عن التفاعل فى البلدان الإسلامية الأخرى ، فقد كانت صلاتها بالعالم الاسلامى صلات وثيقة عن طريق الحج إلى بيت الله الحرام كل عام والدراسة فى الحرمين الشريفين وعن طريق إرسال المبعوثين لدراسة العلوم الإسلامية فى الأزهر الذى كان به أروقة لكل جنسية من الأجناس الأفريقية مثل أروقة :

١. **رواق المغاربة**: للطلبة الوافدين من ليبيا وتونس والجزائر والمغرب .

٢. **رواق البرنو**: وهو للطلبة الوفدين من دول السودان فى وسط أفريقيا من تشاد ومالى والسنغال والنيجر وغينيا وساحل الذهب وغانة .

٣. **رواق الجبرتية**: للوافدين من الحبشة وأرتيريا والصومال الذى ينتسب إليه المؤرخ المشهور عبد الرحمن الجبرتى والذى أرتحل جده السابع إلى مصر فى مطلع القرن العاشر الهجرى وجاور بالأزهر واستوطنت أسرته مصر .

٤. **رواق الدكارنة**: للطلبة الوافدين من بلاد التكروروسنار ودارفور ووسط أفريقيا بصفة عامة .

٥ ـ **رواق دكارنة صليح:** للطلبة الوافدين من تشاد ووسط أفريقيا .

٦. **رواق السنارية:** للطلبة الوافدين من إقليم سنار بالسودان .

وكان العائدون من الدراسة بالحرمين الشريفين والأزهر يقومون بحركات إصلاحية في أفريقيا تدعو إلى العودة بالإسلام إلى ماضيه المشرق ، وهداية الوثنيين الذين لم تعمر قلوبهم بالدين الحنيف ، وقاموا بحركات إصلاحية فى ظل الطرق الصوفية المنتشرة فى شمال وغرب ووسط إفريقيا وهى السنوسية والقادرية والتيجانية والمهدية .

١. **فالسنوسية :** صاحبها ومؤسسها السيد (محمد بن على السنوسى) الأدريسى ، وهو من سلالة ملوك الأدارسة الذين أسسوا الدولة الإدريسية بالمغرب (١٧٨٧ ـ ١٨٥٩م) ١٢٠٢ ـ ١٢٧٦هـ وكانت حركته تقوم على الدعوة الإسلامية المترتبطة بالعمل والإنتاج وأنشأ الزوايا فى الصحراء الليبية فى واحة الجغبوب وغيرها ودعا إلى الجهاد فى سبيل الله ضد أعداء الإسلام وحرم زيارة الأولياء والتدخين . وجال فى الصحراء إلى الجنوب من الجزائر يعظ الناس ثم زار تونس وطرابلس وبرقة ومصر والحجاز ومكة ، ثم رحل إلى برقة (١٢٥٥هـ) وأقام فى الجبل الأخضر فبنى « الزاوية البيضاء » وكثر تلاميذه وانتشرت طريقته ، وانتقل إلى واحة جغبوب إلى أن توفى بها سنة ١٢٧٦هـ (١٨٥٩هـ) [١] .

وتولى الدعوة بعده أبناؤه وأحفاده وأنشئت الزوايا السنوسية فى طرابلس وبرقة ودارفور بالسودان والنيجر . وكان عدد الزوايا التى أنشئت فى حياته ٢٢ زاوية ، وفى حياة ابنه السيد محمد المهدى حتى عام ١٨٨٤م نحو ١٠٠ زاوية فى ليبيا ومصر والمغرب ومالى وتشاد وأواسط أفريقيا .

(١) الأعلام ، جـ٦ ص ٢٩٩ .

وكانت العلاقة طيبة جدا بين الخليفة العثمانى والسنوسية واعترفت الدولة العثمانية عن طريق ولاتها بالزعامة السنوسية ومنح الباب العالى السنوسيين فرمانات سلطانية أعفتهم من الأموال الأميرية ونال السيد محمد ابن على السنوسى الكبير من السلطان العثمانى سنة ١٨٥٥ فرمانا جعله بمثابة الأمير المستقل[١] وبهذا تختلف الحركة السنوسية عن الحركة الوهابية بأنها لم تتصادم مع الدولة العثمانية .

غير أن الدولة العثمانية نظرت إليه بعين الريبة والخوف بعد ذلك واضحت تخشى أمره فنقل مقره إلى واحة (جغبوب) فى جنوب الصحراء الليبية ، ونتج عن هذا التوغل فى الجنوب أن أصبح له نفوذ فى قلب إفريقيا فى الدول الزنجية عن طريق رسله ومبعوثية ، ولما وافته منيته فى عام ١٢٧٦هـ (١٨٥٩م) كانت الطريقة السنوسية التى أنشأها قد انتشرت فى معظم الشمال الأفريقى وتوغلت فى قلب أفريقيا .

وخلفه فى تزعم الدعوة ابنه (محمد المهدى) الذى واصل تدعيم حركة والده وتوفى سنة ١٩٠٢م (١٣٢٠هـ) وخلفه ابن أخيه (أحمد الشريف) فزادت السنوسية إنتشارا فى عهده ، وعندما قامت إيطاليا بإحتلال ليبيا فى عالم ١٩١١ تزعمت الحركة السنوسية النضال ضد الاستعمار الإيطالى.

والواقع أن الطريقة السنوسية قد دربت أتباعها على حياة العمل المنتج بأكثر مما دربتهم على حياة التأمل الصوفى ، فكان على رأس كل زاوية من الزوايا السنوسية (مقدم) وفوق المقدم (وكيل) وظيفتة كوظيفة الحاكم المدنى وكلا من المقدم والوكيل ذو سلطة كبيرة على أهل الزاوية جميعا

---

(١) لوثرب ، حاضر العالم الإسلامى، جـ١ ، م١ ص ٢٩٨ .

والقبيلة كافة ، فالأمر الذى يصدره أحدهما مقرونا بإسم السيد السنوسى إنما هو أمر واجب الطاعة على الجميع حتى قال بعض المؤرخين فى هذا :

«وفى الواقع إن وراء الحكومات الغربية الاستعمارية فى شمال أفريقيا من إنجليزية وفرنسية وإيطالية (حكومة سنوسية) شديدة المراس قوية الشكيمة وهى عزة الجانب بحيث لا تجرؤ إحدى هذه الحكومات الاستعمارية المذكورة على مس جانبها فى أمر من الأمور ، أو إحراجها فى شأن من الشئون ولذلك اتبعوا سياسة الحذر واللين إزاءها على الدوام»[1].

والواقع أن الزاوية السنوسية كانت مركزا للحياة الدينية والإجتماعية والإقتصادية فى المجتمع السنوسى فيقول المؤرخ شكيب أرسلان عنها :

«الزاوية فيها (مقدم) هو القيم عليها ، وهو الذى يتولى أمور القبيلة ويفصل الخصومات بينها ويبلغ الأوامر الصادرة من السيد السنوسى ، ويليه (وكيل) الدخل والخرج) ، إليه النظر فى زراعة الأراضى وجميع الأمور الإقتصادية ، ومن عادتهم أن على كل فرد من أفراد القبيلة أن يتبرع بحراثة يوم وحصاد يوم ودراسة يوم فى أرض الزاوية ويعلم أطفال القبيلة القراءة والكتابة ، ويعقد فى القبيلة عقود النكاح ويصلى على الجنائز .. الخ والزاويا السنوسية هى الملاجئ الوحيدة فى الصحراء للمسافرين والواردين ، والشاردين ولا يوجد هناك مساكن مبنية بالحجر غيرها . وإن لكل قبيلة زاوية هى مرجعها فى الدين والدنيا ، وإذا تعددت فروع القبيلة كالعبيدات مثلا (فلكل فخذ منها زاوية) . وإن الغريب أو السائل أو الفقير المعتر ينزل بزاوية من هذه الزاويا فيقيم ما يشاء ويتضيف ما يشاء ولا يسأله أحد عن شئ وأغلب هذه الزوايا مختار لها أجمل البقاع وأخصب الأرضين ..

---

(١) لوثروب ـ حاضر العالم الإسلامى ، جزء أول ، المجلد الأول ص ٢٩٨ .

وأينما حل السنوسية عمروا وأثمروا ووجدت الأرض اهتزت وربت وانبتت من كل زوج بهيج ، وقل إن مررت بزاوية ليس لها بستان أو بساتين فيها من كل أنواع الفواكه والثمار وأصناف البقول والخضرة يزيد قيمتها مصادفة الإنسان لها فى تلك البقاع القاصية عن العمران المحفوفة بالفلوات[1] .

والسنوسيون جادون فى إعداد أنفسهم بكل ما يسطيعون من الوسائل الكفيلة بإصلاح المجتمع دينيا وتهذيب نفوسهم وتربية خلقهم ، وخطتهم بعد إكمال هذه التربية التى أخذوا أنفسهم بها وجاهدوا فى سبيلها إنما هى افتتاح جميع البلاد الأفريقية ثم سائر الأقطار الإسلامية بعد ذلك وحفل العالم الإسلامى من أقصاه إلى أقصاه مملكة واحدة على رأسها خليفة واحد .

على أن السنوسى موقن حق الإيقان أن تحرر المسلمين التحرر السياسى من ربقة السيطرة الغربية النصرانية يجب أن يسبقه إنتشار التجدد الروحانى والدعوة الأخلاقية فى المسلمين فلهذا هو لا يفتأ يجاهد نحو إدراك هذه الغاية بتهذيب أخلاق رعيته وترقيتها وتنقية نفوسها بالتربية الصحيحة وتنشئتها على الفضائل الإسلامية العليا ، ولم يقتصر الأمر على هذا فحسب بل يجد أيضا فى النواحى الإقتصادية من أجل تحسين أسباب معيشته وتوفير وسائل الكسب فكثرت بذلك فلاحة الواحات الخصبة ونمت الزراعة وحفرت الآبار الحديثة وبنيت المنازل على طرق القوافل وشرع فى تنشيط التجارة .

ولا غرابة فى هذا السلوك فقد كان الإسلام على الدوام هو دين الهداية والأخلاق والعمل الدؤوب المنتج .

ويلاحظ أن الحركة السنوسية قد خلخلت النظام القبلى وجعلت للقبائل

---

(١) شكيب أرسلان ، من حواش وزيادات فى كتاب حاضر العالم الإسلامى ، مرجع سابق ، الجزء الأول ، المجلد الأول ٢٩٧ ـ ٢٩٨ حاشية رقم (٤) .

كلها دعوة مشتركة ومثلها فى ذلك (مثل الحركة الوهابية فى الجزيرة العربية) فأضعفت بذلك الروح القبلية وأحلت محلها روح الجماعة والدعوة السنوسية العالمية النظرة .

والدول الإستعمارية فى شمال أفريقيا (انجلترا وفرنسا وايطاليا) كانت تخشى سلطان السنوسيين لأن لهم حكومة شديدة المراس قوية الشكيمة ، وكانت من عزة الجانب بحيث لا تجسر إحدى هذه الحكومات الاستعمارية المذكورة على مس جانبها فى أمر من الأمور ، أو إحراجها فى شأن من الشئون وكانوا يتبعون نحوها سياسة تتسم بالحذر واللين على الدوام .

الحيطة والحذر لدى السنوسيين :

على الرغم مما حققته السنوسية من انتشار وكثرة الاتباع وخاصة فى شمال افريقيا وفى جوف الصحراء الكبرى الذين كانوا أسيادها بحق ولا يجرؤ أحد على اجتيازها إلا بإذنهم ، على الرغم من ذلك أنهم كانوا على جانب كبير من الحيطة والحذر وعدم الاندفاع فى مجابهة القوى الكبرى كما فعل غيرهم مثل المهدى فى السودان .

فما ركبت الحركة يوما مركبا خشنا ، أو سلكت مسلكا وعرا فيه شئ من الخطر على كيانها السياسى (وفى جميع الثورات التى هبت فى أقطار شمال افريقيا العديدة كان السنوسيون المقيمون بنواحى البلاد يشتركون فى القتال يشدون أزر الثائرين كما حدث فى الحرب الإيطالية فى طرابلس الغرب وفى الحرب العالمية (الاولى) ولكن الطريقة السنوسية نفسها كانت تجتنب الحرب جهدها إيجابا وسلبيا على أتم قدر [1] .

(١) المرجع السابق ، ص ٢٩٧ ـ ٢٩٨ .

موقف الغرب من الدعوة السنوسية :

يذكر الدكتور محمد فؤاد شكرى بعض الكتب التى ظهرت فى فرنسا تحذر من خطر السنوسية والاسلام ومنها كتاب ضخم بعنوان :

(الأستيلاء على الدنيا) يحذر صاحبه قارئيه من الحركة الإسلامية ويذكر خصوصا تاريخ السيد محمد بن على السنوسى مؤسس السنوسية ثم يصف السنوسية بأنها حركة نهضة وبعث غرضها إخراج الأجانب المستعمرين من أفريقيا ، وهى حركة قد تأصلت جذورها قبل السنوسية فلا يلبث العرب فى أفريقيا الشمالية أن يتحدوا مع أهل مصر ، ثم مع سوريا بعد اجتياز قناة السويس ، ويدخل الجميع تركيا فتنضم هذه اليهم ولا يوقف الزحف الإسلامى فى أوربا شئ حتى يصل الزاحفون إلى باريس ويحاصرونها ، وعندئذ لا يستطيع الفرنسيون صد هذا السيل المتدفق عليهم وانقاذ عاصمتهم . وتتكون إمبراطورية إسلامية كبيرة تقضى على حكومات الغرب [1].

ولما بدأ الفرنسيون فى بسط سيطرتهم الاستعمارية على السودان الغربى اصطدموا بالسنوسيين ونشب بينهم الصراع الذى استمر طيلة حياة المهدى ولما مات الأمام (محمد بن على السنوسى) كان ابنه السيد محمد إدريس قاصرا فقد كان من مواليد ١٣ من مارس عام ١٨٩٠م فعهد بزعامة الطريقة السنوسية إلى أخية السيد أحمد بالنيابة وقاد أحمد النضال ضد الفرنسيين وضد الطليان حينما غزوا ليبيا وأحتلوها سنة ١٩١٢م ثم تخلى عن الزعامة للسيد (محمد إدريس) حينما أصبح راشدا فقاد (محمد إدريس) النضال ضد الطليان الذين مالوا إلى التساهل الظاهرى معه فأعترفوا بإمامته غير أنهم لم يلبثوا أن نقضوا عهدهم معه سنة ١٩٣٣م فعاد النضال ثانية وتعرض أهل البلاد والسنوسيون لضربات شديدة منهم وأبلى هؤلاء بلاء عظيما فى الجهاد ، وقد اضطر الامام محمد أدريس إلى مصر وادارة النضال منها وكان يشتد حينا ويخف حينا وتولى السيد (عمر المختار) قيادة الحرب الوطنية بعد انسحاب

(١) محمد فؤاد شكرى ، ميلاد دولة ليبيا الحديثة ، الجزء الأول المجلد الثانى ص ٤٢٥

محمد إدريس السنوسى إلى مصر والسيد عمر المختار من شرقى الجبل الأخضر وكان قد أظهر من النجابة فى العلم والشهامة فى الحرب ما جعله الشخصية الرئيسية فى الحركة الوطنية واليقظة الإسلامية فى شمال أفريقيا ضد الاستعمار الإيطالى ، ولقد لجأ الإيطاليون إلى أقصى الأساليب فى الحرب الليبية وتمكنوا من القضاء على المقاومة وألغو الزوايا وأغلقوا المدارس ، وجعلوا اللغة الإيطالية هى اللغة الرسمية فى البلاد قرروا تدريسها فى المدارس ولم يبقوا فى ليبيا إلا ٥٦ مدرسة إبتدائية و ٤٤ مدرسة إيطالية وجلب الإيطاليون آلاف الإيطاليين من جنوب إيطاليا وصقلية للإستيطان فى ليبيا لأن (موسولينى) قرر أن تكون ليبيا امتدادا للوطن الإيطالى وأدخل على المدن الليبية إصلاحات جعلتها أشبه بالمدن الإيطالية وذاعت اللغة الإيطالية على كل لسان فى ليبيا واستشهد السيد (عمر المختار) بعد وقوعه فى الأسر وقد حوكم المختار محاكمة صورية حكم عليه فى نهايتها بالأعدام ، وتم تنفيذ الحكم فيه شنقا فى الساعة التاسعة من صباح الأربعاء الموافق الرابع من جمادى الأولى سنة ١٣٥٠ هـ(١٦ سبتمبر ١٩٣١م) فى مدينة سلوق فى إقليم بنغازى [١] . إلى أن نشبت الحرب العالمية الثانية التى دخلها الطليان إلى جانب الألمان واتصل الإمام (محمد إدريس) بالانجليز واتفق معهم على التضامن فى الحرب ضد الإيطاليين مقابل إعترافهم باستقلال ليبيا بزعامته بعد الحرب ، ولقد أبلى المجاهدون الليبيون والسنوسيون فى طليعتهم فى الحرب بلاء عظيما وانفصل آلاف من المجندين الليبين الذين كانوا فى جيوش الإيطاليين انفصلوا عنهم وانحازوا إلى المجاهدين فكان هذا وذاك من أسباب انهيار المقاومة الإيطالية والالمانية فى جبهة شمال أفريقيا .

وحينما وضعت الحرب أوزارها هب الأمام ورجاله للمطالبة بإنجاز الوعد وإعلان الاستقلال وناصرتهم الدول العربية والاسلامية فى نطاق هيئة الأمم المتحدة حتى تحقق مطلبهم فى الاستقلال سنة ١٩٥٠م ورغم الاعيب الإنجليز الذين حاولوا نقض وعودهم وإبقاء ليبيا تحت استعمارهم تقرر إعلان

(١) د. حسين مؤنس ، أطلس تاريخ الإسلام ، ص ٤٣٦ .

ليبيا دولة مستقلة ذات سيادة فى آخر عام ١٩٥١م وفى نفس السنة تم إعلان السيد (محمد إدريس) ملكا على ليبيا التى سميت (المملكة الليبية المتحدة) لأنها تألفت من ثلاث مناطق (برقة) و (طرابلس الغرب) و (فزان) وذلك وفق دستور وضعته جمعية تأسيسية أى أنها مملكة دستورية منذ أول سنة ١٩٥٢م (١) .

وبعد اتمام عملية نقل السلطان وصدور الأمر الملكى البريطانى بإنهاء سلطة ملك بريطانيا فى إقليمى طرابلس وبرقة والإعلان الصادر فى فزان بإلغاء جميع السلطات التى كانت للجمهورية الفرنسية فى ذلك الإقليم أعلن الملك إدريس الأول بصفة رسمية فى قصر (المنار) بطرابلس أن ليبيا أصبحت دولة مستقلة ذات سيادة وأنه سيحكم البلاد بطريقة دستورية وأصبحت ليبيا دولة من أعضاء هيئة الأمم المتحدة وتقدمت بعضويتها مجلس الجامعة العربية (٢) .

وكان مما يعكر صفو هذا الاستقلال وجود قواعد عسكرية إنجليزية وأمريكية وفرنسية فى بعض أنحاء هذه المملكة الساحلية والداخلية استمرارالما كان عليه الأمر قبل الإستقلال ولقد أمكن إزالة الوجود الفرنسى مبكرا أما الوجود الأمريكى والانجليزى فإنه استمر بسبب رضوخ وسكوت الملك وحكوماته المتعاقبة ولذلك نشأت حركة وطنية فى الجيش وعملت تنظيما سريا لأحرار الضباط على غرار التنظيم السرى لأحرار ضباط ثورة ٢٣يوليو فى مصر ١٩٥٢م ونجحت الحركة فى القيام بأنقلاب فى سبتمبر ١٩٦٩م ولم تلبث هذه الحركة أن طلبت من الأمريكين والإنجيز الجلاء عن البلاد وتم الجلاء بعد مفاوضات سنة ١٩٧٠م.

أما الملك محمد إدريس السنوسى فقد عاش لاجئا فى مصر حتى توفى سنة ١٩٨٣ عن عمر يناهز ٩٣ عاماوتم نقل جثمانه إلى المدينة المنورة ودفن بمقبرة فى البقيع تجاه مسجد الرسول عليه الصلاة والسلام تنفيذا لوصيته (٣).

---

(١) محمد عزت دروزه ، نشأة الحركة العربية الحديثة ، ص ٧٧ ـ ٧٨ .

(٢) عمر رضا كحالة ، العالم الإسلامى ، الطبعة الثالثة ، دمشق ١٩٨٤م ، جـ٢ ص ١٠٥ .

(٣) الاهرام فى ٢٧/ ٥/ ١٩٨٣ .

اليقظة الاسلامية فى السودان

ترجع اليقظة الاسلامية فى السودان فى القرن ١٩ إلى رجل سودانى من أصل عربى هو (محمد بن أحمد بن عبد الله) الملقب (بالمهدى) نشأ فى (دنقله) حيث ولد سنة ١٨٤٤م وبرع منذ صغره فى التفقه فى علوم الدين وأصبح تواقا لنشر معارفة بين العامة الذين تكاثروا من حوله وسماها بالأنصار ولما رسخت قدمه تمركز فى جزيرة (أبا) فى النيل الأبيض التى اعتصم بها مع أنصاره وأخذ يحث الناس على معارضة ظلم الحكام فى السودان مع الأتراك الذين تعسفوا مع الأهالى وزادو من تجارة الرقيق (١) .

وطاف المهدى فى بلاد السودان التى كانت ضمن ولاية مصر وحكامها أولاد محمد على ولمس ما كان يقاسيه الناس من كثرة الضرائب وقسوة الحكم وسوء الحكم وسوء تصرف الموظفين الذين كان معظم كبارهم من عناصر غير عربية أى تركيه وشركسيه وألبانية مثل ما كان الأمر فى مصر نفسها فسيطرت على نفسه فكرة القيام بحركة أنقاذية ووفد عليه رجل فقيه اسمه (عبد الله التعايشى) فقال له أن فيه علامات المهدى المنتظر الذى بشر به النبى ﷺ الذى يملأ الدنيا عدلا كما ملئه الدنيا جورا فتفائل بذلك وقويت الفكرة فى رأسه وكانت هذه النقطة هى الأنحراف الفكرى والعقائدى فى حركته والتى لو نحيناها جانبا لكانت حركته من أهم الحركات التى أيقظت الروح الاسلامية فى أفريقيا .

وقد بدأ المهدى نشاطه سرا فى سنة ١٨٨١م زمن الخديو توفيق باشا بن اسماعيل باشا وصار له أنصار كثيرون وكان يأخذ منهم البيعة على الجهاد فى سبيل الله ثم أخذ يرسل الرسائل إلى الناس يعظهم ويدعوهم إليه وكانت

---

(١) عبد الحكيم العفيفى ، ألف حدث إسلامى ، ص ٣٦٧ ، ٣٦٨ .

نصوصها تدل على أنه كان يؤمن بأنه المهدى ثم جهر بالدعوه وأرسل كتابا إلى حاكم السودان (محمد رؤوف) باشا يدعوه فيه إلى اتباعه ويحذره من الخلاف عليه ورد عليه (محمد رؤوف) باشا ينصحه وينذره فقال له المهدى أنه ولى الأمر الذى تجب طاعته على جميع الأمة الإسلامية فسير الحاكم إليه حملة ففتك بها فتكا ذريعا وكانت الحملة مسلحة بالأسلحة النارية وكان رجاله مسلحون بالسيوف والحراب والرماح ومع ذلك انتصروا على حملة الوالى فأزداد تعلق الناس وافتتانهم به وتوجه إلى (كردفان) واستولى عليها وسير الحاكم إليه حملة أخرى وثالثة ورابعة فكان ينتصر عليها واحدة بعد الأخرى فانتشر صيته وكثر أنصاره وخاصة بعد احتلال الانجليز لمصر وقوع مصر تحت الاحتلال الإنجيزى وإعلان المهدى أنه سيقوم بتحرير مصر من حكم الخديو توفيق عميل الانجليز ومن الانجليز أعداء الإسلام ولذلك بدأ يزحف من غرب السودان فاحتل (الأبيض) وأصبح جيشه حوالى عشرون ألفا من الأنصار وغنم فى معركة الأبيض كثيرا من السلاح والعتاد وأنضم إليه قسم كبير من حاميتها من السودانيين والمصريين وأخذ يرسل بعد ذلك كتبه ورسله إلى مشارق السودان ومغاربه مبشراوداعيا إلى الأنضمام إليه وشق عصى الطاعة على الخديو توفيق عميل الانجليز . وبدأ يستعمل الأسلحة التى استولى عليها من الأبيض التى كانت مركزا لمقاومته وباستيلائه عليها تمكن من بقية السودان .

ولما سيطر الأنجليز على مصر ارسلوا حملة بقيادة قائد منهم اسمه (وليم هكس باشا) فقابلها المهدى بجيش عدده ثلاثة أضعاف الحملة وكان هو فى طليعة المهاجمين شاهرا سيفه مبكرا مهللا وكانت تهتز بتكبيره وتهليله جنبات الأرض وانتصر على الحملة انتصارا ساحقا حتى أنه لم يكد ينجوا من القتل إلا نحو ٣٠٠ شخص وقعوا أسرى وقتل قائدها وكثير من ضباط الانجليز والخديو واستولى المهديون على مقادير كبيرة من السلاح والعتاد

والتموين والأموال وكان هذا النصر بعد النصر السابق دافعا إلى انضمام كثير من زعماء السودان وقبائله إليه وأخذ الناس يغدون على المهدى أفواجا من كل صوب للمبايعه وأصبح سلطانه عاما شاملا لمعظم أنحاء السودان بل امتد إلى مناطق مجاوره وانتشر صيته فى العالم الاسلامى كله وجاءته وفود من الحجاز والهند وتونس ومراكش مؤيده مهنأه مما يدل على أن العرب والمسلمين كانوا يتطلعون بلهفه إلى التحرك واليقظة ويستبشرون بمثل هذه الحركات الإصلاحية المنبه لشعورهم القومى والدينى [١] .

وبدأت الحكومة البريطانية تضغط على حكومة مصر لأخلاء السودان من الجنود والموظفين المصريين بحجة الخوف عليهم من الثوار ولكن الحكومة رغم ضعفها كانت لا تزال تأمل فى إعادة تنظيم السودان التى كانت جزءا مكملا لمصر إلا أن بقايا الجيش المصرى فى السودان انضموا إلى الحركة المهدية عندما عجزت الحكومة المصرية عن إعطائهم رواتبهم وبعد ذلك لم يهتم الأنجليز فيما بين سنتى ٨٣ ـ ١٨٨٥م بأمر المصريين المنقطعين فى السودان وكانت حكومة بريطانيا ترى أن مصر ينبغى أن تسحب رجالها من السودان لأن المهديين فى نظرهم كانوا يقودون حركة قومية خاصة بالسودان .

وكان على الحركة المهدية أن تواجه القوى الأنجليزية بأسلحتها الحديثة وعتادها ومطامعها ولو أن الحركة المهدية قامت قبل ذلك بقرنين من الزمان لكانت من كبريات الدول الاسلامية لأن المهدى كان زعيما دينيا عظيما قادرا على تحريك الجماهير وكان يقود حركة دينية قومية تستهدف النهضة الإسلامية وتحرير السودان والمسلمين .

وكان يحكم مديرية دارفور شخص نمسوى الجنسية بإسم الحكومة المصرية وكان قد أعلن إسلامه وجد أنه لا فائدة فى المقاومة فدخل فى طاعة

(١) محمد عزة دروزه ، نشأ الحركة العربية الحديثة ، ص ٧٩ ـ ٨١ .

المهدى وبذلك استولى الأنصار على دارفور ، وكان هذا الشخص النمسوى يسمى (رودلف سلاتين) وأصبح سلاتين فى حاشية المهدى مدة ١٢ سنة وبعد القضاء على الحركة المهدية عاد سلاتين باشا وكتب كتابه : المشهور «النار والسيف فى السودان»[1] .

وأعتزم المهدى الزحف على الخرطوم عاصمة السودان للقضاء على آخر مركز للسلطان الاجنبى على السودان ، وأراد الانجليز خداعة فأعلنوا عزمهم على ترك السودان لأهله وعينوا حكاما على المناطق السودانية من أهلها وعينوا المهدى حاكما على كردفان لكن المهدى أدرك الخديعة فرفضها وزحف على الخرطوم التى كانت محصنة تحصينا قويا واقتحمها بحركة انتصارية باسلة ثم اقتحم أنصاره قصر الحاكم الإنجليزى (غوردون) باشا وقتلوه وشردوا من بقى حيا من قوات الخديو ،وعمال واستتب بعد ذلك السلطان للمهدى على جميع أنحاء السودان .

وأرسل المهدى بعد ذلك كتابا للخديو بدأه بعد البسمله بقوله : « من المعتصم بالله محمد المهدى إلى والى مصر وجاء فيه : « إنه لا سبيل إلى السلامة عند الله إلا بإحياء دينه وسنة نبيه وإماتت ما حدث من البدع والضلالات ومحاربة دسائس أهل الكفر التى أدت إلى أندراس الدين وتعطيل أحكام كتاب الله وسنة رسوله وإباحة محارم الإسلام ..وإن الله قد أظهر طبق وعده الصادق رحمة لعباده ولإنقاذ الناس من ظلمه الكفر إلى نور الإيمان وطوقه بالخلافة الكبرى وخلع عليه حلل المهدوية وبشره النبى بأن من يقصده بعداوة يخذله الله ويقذف الرعب فى قلبه وأنه سيملك جميع الأرض وأن الله قد أيده بالملائكه والجن » .

---

(١) د. حسين مؤنس ، أطلس تاريخ الإسلام ، ص ٣٣٧ .

ثم دعاه إلى الانضمام إليه والتضامن معه لإخراج الإنجليز من بلاد المسلمين وقطع دابرهم وأنذره « بأنه إذا أبى فعليه الأثم ولابد من وقوعه فى قبضته ولو كان فى بروج مشيدة » .

وكتب إلى سلطان (ودای) وإلى سلطان (سوكونو) يدعوهما إليه فأجابا بالاعتراف بإمامته ومهدويته وكتب إليه بعض المراكشيين المستوطنين فى مصر بالبيعه والاعتراف له بالأمامة ورشحوا شخصا منهم اسمه (محمد الغالى) ليكون أميرا من طرفه على مراكش لنشر دعوته فى بلادهم فأجابهم إلى ذلك وأرسل إلى محمد الغالى أمرا لتعينه وفيه تعليماته بالدعوة إلى الله وإحياء دينه وسنة رسوله وجهاد أعداء الله الكفار .

وجاء شخص من أهل الشام اسمه الحج (عبد الله الكحال) مبايعا فعينه عاملا له على بلاد الشام وأمره بإعداد العده للسفر إليها ونشر دعوته فيها.

وكان يصدر مناشير إلى الولاة والعمال والجباة الذين عينهم مؤكدا عليهم فيها بوجوب تقوى الله وتجنب البغى والجور والسير وفق كتاب الله وسنة رسوله ، وسك عمله ذهبيه وفضية ونحاسيه بأسمه .

ومن أعماله الطائشة أنه جمع ما وقع تحت يده من كتب التفسير والخلافات المذهبية وأحرقها فى مشهد عام وفرض مذهبا جديدا اجتهد فى إقامته على الأقوال والسنن التى صحت عنده وألغى الرتب والألقاب الرسمية وسوى فى المراتب بين الغنى والفقير وحرم الأسراف فى الأعراس والمغالاه فى المهور وحرم أعمال السحر والشعوذه والتنجيم كما حرم شرب الخمر والدخان والحشيش وحرم خصاء العبيد والبكاء على الأموات .

ويمكننا القول بأن حركة المهدى لو استبعدنا منها مسألة المهدوية التى

كان يعتقد بها هو وأنصاره لكانت إيذانا بدعوة إسلامية إصلاحية كبرى .

ووقفت منه الدولة العثمانية موقفا معاديا لأنه بجانب أنه كان يصف نفسه بالمهدى فإنه وصف نفسه أيضا بالخليفة ولما كان سلطان الخلافة القائم يومئذ هو السلطان (عبد الحميد الثانى العثمانى) الذى كان شديد الحرص عليها فأصدر منشورا كذب فيه دعوى المهدوية وحذر المسلمين من حركة المهدى وأصدر مجلس نظار الخديو فى مصر منشورا مماثلا مستندا إلى فتوى علماء الأزهر .

كما أصدر بعض علماء السودان رسائل فى بطلان دعوة المهدى ورد عليهم المهدى بأن سماهم علماء السوء[1] .

ويذكر المؤرخ عبد الرحمن الرافعى أن سبب استفحال الثورة المهدية «يرجع إلى مطامع الإنجليز الاستعمارية ذلك إن الاحتلال أضعف هيبة الحكومة المصرية وجعلها خاضعة للسياسة البريطانية وكان مما بادر إليه فى أعقاب إخماد الثورة العرابية إلغاء الجيش الوطنى وتجريد البلاد من قوتها الحربية والبحرية ، مما ترامى صداه فى نواحى السودان فأغرى بها الثائرين وقد حالت أنجلترا دون كبح جماح الثورة المهدية وأكرهت الحكومة على إخلاء السودان بحجة عجزها عن إخمادها على حين أنها كانت تستطيع لو تركت وشأنها أن تقضى على محمد أحمد وثورته .

«ومما لا مراء فيه أن سياسة انجلترا عقب الاحتلال كانت ترمى إلى بث الفوضى وإثارة الفتنة فى السودان لكى تتخذ من الثورة ذريعة لتسويغ بقائها فى مصر ولكى تضعف من شوكة مصر من ناحية أخرى فلا تقوى على استرداد استقلالها وليس أفعل فى إضعاف شوكتها من شبوب الثورة فى السودان

(١) محمد سليمان ، دور الأزهر فى السودان ص ٨٢ ـ ٨٣ .

وتغلبها على قوات الحكومة فيه من أجل ذلك كانت انجلترا تنظر بعين الغبطة إلى امتداد تيار الثورة المهدية ، ومن أجل ذلك أيضا عارضت رغبة الحكومة المصرية فى وقف تيار هذه الثورة » (١) .

فالسياسة الإنجليزية هي ولا شك من أهم الأسباب التى ساعدت على استفحال ثورة المهدى تحقيقا لمطامعها الاستعمارية .

وفاة المهدى :

ولقد أصيب المهدى فى شهر يونيو سنة ١٨٨٥م بحمة خبيثة من نوع الإلتهاب السحائى الشوكى لم تمهله بضعة أيام حتى أودت بحياته وهو فى أوج عظمته وقوته وكانت وفاته يوم ٢٢ يونيو سنة ١٨٨٥م ٩ من رمضان سنة ١٣٠٢هـ وتولى الحكم من بعده خليفته (عبد الله التعايشى) وكانت هذه الوفاة السريعة للمهدى قبل أن يرسى قواعد ملكه سببا من أسباب زوال الثورة المهدية فلا شك أن المهدى كان روح هذه الثورة وكانت الانتصارات التى نالها قد رفعت من شأنه وزادت من مهابته فى النفوس فكانت شخصية المهدى هى دعامة الدولة المهدية المترامية الأطراف التى اسسها فى السودان .

وتولى (عبد الله التعايشى) خليفة من بعده حسب وصيته وتلقى البيعة من جميع أنحاء السودان ونشر منشورا وعد فيه بالسير فى سبيل نصرة الدين والجهاد وإحياء كتاب الله وسنة رسوله والبراءة من كل مأرب شخصى وأخذ يقوى جيشه ويوطد حكمه فى نشر الدعوة إلى الآفاق وكتب لأمراء نجد وأهل مكة والمدينة ومصر والخديو توفيق والسلطان عبد الحميد والى إمام السنوسية وغيرهم مبشرا منذرا داعيا إلى كتاب الله وسنة رسوله وداعيا إلى الانضمام إليه بل وكتب إلى ملكة الإنجليز وملك الحبشة يدعوهما إلى الإسلام ويبشرهما

---

(١) عبد الرحمن الرافعى ، مصر والسودان الطبعة الثالث ، ص ١١٢ ـ ١١٣ .

وينذرهما وأظهر عزمه على غزو مصر وطرد الإنجليز منها وهيأ حملة أولى وسيرها لهذا الغرض ولكنها منيت بالهزيمة ثم أخذت تقوم بعض التمرادت عليه فى بعض أنحاء السودان بدسائس الإنجليز ورجال الخديو ثم بدأت المعارك الفاصلة بينه وبينهم فى سنة ١٨٩٦م واستمرت وتقلبت فى أدوار بين النصر والهزيمة للطرفين إلى أن كتبت الغلبه فى النهاية للإنجليز والخديو واحتلت قواتهما المشتركة الخرطوم وانتقل التعايشى ومن بقى حوله من قواته وانصاره إلى منطقة كردفان فلحقت به قوة تمكنت من الظفر به وقتله وقتل أكثر من كان معه سنة ١٨٩٩م .

ولا شك أن عبد الله التعايشى خليفة المهدى لم يكن له المقام الذى كان للمهدى ولا نفوذه المعنوى وكان ينقصه كثيرا من العزايا والصفات التى أجتذب بها المهدى قلوب انصاره كالإناة والحزم والدهاء ، فالتعايشى يشبه أن يكون وارثا لملك كبير تعوزه الكفاية للاضطلاع بأعبائه ووقع الخلاف بينه وبين كبار أنصار المهدى وأخذ يقرب إليه من يرى فيهم الأخلاص لشخصه وينكل بمن يخشى منهم مزاحمته أو الخروج عليه وفى عهده كثرت المظالم ووقفت حركة التجارة وانتشرت الأوبئة والمجاعات فمات منها مئات الآلاف من الأهالى فلا غروى إن كانت ولايته إيذانا بتداعى الدولة المهدية ولم يكن يطمع إلا فى أستبقاء نفوذه فى البلاد التى دانت للمهدى ، ولكن الانجليز أخذوا يبالغون فى قوته ويظهرون القلق من اعتزامه غزو مصر لكى يسوغوا بقائهم فى مصر لحمايتها كما يقولون من غزوات الدراويش [١] .

ولقد أصبح الإنجليز بعد القضاء على الثورة المهدية أصحاب السلطان فى السودان وخططوا لإرساء حكمهم فيه ولكن أهل السودان لم يسكتوا على ذلك فقاوموا ذلك بمختلف الصور منفردين حينا ومتعاونين مع مصر حينا آخر

(١) عبد الرحمن الرافعى ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٦٠

إلى أن تم جلاء الانجليز عن السودان سنة ١٩٥٥م .

ويمكن ان نجمل أسباب الثورة المهدية فيما يلى :

١) احتقار غوردون الانجليزى حاكم السودان لرجال الدين الاسلامى وأماكن العبادة من زوايا ومساجد ، فقد أجاز ارتكاب المنكرات بجوار الزوايا.

٢) تعيين المسيحيين الأوربيين حكاما على السودان مثل صمويل بيكروغوردون وقاموا بدورهم بتعيين أوربيين حكاما للمديريات .

٣) زيادة نشاط البعثات التنصيرية واعطاء الحرية لها فى تنصير السودانيين

٤) احتكار الحكومة لتجارة السودان وضرب تجار السودان بحجة أنهم يتاجرون فى الرقيق .

٥)ومن أسباب قوتها:

١) بعد الثورة العرابية وإبانها لم يهتم العرابيون بإرسال القوات اللازمة لضرب الثورة المهدية لأنه استبعاد لقوتهم وتشريد لقوات الجيش .

٢) بعد ضرب الثورة العرابية والاحتلال الانجليزى كان الجنود المصريون لا يشعرون بأن هناك واجبا مقدسا يجعلهم يدافعون عن سلطان غير شرعى (توفيق) وأجانب دخلاء وهم الانجليز الذين أصبحت لهم سيطرة على مصر والسودان .

المغرب العربى

لم يعرف المغرب العربى بدوله الحديثة فى العصور الوسطى وإنما كانوا يطلقون اسم المغرب الأقصى ويقصدون به مراكش ، والمغرب الأوسط يقصدون به الجزائر ويسمون القسم الشرقى منه إفريقية أو تونس ولم تكن لهذه

الأقاليم الثلاثة حدود معروفة أو معينة .

وقد بدأت سمات الأنقسام بين أجزاء المغرب العربى الثلاث تظهر فى القرن الثالث عشر حينما أضمحلت « دولة الموحدين » وحلت محلها بالتدريج دول ثلاث :

١ـ دولة الحفصيين فى تونس .

٢ ـ دولة بنى عبد الواد: فى المغرب الأوسط (الجزائر)

٣ ـ دولة بنى مرين: فى المغرب الأقصى .

وعلى الرغم من أن كلا من (دولة الحفصيين) و (بنى مرين) حاولت أن تبسط نفوذها على المغرب بأسره وتؤسس دولة كبيرة على نمط دولة الموحدين إلا أنها لم تستطع أن تفعل ذلك وبلغ التفكك السياسى فى شمال أفريقيا أقصاه فى أوائل القرن السادس عشر مما سهل على الغزاه الأسبان الاستيلاء على كثير من موانى المغرب الأمر الذى دفع المغاربة للأتصال بالدولة العثمانية لإنقاذهم من الغزو الأوربى وقد جاء العثمانيون إلى المغرب العربى ورحب بهم السكان ولم يعتبروا وجودهم احتلالا أجنبيا لبلادهم .

وقد كان من أبرز الأسماء التى لمعت فى تاريخ المغرب فى تلك الفترة هما الأخوين (بابا عروج) و (خير الدين بارباروسا) اللذين دافعوا عن المغرب دفاعا مستميتا امام المد المسيحى ، ولما وجد خير الدين بربارروساصعوبة مقاومة الأسبان وجد من الأفضل أن يدخل فى خدمة السلطان العثمانى ويعمل بإسمه ومن ثم طلب حماية السلطان سليم وقد منحه السلطان سليم لقب (بك بكوات أفريقية) وأرسل إليه عددا من الجنود الانكشارية ثم سمع له بتجنيد الأهالى فى الدولة العثمانية نفسها لمساعداته فى عملياته

الحربية فى غرب البحر المتوسط ، وقد تمكن (خير الدين) أن يستولى على المنطقة الساحلية من الجزائر واستولى على القلعة التى بناها الأسبانيون على جزيرة مواجهة للساحل الجزائرى وصل هذه الجزيرة باللاد سنة ١٥٢٩م ، وأصبحت نواة لمدينة الجزائر الحالية ، وقد عمل خير الدين على تزويد اسطوله بوحدات بحرية خفيفة وسريعة الحركة وأصبح اسطوله مرهوب الجانب فى الحوض الغربى للبحر المتوسط ومنح السلطان العثمانى لقب (قبودان باشا) واعطاه القيادة العامة للاساطيل العثمانية ، قام خير الدين بعملية توحيد أقطار شمال أفريقية فاحتل تونس وطرد منها مولاى الحسن حليف الأسبان ، وأصبح خير الدين بذلك أكثر من مجرد أمير للبحر فقد أصبح رئيسا للدولة وإن كانت متحدة مع الإمبراطورية العثمانية وأصبح الحارس الأمامى للامبراطورية العثمانية فى غرب البحر المتوسط وكانت تسنده جميع قوات هذه الأمبراطورية فى صراعه مع الغرب ، وهكذا بدأ ظهور الأتراك العثمانيين فى شمال افريقيا .

أما مراكش فقد نجحت فى صد كلا الضغطين الأسبانى والعثمانى وكانت هى الدولة العربية الوحيدة فى المغرب العربى التى لم تخضع للحكم العثمانى واستطاعت دولة (الأشراف العلديين) فى مراكش الأحتفاظ باستقلالها واعتزازها بنزعتها الأقليمية واتخذت من حدودها الطبيعية حاضرا يفصلها عن جيرانها وبخاصة فى الشرق وأصبح المغرب الاقصى هو القطر الوحيد الذى لم يتحد مع بقية الاقاليم العربية والاسلامية رغم استمرار الصلات والروابط وتشابه المصالح بين الشعوب .

الواقع أن الاشراف السعديين فى مراكش قاموا بدورهم فى الجهاد الدينى ضد الأسبان والبرتغال غير أنهم لم يقتنعوا بالأنضمام إلى الدولة العثمانية

والانضواء تحت لوائهم لأنهم اعتبروا انفسهم أحق من العثمانيين بزعامة العالم الإسلامى والخلافة الاسلامية لأنهم أهل البيت الشريف ، وإذا كانت الظروف تفرض على أحد القوانين الخضوع للقوة الأخرى فليس هناك من المسلمين من يجادل فى أحقية الاشراف فى السيادة وحاولت قيادة الأشراف فى مراكش بأن تعتز (بأن الله قد رفع بعضنا فوق بعض درجات) فى الوقت الذى اعتز فيه رجال الجزائر من اتباع خير الدين بارياروسيا (بألافضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى) ، ومن ثم وقع صدام مؤسف بين الأشراف السعديين فى مراكش وبين الجزائريين وحاولت كل دولة منهما النيل من الأخرى وكان الموقف يقتضى وحدتهما أمام الزحف الأوربى على العالم الإسلامى .

وصفوة القول أن الدولة العثمانية قد تمكنت من السيطرة على غالبية العالم العربى فى سرعة غير عادية وكانت هذه السرعة نتيجة عدة عوامل فى مقدمتها الضعف الداخلى والخطر الخارجى ثم التجاوب الدينى أو الوشيحة الدينية التى لولاها لكان مصير الغزو العثمانى منذ البداية كمصير غيره من الغزوات الوثنية والمسيحية السابقة كالمغول والصليبيين وبسبب هذه الوشيجة الدينية خطورة المدالأوربى كان التجاوب وكانت السرعة .

وإن فترة الحكم العثمانى للبلاد العربية لم تكن فى نظرنا فترة استعمار أجنبى لأن الأستعمار بمعنى استغلال البلاد المستعمرة لمصلحة قوة أجنبية ، وكانت فترة الحكم العثمانى للبلاد العربية بعيدة عن هذا المفهوم لأن الحكم العثمانى كان من دولة إسلامية اشتد عودها إبان النهضة الأوربية فأمتد نفوذها إلى البلاد العربية حماية لها من الأطماع الأوربية ووضعت فى كل بلد منها قوة

أطلقت عليها الحامية العثمانية ، وهو الإسم الذى اراده العثمانيون إشارة إلى حمايتهم العالم العربى من الأطماع الأوربية التى بدأت تتطلع إلى الزحف على العالم العربى ، ولم تكن الدولة العثمانية تستفيد من البلاد العربية فائدة كبيرة فقد قال أحد مؤرخى النظم العثمانية المصرية وهو (حسين أفندى الروزنامجى) عندما سأله علماء الحملة الفرنسية عن مدى انتفاع السلطان بملك مصر (أن هذه المملكة جميعها ملكه إنه لا ينظر إلى الانتفاع منها بل رتب لمصر على قدر جبايتها وقرر أن ما فاض من الجباية يبقى لينفق منه فى عمارتها ، وما ينعم به على الناس) .

وعلى الرغم من ذلك يذهب البعض (د. جمال حمدان) فى كتاب «الأستعمار والتحرير فى العالم العربى » إلى أن فترة الحكم العثمانى هى فترة استعمار دينى آخر ورث الاستعمار الدينى المسيحى : ويقول : « فمن الساحل الشمالى مرة أخرى من الأناضول جاءت موجة الأستعمار التركى وهو نوع محير من الأستعمار لأنه كأستعمار دينى إنما إتخذ من وحدة الدين غطاء يخفى به حقيقته كاستعمار سياسى لاشك فيه »

ويرى هذا الرأى كثير من المؤرخين بالمشرق العربى ، الذين يرون إن الوجود التركى فى أقطار الشمال الأفريقى اتخذ فى أوائل أمره لونا من ألوان الجهاد الإسلامى لكنه ما لبث أن بسط نفوذه على هذه الأقطار فى تعصب عنصرى للتركية [illegible] إلى احتلال واستعمار .

ويتطرف البعض منهم فيقول بأن (الفتح العثمانى لمصر كان اشنع ضربة اصابت المدينة الإسلامية منذ قضى التار على الدولة العباسية ، فى منتصف

القرن السابع الهجرى ، وقوضوا صرح المدنية الإسلامية فى المشرق وكانت مصر مستودع هذا التراث الباذخ ولاسيما بعد أن سقطت قواعد الأندلس المسلمة فى يد أسبانيا النصرانية . فجاء الفتح العثمانى بويلاته ليطفئ هذا السراج المنير مدى ثلاثة قرون » [1] .

وفى المغرب العربى يجمع المؤرخون على انكار وصف الحكم العثمانى للبلاد العربية بالاحتلال أو الاستعمار ، وما كانت فى تقريرهم إلا جمعا لشمل هذه الأقطار فى مواجهة أعداء الأمة الإسلامية فيقول بعضهم : (الذين كانوا فى بلدنا هم أخواننا الأتراك المسلمون ، وجودهم بيننا كان باستدعائنا واستجادنا وعن محض ارادتنا ، واختيارنا وما استجابوا لنا ليحكمونا بل للتعاون على مقاومة الاستعمار وصد العدوان وتطهير ارض الإسلام .. ومن المغالطة والتحامل أن يتجنى متجن فينعته بالاحتلال والاستعمار ، وأعداء الإسلام المتربصون بنا الدوائر هم الذين دسوا هذه العبارات السامة والمنفرة ، ليغزوا روح التضامن الإسلامى الذى كان ولا يزال شجا فى حلوقهم والسد المنيع الذى انحسرت عنده مؤامراتهم الصليبية الاستعمارية .

تونس

تقع تونس فى الطرف الشرقى لبلاد المغرب الثلاث (تونس ، الجزائر، المغرب) وتشترك تونس مع شقيقتها فى شمال أفريقيا فى تاريخها الطويل فقد

---

(١) محمد عبد الله عنان ، من محاضرة له عن ابن إياس فى الجمعية المصرية للدراسات التاريخية سنة ١٩٧٧ بعنوان : ابن اياس والفتح العثمانى لمصر ، ضمن مجموعة بحوث عن ابن اياس ص ١٣٧ ـ ١٤٨ .

أنشأ فيها الفينيقيون مستعمراتهم الكبيرة وأشهرها (قرطاجة) التى نافست روما فى السيطرة على البحر المتوسط وغزا ملكها الكبير (هانيبال) الأراضى الرومانية نفسها وحكمها البيزنطيون بعد ذلك وظل البربر أهل البلاد الأصليون يعتصمون بالداخل أيام حكم بيزنطة وعندما فتحها المسلمون اسسوا بها قواعد إسلامية مزدهرة مثل (القيروان) و (تونس) وغيرها من المدن .

وأقبل البربر على اعتناق الإسلام والكلام بالعربية واختلطوا بالعرب الذين تتابع قدومهم على البلاد جنودا وعمالا وكتابا وجماعات نازحة للإستقرار والمعيشة الدائمة فى بلاد المغرب وجاور بعضهم بعضا وتصاهروا وتشاركوا فى الزراعة والتجارة وكان لهجرة (بنى هلال) و (بنى سليم) من القبائل العربية إلى المغربين الأدنى والأوسط آثار إجتماعية وثقافية بالغة المدى على تلك الأرجاء فقد دخلت عناصر جديدة بدوية فى هيكل المجتمع المغربى ، وكان لهذه العناصر خصائصها العقلية والخلقية ولا شك أنهم بمخالطتهم للقبائل البربرية قد أثروا فيهم وتأثروا بهم فى المدن والقرى وكان تأثيرهم اللغوى واضحا جدا فى نشر اللغة العربية بين القبائل البربرية وكان احتكاكهم الدائم بهذه القبائل عاملا فعالا فى تعريبها تعريبا تاما واستمر الأستعراب يعمل عمله طيلة القرون اللاحقة حتى لم تبقى البربرية أداة تخاطب إلا بين قبائل بربرية منعزلة فى الداخل .

وعندما خرج المسلمون من الأندلس كانت سواحل المغرب كلها حتى الاسكندرية موئلا للمسلمين المهاجرين وهذا مما زاد من تعريب منطقة شمال

أفريقيا وعلى الأخص بلاد المغرب [1] تونس والجزائر ومراكش .

استعمار المغرب:

وبعد انتشار العرب الهلالية فى المغرب وسيطرتها على نواحى واسعة من بلاده ضعفت إلى درجة الزوال عصبيات البربر وتقوقعت فى الداخل تجاه الصحراء مثل (زناتة) ، (صنهاجة) ووهنت قوى القبائل الضخمة التى أنشأت الدول المجيدة وبعد سقوط الأندلس تطلعت دول النصرانية القوية أسبانيا والبرتغال إلى بلاد المغرب فبدأت تغير على سواحله وتنشأ فيها مراكز الاستعمار والتجاره ووهنت دول : المرينيين والحفصيين عن مواجهة تلك الأخطار لكن بقيت الروح الاسلامية التى حلت محل العصبية القبلية ، وقامت الطرق الصوفية مقام العصبيات القبلية وتولت أمر الكفاح ضد الغزاه من النصارى وإخراجهم من البلاد وإنشاء الدول المغربية الكبرى تونس والجزائر المغرب .

ولقد دخلت تونس فى دوامة الحكام الفاسديين الذين أضعفوا حيوية البلاد فى شتى الحياديين ، وكانت السياسة التونسية فى منتصف القرن ١٩الميلادى تعانى إنعزالا يكاد يكون تاما عن التيارات العالمية حتى أن الحكومة التونسية لم تبد حراكا إزاء ما دبر لها فى مؤتمر برلين سنة ١٨٧٨م(١٢٩٥هـ) وهو المؤتمر الذى قرر فيه الاستعماريون إطلاق يدى فرنسا لتفعل ما تشاء بتونس .

وكان الاقتصاد التونسى فى حالة من الأنهيار والضعف جعلت البلاد عاجزة حتى عن تدبير ميزانيه الدولة الأمر الذى اضطر المسئوليين التونسيين

---

(١) محمد السيد غلاب وآخرون ، البلدان الإسلامية والأقليات المسلمة فى العالم المعاصر ، ص ٤٢٦ ، ٤٣٣ .

إلى الاقتراض من عدة دول أجنبية لا لتأسيس مشاريع إقتصادية تعود على البلاد بالخير والرفاهية وإنما لتسديد المصاريف الاعتيادية للدولة ، ونتج عن تكاثر ديون الدولة وتضخمها دخول تونس تحت عجز دولى مالى إذ أنشأ سنة ١٨٧٠م لجنة مالية دولية للأشراف على الميزانية التونسية ومراقبتها ، كما حدث فى مصر .

أما من الناحية العسكرية فإن الجيش الذى كان يدافع عن تونس كان جيشا ضعيفا ليس على مستوى الجيوش الأوربية وهذا هو الذى دفع فرنسا إلى الهجوم على تونس فيما بعد وفرض الحماية عليها ومما هو جدير بالذكر أن التدخل الاجنبى فى الشئون التونسية ابتدأ منذ ظهور الامتيازات القنصلية الاجنبية فى داخل البلاد الاسلامية ومن بينها مصر وساعد على ذلك ضعف الدولة العثمانية ، والامتيازات الأجنبية جعلت الأجانب لا يقعون تحت طائلة القضاء الوطنى .

وكانت الحجة القوية التى استند إليها الفرنسيون لاحتلال تونس فقد هاجر عدد كبير من أهل الجزائر إلى تونس عقب احتلال الفرنسيين للجزائر ، وبقيت بعض العشائر المهاجرة مقيمة عند الحدود تمنى نفسها بأمل العودة إلى الجزائر ، وكانت قوات الاحتلال الفرنسى تخشى من وجودهم على الحدود فطالبت باى تونس (محمد الصادق) بتسليم بعض زعمائهم .

زعمت أن حوالى ٣٠٠ من أفراد قبائل الكرميين قاموا بإجتياز الحدود الجزائرية وقتلوا [illegible]ة وسرقوا بعض المواشى ، وهذه القبائل تسكن الركن الشمالى الغربى من تونس وهى منطقة جبلية مغطاة بالغابات وادعت قوات الاحتلال الفرنسية أن الباى عاجز عن السيطرة على هذه القبائل ، وأن فرنسا إذ قررت التدخل فى تونس إنما تفعل ذلك مضطرة لحماية مستعمراتها الجزائرية.

ومع أن الباى أراد أن يثبت للفرنسيين أنه قادر على أداء مهمة تأديب قبائل الكرميين وحده فأرسل إليهم أخاه (على بك) على رأس قوة وأتى ببعض الرهائن منهم دليلاً على خضوعهم لسلطته لكن هذا لم يحول الفرنسيين عن خطتهم التى أعدوها لاحتلال تونس .

وقام القائد الفرنسى بإبلاغ الباى بالتدخل وطلب منه أن يعتبر القوات الفرنسية قوات صديقة ، وطلب منه أن تتعاون التونسية مع الفرنسية قوات صديقة ، وطلب منه أن تتعاون القوات التونسية مع الفرنسية فى أداء مهمتها.

واجتازت القوات الفرنسية الحدود التونسية قادمة من الجزائر من الشمال متجهة إلى قبائل الكرميين ، وعبثاً حاول باى تونس الاستنجاد بالدولة العثمانية وبعض الدول فلم يفلح ، ونزلت القوات الفرنسية بميناء (بنزرت) فى الأول من مايو ١٨٨١م واتضحت أهداف الحملة البعيدة وأنها تقصد مدينة تونس لإملاء شروطها على الباى ، وفى ١١ من مايو وصلت هذه القوات أمام قصر الباى المعروف بقصر البارود على بعد ٢٠كم من تونس وهناك لحق القنصل روستان بالقائد بريار ، ولم يكن القنصل قد غادر البلاد باعتبار أن تلك الأعمال ليست حربية رسمية وكان الجنرال بريار يحمل معه نص معاهدة الاحتلال ، فقدمها إلى الباى لتوقيعها بعد أن أعطى مهلة ٥ ساعات فقط ؛ فلم يكن أمامه سوى الرضوخ فقد هدده الفرنسيون بخلعه من العرش وتنصيب أخيه الطيب سلطانا على تونس وكان الطيب قد اتفق معهم على توقيع المعاهدة فى حالة رفض أخيه محمد الصادق لها تحت هذا الضغط وقع محمد الصادق معاهدة الحماية فى ١٢ من مايو ١٨٨١[1] .

ولم تحدث مقاومة تذكر سوى من قبائل الكرميين وبعض القبائل

---

(١) صلاح العقاد ، المغرب العربى ، ص ٢٠٣ ـ ٢٠٤ .

الأخرى وهى غير مؤثرة .

وبعد أن تم للفرنسيين احتلال تونس بدون مقاومة تقريبا اعتقدوا أن أمرهم قد استقر ولكن سرعان ما خاب تقديرهم حين أندلعت فى البلاد ثورة عارمة وشجع التونسيين على القيام بهذه الثورة عاملان الأول قيام ثورة فى الجزائر فى جنوب وهران فى صيف عام ١٨٨١م ثانيا أحساس التونسيين بأن القوات العثمانية المرابطة فى طرابلس الغرب سوف تؤيدهم أو على الأقل ستأويهم إذا فشلوا فى حركتهم وبذلك أندلعت الثورة فى القسم الجنوبى من تونس وكان مركزها مدينة القيروان المشهورة فى شمال أفريقيا كلها بمكانتها الإسلامية والتاريخية العظيمة ، فهى أول مدينة إسلامية بناها عقبة بن نافع عندما فتح المسلمون البلاد وهذا يدل على أهمية الباعث الدينى فى حركة المقاومة ومن القيروان أمتدت الثورة إلى الساحل الجنوبى فأحتل الثوار ميناء (سفاقص) وطردوا منه نائب الباى الذى أصبح فى نظرهم خائنا بقبول التوقيع على معاهدة الحماية ونادوا بأحد روساء القبائل وهو على بن خليفة أميرا عليهم وفى شهر يونيو ١٨٨١م أصبحوا يسيطرون على الساحل الجنوبى كله الذى يمتد من سفاقص حتى حدود طرابلس بما فى ذلك جزيرة (جربة) وخليج (قابس) وأحرجت هذه الثورة موقف الفرنسيين .

لكن سرعان ما حشدت فرنسا قواتها وركزت جميع جهودها للأستيلاء على القيروان عاصمة الثوار وزحفت عليها من كل جانب وعندما رأى الثوار أن الفرنسيين يحيطون بهم تفرقوا فى الواحات الجنوبية ورحل بعضهم إلى طرابلس وعندما وصلت قوات الفرنسيين إلى المدينةوجدتها خالية من المحاربين وسلمها الأهالى فى ٢٧ إكتوبر ١٨٨١م

وقعت تونس تحت الحماية الفرنسية حيث تم توقيع معاهدة بين (محمد

الصادق) باي تونس وبين الجنرال (بريار) الفرنسى وتشتمل المعاهدة المذكورة على عشرة بنود جعلت فيها تونس تحت حماية فرنسا التى يكون لوكيلها المقيم بالولاية حق القيام بجميع الأعمال الخارجية وتتعهد فرنسا بحماية تونس ويكون لها أكبر نفوذ فى تونس وهيمنة على اقتصاد تونس وجعلت هذه المعاهدة تونس فى قبضة فرنسا .

وفتحت هذه المعاهدة أبواب البلاد على مصاريعها أمام شركات الاستغلال الفرنسية التى كانت تمتلك المساحات الواسعة من المزارع التونسية كما فتحت أبواب البلاد للمستوطنين الاوربين من فرنسيين وغيرهم ، وكان يعيش منهم فى تونس غداة استقلال تونس (عام ١٩٥٦م) نحو ثلاثة آلاف أسره معظمهم إيطاليون يمتلكون ٦٢٤ر١٠٠٠ هكتارا بينما كان الفلاحون التونسيون البالغ عددهم نحو ٤٨٠ر٠٠٠ فلاح لا يمتلكون أكثر من ٣ر٠٠٠ر٠٠٠ هكتارا وبينما كان متوسط ملكية المزارع الأوروبى ٢٥٠ هكتارا، لم يتجاوز متوسط ملكية الفلاح التونسى ٦ هكتارات[1].

وانتهى النفوذ الفرنسى إلى خلع ملك تونس الشرعى (الملك محمد المنصف) سنة ١٩٤٣م وتم اعتقاله وأرسل منفيا إلى فرنسا .

وبعد جهاد مرير وصراع دام طويل مع الاستعمار الفرنسى والذى كان يقود هذا الجهاد (حزب تونس الفتاة) الذى أنشأه (عبد العزيز الثعالبى) سنة ١٩١١م تم إنشاء (حزب الدستور) سنة ١٩١٩م وكان البيت المالك التونسى وهو من بقايا الحفصيين يقف فى صف المستعمر ولهذا عمل الوطنيون على خلع آخر ملوكهم كما ذكرنا من قبل وهو الملك (محمد المنصف) .

وفى سنة ١٩٣٤م أنشأ المجاهد التونسى الكبير (الحبيب بورقيبة)

---

(١) صلاح العقاد ، المغرب العربى ، ص ٢٠٣ _ ٢٠٤ .

(١) د. محمد السيد غلاب وآخرون ، البلدان الإسلامية والأقليات المسلمة فى العالم ـ

(حزب الدستور الجديد) وتولى أمانته العامة وهو الذى قاد الحركة الوطنية التونسية قيادة موفقه من ذلك الحين حتى اعترفت فرنسا سنة ١٩٥٥م بالاستقلال الداخلى لتونس على أثر مفاوضات دارت بين وفدى تونس وفرنسا وأعقبتها مفاوضات أخرى بباريس سنة ١٩٥٦م تم الاتفاق فيها على إلغاء معاهدة الحماية التى عقدت سنة ١٨٨١م وأصبحت تونس بمقتضى المعاهدة الجديدة دولة مستقلة ذات سيادة عليها أن تباشر مسئوليتها فى ميادين الشئون الخارجية والأمن والدفاع وكذلك تأليف جيش وطنى تونسى وتم بذلك توقيع إتفاق فى سنة ١٩٦٥م يؤكد إستقلال تونس وتصرفها فى شئونها الداخلية والخارجية وهذا الاتفاق سمى (بيراءة الاستقلال) وتم انتخاب (الحبيب بورقيبه) رئيسا للحكومة التونسية المستقلة .

وفى ٢٥ أكتوبر ١٩٥٧م اجتمع نواب الأمة فى المجلس القومى التأسيسى وناقشوا نظام الدولة ثم أعلنوا أن تونس دولة جمهورية واسندوا رئاستها إلى أول رئيس لها وهو (لحبيب بورقيبه) .

وتم فى هذا الإجتماع إلغاء النظام الملكى إلغاء تاما وفيما يلى نص قرار المجلس القومى التأسيسى .

« نحن نواب الأمة أعضاء المجلس التأسيسى بمقتضى ما لنا من نفوذ كامل مستمد من الشعب وتدعيما لأركان استقلال الدولة وسيادة الشعب .

وسيرا فى طريق النظام الديموقراطى الذى هو وجهة المجلس فى تسطير الدستور تتخذ باسم الشعب القرار التالى النافذ المفعول حالا :

١ ـ نلغى النظام الملكى إلغاء تاما .

٢ ـ نعلن أن تونس دولة جمهورية .

٣ ـ نكلف رئيس الحكومة السيد (الحبيب بورقيبة) بمهام رئاسة الدولة على حالها الحاضر ، ريثما يدخل الدستور فى حيز التطبيق ، ونطلق عليه لقب رئيس الجمهورية التونسية .

٤ ـ نكلف الحكومة بتنفيذ هذا القرار ، واتخاذ التدابير اللازمة لصيانة النظام الجمهورى ، كما نكلف كلا من رئيس المجلس والأمين العام لمكتب المجلس والحكومة بإبلاغ هذا القرار الخاص والعام ، اصدرناه فى قصر المجلس بباردو فى ٢٦ ذى الحجة ١٣٧٦هـ ٢٥ أكتوبر ١٩٥٧ء [١] .

الجزائر

سبق لنا أن تحدثنا عن نضال الجزائرين بعد سقوط الأندلس وتضامنهم مع الأتراك فى هذا الكفاح وظهور المجاهد (عروج) المجاهد البحرى التركى ثم أخوه خير الدين الذى وصلت القوة البحرية الإسلامية فى أيامه إلى أوجها بحيث أصبحت هى سيدة البحر المتوسط وتضاءلت أمامها جميع أساطيل الأمم الغربية وكان مركز خير الدين هو مدينة الجزائر وكان يعمل بإسم السلطان العثمانى فأصبحت الجزائر داخله تحت الحكم العثماني وقد تولى بعد خير الدين ولاة من قبل الدولة العثمانية وكانوا يتولون الجهاد فى البحر ورد غارات الدولة المسيحية عن سواحل المغرب وظلت هذه الولاية مركز قوة بحرية عظيمة مدة ثلاثة قرون لكن أدركها فى النهاية الضعف كما أصاب الدولة العثمانية الضعف وكانت الدولة العثمانية تعتمد فى حروبها على أسطول الجزائر وتجعله رداء لها فى كل حروبها وصارت قوة هذه الأسطول مثار غضب شديد للعالم بسبب أعماله الجهادية فى البحر المتوسط والتى أطلق عليها الغرب القرصنة وكانت كثيرمن الدول الأوربية تدفع لحكومة الجزائر جزية سنوية تشتري بها حرية سير سفنها مثل : السويد ، هولندا ، الدانمارك ونابولى .

وفى سنة ١٨٢٧م حدثت مشادة بين والى الجزائر (حسين داى) (وقنصل) فرنسا أعتدى فيها الداى على القنصل وضربه بالمروحة فكانت هذه الحادثة سببا مباشرا من أسباب فتح فرنسا للجزائر وتحرشت فرنسا بالجزائر فى عام ١٨٣٠م ثم احتلال الجزائر العاصمة وزحفوا منها على بقية المدن البحرية

(١) عمر رضا كحالة ، العالم الإسلامى ، جـ٢ ص ١٠٢ .

وكان الفرنسيون فى البداية يخافون التورط فى حروب داخل الجزائر لكنهم فى سنة ١٨٣٤م عينوا حاكما للجزائر وبدأو يزحفون على وهران ومستغانم وعنابه وبجاية وفى سنة ١٨٣٦م زحفوا على قسطنطينة .

لكن المقاومة فى الجبهة الغربية من الجزائر كانت قوية لأن الأهالى اختاروا لهم أميرا قويا هو (عبد القادر بن محى الدين الحسنى) المعروف (بعبد القادر الجزائرى) وكان هذا القائد تنشأ مع والده محى الدين أولا فى الكفاح والجهاد ضد الفرنسيين وظهرت فى أثناء هذا الكفاح بسالة عبد القادر وإقدامه ورباطة جأشه وأصالة رأيه مما جمع حوله الرجال ولما أراد أهالى تلك البلاد مبايعة والده محى الدين أميرا عليهم أشار عليهم بولده عبد القادر فبويع بالإمارة وتمركز عبد القادر فى المعسكر بالجبهة الغربية من الجزائر رتب جنوده وباشر القتال دانت له كل ولاية وهران تقريبا مما جعل القوات الفرنسية مضطره إلى أن تعقد معه معاهدة فى سنة ١٨٣٤م تعترف فيها فرنسا بسيطرته على ولاية وهران وكان له الحق بموجب هذه المعاهدة أن يعين قناصل له لدى الفرنسيين فى الجزائر وأن يستورد الأسلحة من أى جهة أراد وعظم شأن عبد القادر بعد ذلك ولكن الشيئ الخطير أنه كان مضطرا أن يقاتل بعض المنافسين له من أهل الجزائر الذين لا تثقل عليهم سلطة الغريب كما تثقل عليهم سلطة أخيهم فثار على الأمير قبيلتى الدوائر والزمالة وانضمتا إلى فرنسا فطلب تسليم رؤسائهم إليه فأبى الفرنسيون فتقدم عبد القادر لقتال الفرنسيين وانتصر عليهم سنة ١٨٣٥م فجردت فرنسا جيشا كبيرا استولى على عاصمته المعسكر وكانت بقية من الأتراك لا تزال فى قلعة (تلمسان) فناوشوه من الوراء فانهزم ثانية واضطر أن يعقد صلحا مع الفرنسيين فى سنة ١٨٣٧م اعترفت فرنسا له فى المعاهدة بجميع ولاية وهران وقسم كبير من ولاية الجزائر لكنه لم يسلم من مناوشة بعض الجزائريين له مثل (محمد التيجانى) الذى أبى الاعتراف بإمارته فهزمه واستولى على حصنه فى قصر (عين ماضى) وهو الحصن المنيع الذى لم يتمكن الأتراك طول مدة حكمهم فى الجزائر أن يدخلوه .

وأصبحت لعبد القادر قوة لاتقل عن قوة أى دولة فى المنطقة حيث رتب جيشا منظما على غرار جيوش الدول وقسمه إلى مشاه وفرسان ومدفعية وأستقدم لتدريبه ضباطا من الاتراك والتونسيين ومن الفرنسيين الفاريين من الجيش الفرنسى ووضع لهذا الجيش نظاما يتعلق بمأكله وملبسه ورواتبه ومدة التعليم وشرط الترقى ونيل الأوسمة وغير ذلك من النظم وأصبحت لديه مخازن للحبوب والأقوات ومعامل السلاح .

لكن وقعت بينه وبين الفرنسيين الحروب الطاحنة مرة فى سنة ١٨٣٩م وهى الحرب التى استمرت حتى سنة ١٨٤٣م دون انقطاع لكن عدم تكافؤ القوتين آل فى النهاية إلى سقوط أكثر حصونه واستيلاء العدو على أكثر مدنه مثل : (تاغدمت) ، (المعسكر) و(تازه) و (وادى الشليف) مما اضطره إلى الزحف غربا تجاه المغرب ولما خزله أكثر أنصاره فر إلى المغرب مما حمل سلطان المغرب على أن يحارب معه الجيش الفرنسى سنة ١٨٤٤م لكن الجيش المغربى لم يكن يملك من أسلحة القتال ما يملكه الفرنسيون فانتصر الجيش الفرنسى على الجيش المغربى وحاصرت السفن الفرنسية ميناء (طنج) وضربته بالمدافع وغيره من الموانى المغربية فأصبحت سلطنة المغرب محاصرة من البر والبحر وأجبرت السلطان (مولاى عبد الرحمن) على عقد الصلح فى ١٠ من ديسمبر سنة ١٨٤٤م بالشروط التى تريدها وكان أول هذه الشروط منع القادر من تجاوز حدود الجزائر وكانت هذه المعاهدة بداية النهاية لعبد القادر ونضاله وجهاده ذلك لأن جهاده بعد هذه المعاهدة سوف يتعارض مع مصالح سلطان المغرب فظل عبد القادر نحو سنتين متربصا منتظرا فرصة من العدو ليستغلها للهجوم على الفرنسيين فى الجزائر فقامت ثورة فى الجزائر سنة ١٨٤٦م فأعطته الفرصة فى الزحف على بلاد الجزائر ثانية وخاصة على بلاد البربر المسماه عند الفرنسيين (كابيلى) ومعناها بلاد القبائل لان قوته كانت قد

تناقصت فى وقت ثبت فيه أقدام الفرنسيين ورسخت فى الجزائر فلم يستمر فى غارته وأسرع إلى العودة إلى الحدود المغربية فطالبت فرنسا السلطان المغربى (مولاى عبد الرحمن) بتسليمه وما زالت تلح عليه فى ذلك فجرد قوة للهجوم على عبد القادر فأصبح بين نارين القوات المغربية من جهة والقوات الفرنسية من ناحية أخرى ولما اشتد به الموقف فضل أن يسلم نفسه إلى الفرنسيين فى ٢٣ مارس سنة ١٨٤٧م وتم الاتفاق بينه وبين الفرنسيين على أن يخرج بعائلته ذاهبا إلى الأسكندرية أو بلاد الشام لكنه ظل أسيرا فى فرنسا حتى سنة ١٨٥٢م فأرسله الفرنسيون بعدها إلى تركيا فأقام بمدينة (بروسه) وفى سنة ١٨٥٥م أستأذن فى الذهاب إلى الشام وكان ذلك بمعرفة الحكومة الفرنسية فأذنت له الدولة العثمانية بذلك فأستقر فى دمشق إلى أن توفى بها سنة ١٨٨٣م[١].

وبعد القضاء على ثورة الأمير (عبد القادر الجزائرى) تمكن الأستعمار الإستيطانى الفرنسى بالجزائر وتدفق عليها الأوربيون من كل مكان كالأسبان والايطاليين والمالطيين وقدرت مساحة الأرض الزراعية التى كان يمتلكها الأوربيون هناك بعد الحرب العالمية الثانية بربع الأراضى المزروعة وكان هؤلاء المستوطنون قد استولوا على تلك الأراضى بالقوة وطردوا منها الفلاحين الجزائريين[٢] وتكون فى الجزائر حزب (البيان) فى أواخر العشرينات يتزعمه (فرحات عباس) الذى طالب بالمساواة فى الجزائر بين الجزائريين والمستوطنين الفرنسيين الذين كانوا يعتبرون البلاد جزءا من فرنسا وتألف أيضا (حزب الشعب الجزائرى) وطال نضال هذا الحزب حتى قيام الحرب العالمية الثانية .

---

(١) شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامى جـ٢ ص ١٦٦ ـ ١٧٢ .

(٢) د. محمد سيد غلاب وآخرون ، مرجع سبق ذكره ، ص ٤٣٤ .

جبهة التحرير الجزائرية:

وبعد قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢م فى مصر أعلنت مساعدتها لكفاح الجزائريين المسلح ضد الفرنسيين لإجلائهم عن أرض الوطن الجزائرى ولذلك بدأت حركة التحرير الجزائرى للثورة المجيدة وتكونت جبهة التحرير الجزائرية سنة ١٩٥٤م وبدأت الكفاح المسلح ١٩٥٦م وعقدوا مؤتمرا فى (وادى الصومام) أنشأوا فيه قيادة عليا موحدة للثورة الجزائرية وبفضل جبهة التحرير[1] الجزائرية استمرت حرب التحرير أكثر من سبع سنوات من سنة ١٩٥٤م إلى سنة ١٩٦٢م عندما أرغم الشعب الجزائرى فرنسا على الأعتراف بإستقلاله والإنسحاب من أراضيه وقامت بعد ذلك الجمهورية الجزائرية المستقلة التى ضربت للعالم كله أروع مثال للجهاد الوطنى فقد سقط فى تلك الحرب أكثر من مليون شهيد جزائرى .

وبعد الاستقلال خاض الشعب الجزائرى معركة التعريب على يد الرئيس هوارى بومدين الذى تعلم فى الأزهر، فاستقدم جيوشا من المدرسين من خريجى الأزهر وأنشأ معاهد لهم فى جميع أنحاء الجزائر ، فكانوا يدرسون فى هذه المعاهد صباحا وفى المساء يتولون التدريس للموظفين ، وجعل هوارى بومدين الترقى فى الوظائف مرهون بحصول الموظف على شهادة تعلم اللغة العربية .

وبذلك عاد للشارع الجزائرى والمدارس الجزائرية لسانها العربى ، وأنشأ جامعة بأسم الأمير عبد القادر الجزائرى على غرار الأزهر واستقدم لها أساتذة من الأزهر برئاسة الشيخ محمد الغزالى للحفاظ على علوم اللغة العربية والفكر الاسلامى بالجزائر .

(١) د. حسين مؤنس ، أطلس تاريخ الإسلام ، ص ٤٣٢ ـ ٤٣٣ .

المغرب

دولة المغرب أو المملكة المغربية الحديثة هى ما كان يطلق عليه المغرب الأقصى فى الماضى كما كان يسميها العرب وهى لا يفصلها عن أوربا سوى مضيق جبل طارق وقد لعب سكان المغرب دورا كبيرا فى تاريخ الإسلام وقام علي أكتافهم عبء فتح الأندلس ومنذ إنشاء دولة العلويين فى المغرب الأقصى على يد (أدريس بن عبد الله بن الحسن) أخو محمد النفس الذكية فى سنة ١٧٢هـ وهى تقوم بدور كبير فى مجال نشر الإسلام بين البربر فى ظل الأسرة العلوية التى وقفت دائما إلى جانب الشعب المغربى .

وأهم شئ نحب أن نشير إليه أن دولة الأدارسة أسهمت فى خدمة الإسلام فى هذه الناحية النائية فينسب إليهم أنهم ثبتوا البربر على الإسلام ، وبذلك مهدوا لظهور البربر كقوة فيما بعد أيام المرابطين والموحدين ودخل بقية البربر على عهدهم حظيرة الإسلام ، كما كان حكم الأدارسة مقدمة للدور الكبير الذى لعبه البربر فى مجال نشر الإسلام فى غرب أفريقيا وينسب إليهم الفضل فى القيام بحركة نشر الإسلام فى حوض السنغال التى استمرت بعد ذلك فى عهد المرابطين والموحدين حتى شملت أفريقيا الغربية كلها[١].

وكان لجامع القرويين الذى تأسس فى عهدهم فى فارس بعدوة القرويين سنة ٢٤٥هـ دور كبير فى الحركة العلمية بالمغرب وأخذت (فاس) بفضله طابع المركز العلمى بالمغرب حتى يومنا هذا والذى تميز بأختيار المذهب المالكى وأختيار العقيدة الأشعرية وأختيار رواية ورش ورواية ابن سعاده . وأصبحت فارس الآن (١٩٩٧) هى عاصمة المغرب الثقافية .

---

(١) د. مصطفى محمد رمضان ، محاضرات فى تاريخ الدولة العباسية ألقيت على طلبة الدراسات العليا التاريخية بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ، ص ٩١ ، ٢٣٦ .

وقد ظل هذا الجزء من المغرب مأوى للأشراف وتكونت دولتهم الحديثة سنة ١٩٥٦م بعد كفاح طويل ضد الأستعمار وترجع أسرتهم إلى القرن الحادى عشر وهم من الأشراف الحسنيين وحكموا بأسم الأشراف (الفولالية) نسبة إلى واحة (فيلالت) التى نشأوا بها [١] .

وشهدت بلاد المغرب منذ الفتح الإسلامى إقامة حواضر إسلامية عظيمة مثل (فاس) و (مراكش) و (الرباط) ويذكر الكتاب والمؤرخون أن ذوى الأصل العربى يبلغون بالمغرب حوالى ٦٧٪ من سكان المغرب والباقون ترجع أصولهم إلى البربر وهم سكان الجبال والبدو وزراع الواحات ولكن العربية هى اللسان السائد فى الأسواق والمساجد والإدارة [٢] .

وكان استقلال بلاد المغرب عن الأستعمار الأوربى من المسائل المعقدة نظرا لأن المغرب نزل به الاستعمار الفرنسى منذ سنة ١٩١٢م وكان به الاستعمار الأسبانى فى منطقة الريف وهى المنطقة الشمالية الغربية من المغرب حول (سبته) و (مليله) و (طنجه) و(تطوان) وغيرها ، فكان الأمر يقضى كفاحا ضد الأسبان والفرنسيين معا وكانت أسبانيا وفرنسا تصران على البقاء فى هذا البلد الإسلامى وتتضامنان فى هذا المجال .

أما المناطق الشرقية من المغرب والتى تجاور الجزائر فكانت تقع فى قبضة فرنسا ، وكانت بريطانيا تعارض احتلال فرنسا للمغرب لكن تم بينهما اتفاق ودى منذ سنة ١٩٠٤م.

والاتفاق الودى بين بريطانيا وفرنسا سنة ١٩٠٤م ينص على أن تطلق بريطانيا يد فرنسا فى المغرب وفى المقابل تطلق فرنسا يد بريطانيا فى مصر

(١) المرجع السابق ، ص ٢٣٦ ـ٢٣٧ .

(٢) د. محمد السيد غلاب وآخرون ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٤٢ .

بشرط حياد طنجة وحرية التجارة فى مراكش (المغرب) وتخصيص منطقة من المغرب لأسبانيا ومنذ هذا الاتفاق وفرنسا تعد نفسها للوثوب على المغرب غير أنها فضلت أن تتغلغل بنفوذها فى المغرب سلميا شيئا فشيئا حتى أصبحت تسيطر على الجيش المغربى الرسمى فقد أصبح (مانجان) رئيس البعثة العسكرية الفرنسية قائدا للجيش المغربى الرسمى .

وفى سنة ١٩١٠م وأوائل سنة ١٩١١م تم تسريح عدد كبير من جنود السلطان بحجة عدم صلاحيتهم لنظام الجندية الحديث ، ولكن بقصد توفير النفقات أيضا لدفع مرتبات البعثة الفرنسية فأنطلق هؤلاء الجنود بين القبائل يذيعون بأن السلطان قد باع بلاده للفرنسيين وسنحت الفرصة لفرنسا لتسديد ضربتها النهائية لأحتلال البلاد فبدأت الأمدادات الفرنسية تصل إلى مدينة «الدار البيضاء » المغربية منذ فبراير سنة ١٩١١م لأكمال السيطرة على مراكش فأحتلوا فاس والرباط وغيرها من المدن وتم إعلان الحماية الفرنسية على المغرب فى ٣٠ مارس ١٩١٢م أما أسبانيا مسيطرة من قبل على الأقليم الخاص بها وهو منطقة الريف المغربية(١).

المقاومة المغربية:

ومنذ اللحظة الأولى من إعلان الحماية على المغرب بدأ الشعب المغربى نضاله على الرغم من قوة فرنسا العسكرية التى تمركزت فى البلاد ، وقد هيأت طبيعة البلاد من جهة وأوضاع السكان من جهة أخرى فرص النجاح أمام عناصر المقاومة ففى المغرب تنتشر الجبال وعرة المسالك والتى أعتاد أهلها من البربر الاحتفاظ بإستقلالهم الداخلى أمام جميع الحكومات المركزية ومن ثم لم يتم إخضاع المغرب إلا بعد أكثر من ٢٠ عاما وتلعب شخصية

(١) صلاح العقاد ، المغرب العربى ، ص ٢٦٦ .

الأمير (عبد الكريم الخطابى) الدور الرئيسى فى المقاومة .

ولم يستطع السلطان (مولاى عبد الحفيظ) سلطان المغرب أن يكون سلطان الحماية فتنازل عن السلطنة للسلطان يوسف وتم نقل العاصمة من فاس إلى «الرباط» على الساحل الغربى لبلاد المغرب لتكون بعيدا عن العناصر الوطنية وظل التعاون قائما بين خليفته السلطان يوسف وبين سلطان الإحتلال الفرنسى .

ونتيجة هامة لهذه السياسة هو الأنقسام فى موقف المغرب من الاحتلال بين السلطات الرسمية الموالية التى ترتكز على الأقليم الساحلى وبين غالبية السكان فى الداخل وهم يتألفون عادة من قبائل عربية وبربرية .

وفى بداية الحماية تركزت المقاومة فى منطقتين فى جبال الأطلس الوسيط وفى الجنوب حيث حمل (هبة الله ابن ماء العينين) دعوة أبية فى الجهاد وألتف حوله أهل السوس بما فى ذلك كثير من القواد الذين كانوا فى السابق يمثلون حكومة فاس وفى أغسطس ١٩١٢م تمكن هبة الله من دخول مدينة مراكش عاصمة الجنوب حيث اعترف له الأعيان برئاستهم لكن قوات الاحتلال الفرنسية أرسلت حمله إليه اضطر إلى الأنسحاب من مراكش توجه إلى موريتانيا حيث قواعده الأصليه .

ولكن الملاحظة العامة على المقاومة فى مناطق المغرب الفرنسية أن المقاومة كانت قبلية ولا يوجد تنسيق بين حركات المقاومة المختلفة وهذا العامل من أهم عوامل ضعف المقاومة هذا باختلاف منطقة الريف التى تزعم المقاومة فيها الأمير (محمد بن عبد الكريم الخطابى) من سنة ١٩٢١م وإلى سنة ١٩٢٦م فهى رغم تركزها فى منطقة الريف المراكشى إلا أنها بلغت بأهدافها ومثلها مستوى حركة قومية عامة ولا نبالغ إذا قلنا أنها تجاوزت ذلك

إلى مستوى فكرة الدفاع عن شمال أفريقيا خاصة والعالم الإسلامى عامة ضد التوسع الأوروبى[1] .

اليقظة الإسلامية فى منطقة الريف المغربى :

منطقة الريف المغربية هى حوالى سبع السلطنة المغربية فإذا كان تعداد المغرب فى مطلع هذا القرن حوالى ٧ ملايين فكانت منطقة الريف حوالى المليون ومنطقة الريف قليلة الثورة حتى قيل أنه لا ريف فى الريف وإذا كان الريف هو الخصب والمياه والخضرة فإن ريف المغرب عبارة عن سفوح جبال لا تجرى فيها الأنهار مثلما الحال فى سفوح جبال الأطلس التى تجرى بها المجارى المائية وأعظم مدنها هى (سبته) و(مليلة) ومنها (تطوان) (العرائش) وهى مدن ليست على مستوى مدن المغرب الأخرى مثل (فاس)، (الرباط) ، (الدار البيضاء) ، (مراكش) والريفيون شعب من الزراع والرعاه وهم يعيشون فى قرى تبنى منازلها بأغصان الأشجار والطين وبلاد الريف وعرة المسالك كثيرة الأودية والمرتفعات الشاهقة وهى قطعة من الأرض يبلغ طولها نحو ٣٠٠ ميل وعرضها نحو ٧٠ ميل إلى الشرق من طنجة ولم يكن فى داخلها فى هذه الأثناء طرق معبده وكان بها قبائل مختلفة النزعات عندما ظهر محمد بن عبد الكريم الخطابى متزعما للجهاد فيها ضد الأسبان تمكن من توحيد نزعاتها وجمع شتاتها وضم أطرافها فأصبحت كتلة واحدة تأتمر بأمره ، وتحارب الأسبان إلى جانبه فأستطاع الخطابى أن يزيل من بين القبائل الضغائن والخصومات .

و(محمد بن عبد الكريم الخطابى) أمير الريف هو من (بنى ورياغل) وورياغل هذه اسم قبيلة من القبائل الريفية العاتية وأصل هؤلاء من الأندلسيين الذين هاجروا بعد سقوط الأندلس ومحمد بن عبد الكريم تلقى دراسته الأولى

(بجامعة القروين) بفاس وهى الجامعة الإسلامية العريقة فى المغرب ثم اتصل بالمدن التى تسيطر عليها أسبانيا فى شمال المغرب وأطلع على بعض النواحى الثقافية الأوربية وعهدت إليه الإدارة الأسبانية بترجمة إحدى الصحف الأسبانية إلى العربية كان أبوه (عبد الكريم) زعيما لقبيلة ورياغل وتوفى أبوه فى سنة ١٩٢٠م واصطدم محمد بالأدارة الأسبانية فى (مليله) حتى إنتهى به الأمر إلى السجن ولكنه استطاع الفرار من السجن وخرج مصمما على الأنتقام وتولى زعامة قبيلة (ورياغل) بعد وفاة أبيه ولم يمضى زمن طويل على زعامته للقبيلة حتى اكتسب نفوذا واسعا بين أهل البلاد وذلك لتوفيقه فى المعارك الأولى التى أشتبك فيها مع الأسبان وترجع أولى تلك المعارك إلى شهر مايو ١٩٢١م حين انتصر الأمير على القوات الأسبانية عند منطقة (إيران) إحدى المراكز الأستراتيجية الجديدة التى أهتم الأسبان بأنشائها داخل بلاد الريف وشجع هذا الأنتصار الخطابى على مهاجمة المراكز الأسبانية الأخرى خاض عدة معارك وعلى رأسها (معركة الأنوال) التى تعد من الوقائع الحاسمة فى تاريخ شمال أفريقيا حيث أباد الأمير الخطابى الحملة الأسبانية بأسرها بما فيها القائد (سليفتر) ومنذ ذلك الوقت ذاعت شهرة الأمير وسلمت له قبائل الريف الأخرى بالزعامة وهبت معه قبائل الريف لمحاصرة المراكز الأسبانية المبعثرة فى أنحاء المنطقة وفى مدى ٥ أيام كانت الريف قد طهرت تقريبا منها وصلت طلائعهم إلى ضواحى (مليلة) وأسر المجاهدون عددا كبيرا من الأسبان مما اضطر حكومة (مدريد) إلى دفع مبالغ ضخمة كفدية لهم أصبح وجود الأسبان قاصرا على مدينة تطوان الموانى وبعض الحصون فى منطقة الجباله .

ويعزو الأسبان وقوع هذه الكارثة إلى أمرين:

أولا: طبيعة البلاد الصعبة .

ثانيا: الفساد الذى كان منتشرا فى صفوف الجيش الأسبانى وإدارته .

ومع صحة هذا التعليل إلى حد كبير فإن الكتاب الأسبان يتجاهلون عاملا ثالثا ربما كان أهم فى توجيه تلك الحوادث وهو أن زعيم المقاومة الجديد محمد بن على الكريم الخطابى كان يختلف عن سابقيه من المجاهدين فى أنه اتجه إلى تأسيس إدارته المنظمة والأستفادة من أحدث وسائل الحرب فى مقاتلة العدو وحاول أن يعطى لدولته صفة وطنية عامة حتى أشتهرت عند الكتاب المغاربة بإسم جمهورية الريف [1] .

وكان من نتيجة هذه المعركة أن عدل الأسبان عن خطة الاحتلال الشامل للريف المغربى .

وقد وجد الأمير الخطابى بعد إجلاء الأسبان عن الريف منطقة متصلة حاول أن يؤسس فيها دولة منظمة حتى وصفها علال الفاسى بأنها (جمهورية رئاسية) ولكن هذا الوضع آثار مسألة سياسية هامة كانت وما تزال تؤثر فى حياة المغرب وهو موقف الخطابى من البيت المالك فبعض الكتاب [2] ينسب للخطابى الإعتراف بمبدأ السيادة السلطانية ويستدل على ذلك بأنه لم يعلن نفسه سلطانا ولكن السلاطين من الأسرة العلوية لا يثقون بذلك ويعتقدون أنه ضد العرش فأستمر سوء التفاهم بينهم وبين الخطابى .

---

(١) صلاح العقاد ، مرجع سبق ذكره ص ٢٨٣ ـ ٢٨٤ .

(٢) علال الفاسى ، فى كتابه الحركات الاستقلالية فى المغرب العربى ، المغرب العربى.

أما عبد الكريم نفسه فينفى أن يكون قد تطلع إلى عرش المغرب بدليل أنه منع أنصاره من الخطبه بأسمه فى صلاة الجمعة وأنه كان مستعدا لقبول الأسرة الملكية الحاكمة على أن يبايع الوطنيون بعد تحرير البلاد السلطان الذى يحقق أهدافهم [1] وأعلن الخطابى بأنه لا يعترف بالحماية الفرنسية وطالب الأسبان بالجلاء عن مناطق المغرب ما عدا (سبته) و (مليلة) وأعلن لجميع الدول أنه ينوى الإستفاده من الفنيين الأوربيين فى بناء دولته واستغلال ثروتها وشجع الخطابى فعلا بعض شركات التعدين على العمل فى الريف وأيدته بعض الأوساط الرأسمالية فى أوربا وسبب ذلك أرتباط مصالحها بمشروعات الريف .

وقد ألف مجلسا من رؤساء القبائل وجعل الوزراء مسئولين أمامهم واتبع وسائل الشورى وكان هذا هو السبب فى وصف دولته بأنها نظام جمهورى .

ولقد أثرت هذه الحوادث على أوضاع أسبانيا الداخلية ذاتها فهى التى مهدت لوقوع الأنقلاب العسكرى فى أسبانيا سنة ١٩٢٣م وأعلن القائمون بالأنقلاب بعد إستيلائهم على السلطة بأن هدفهم هو القضاء على الفساد الداخلى ومحو العار الذى أصاب أسبانيا فى المغرب .

ولم يقف الخطابى عند هذا الحد وإنما قام فى صيف سنة ١٩٢٤م بهجوم عام على الأسبان وكانت (تطوان) أول أهداف هذا الهجوم وقد نجحت قواته فى الوصول إلى ضواحى المدينة وسقطت قنابل مدفعيتها فى شوارعها ولكنها عجزت عن أحتياج أسوارها وكان من نتيجة هذه المعركة أن قرر الأسبان إخلاء ما تبقى من إقليم الجبالة الذى كان واقعا تحت سيطرتهم وكانت مهمة الأنسحاب صعبة لأنهم فقدوا فيها عددا كبيرا من الجنود وهكذا

---

(١) صلاح العقاد ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٨٤ .

ثبت عجز الأسبان الكامل عن النيل من دولة الريف الناشئة .

موقف فرنسا :

ولكن فرنسا نظرت إلى قيام دولة مغربية مستقلة بعين ملؤها الريبة والخوف ولم تكن مطمئنة منذ البداية إلى حركة الأمير الخطابى وظلت تتوقع أن يتمكن الأسبان من القضاء عليه يوما ما لكن الأمير الخطابى حرص على تجنب الاصطدام بالفرنسيين وإن كان يعلن أنه غير راضى عن الحماية الفرنسية على مراكش ولما يئس الفرنسيون من محاولات الأسبان القضاء على الخطابى رأوا من الضرورى أن يتدخلوا ضد دولة الريف وبدأ الفرنسيون يقيمون مراكز عسكرية فى وادى ورغة فى إبريل ١٩٢٤م وهو يقع فى منطقة النفوذ الفرنسى واستنجد كثير من سكان هذا الوادى بحكومة الريف المستقلة وكانت بلاد الريف تعتمد إلى حد كبير فى تموينها على ما ينتجه وادى ورغة الخصيب من القمح .

لكن الخطابى تجنب الأصطدام بفرنسا إدراكا منه بعجزه عن مواجهة دولتين كبيرتين فى وقت واحد وإن كان أخذ الاحتياطات الحربية اللازمة للدفاع عن بلاده .

لكن الفرنسيين أخذوا يمدون خصومه بالمال والأسلحة حتى يشجعون على إثارة الاضطرابات فى دولة الريف وأدى هذا إلى مهاجمة هؤلاء الخصوم بإحدى الزوايا الدرقاوية قرب الحدود وجد الفرنسيون الفرصة سانحة للتدخل بحجة حماية أنصارهم ولما أخذ القتال يتسع فوجئ الفرنسيون بحسن تنظيم عدوهم الجديد الذى يختلف تماما عما صادفوه من حركات المقاومة فى شمال أفريقيا واضطروا إلى إلتزام موقف الدفاع مدى ٤ أشهر وحاصرت قوات الخطابى مركز قيادتهم فى عين عائشة وتحمل الفرنسيون خسائر فادحة فى هذه

الأصطدامات الأولى .

وصمدت دولة الريف الصغيرة سنة كاملة من مايو ١٩٢٥م إلى مايو ١٩٢٦م أمام دولتين أوروبيتين كبيرتين وهذه تعتبر حالة نادرة فى تاريخ الحروب الاستعمارية لا فى شمال أفريقيا وحدها بل فى قارتى أفريقيا وآسيا عموما وذلك يرجع إلى قدرة رجال الريف وكفاءة زعيمهم الخطابى فى ميدان الإدارة والحرب وقد استعمل مجاهد الريف خطوط الخنادق المحصنة على نمط تلك الخطوط التى أقامتها فرنسا فى بلادها أثناء الحرب العالمية الأولى .

وتحول الفرنسيون من الموقف الدفاعى إلى الهجوم فى سبتمبر ١٩٢٥م وطلبوا من سلطان المغرب (مولاى يوسف) إعلان أمير الريف أحد العصاة الخارجين عن السلطة الشرعية فأنصاع لطلبهم وهذه نقطة سوداء فى تاريخ هذا الرجل .

وبدأت فرنسا تنسق مع أسبانيا من أجل محاصرة دولة الخطابى الناشئة ولهذا الغرض عقد مؤتمر خاص فى مدريد سنة ١٩٢٥م من أجل تنسيق العمليات الحربية بين القيادتين الفرنسية الأسبانية ومكافحة تجارة الأسلحة بين دولة الريف وأوربا ومما يدل على تكاتف الدول الأوربية كلها ضد أى أقليم أسلامى يريد أن يرفع رأسه ضد الاستعمار الأوربى أن الأسطول البريطانى أشترك فى أعمال المراقبة فى مياه طنجة الأقليمية لئلا تدخل أسلحة إلى قوات محمد عبد الكريم الخطابى وحصاره حصارا شديدا .

وبدأ مجرى القتال يتحول بسرعة لصالح الغزاه وفى ٥ سبتمبر ١٩٢٥م نجح الأسبان بمعاونة البحرية الفرنسية فى إنزال جنودهم إلى مكان قرب خليج الحسيمات الذى يمتد فى قلب بلاد الريف ولم يكن أمام الريفيين سوى عرقلة تقدم الأسبان على البر ولكن الأسبان نجحوا بعد صعوبات جمة فى الاستيلاء

على أغدير عاصمة الأمير الخطابى فى شتاء سنة ١٩٢٦م أى فى الوقت الذى تستحيل فيه العمليات الحربية فى بلاد الريف وطلب الأمير الخطابى عقد هدنة لإنهاء النزاع عن طريق المفاوضات ولكن الأسبان وجدوا أنفسهم على وشك تحقيق رغبتهم فى الانتقام ففرضت الدولتان أسبانيا وفرنسا عليه شروطا قاسية كانت كفيلة بصرف الأمير الخطابى عن قبولها ومن هذه الشروط :

١ ـ الاعتراف بإستقلال الريف الإدارى فى حدود المعاهدات الدولية ومعنى هذا قبول مبدأ الحماية .

٢ ـ الاعتراف بسيادة السلطان المغربى المتعاون مع الاستعمار الفرنسى .

٣ ـ مغادرة الأمير الخطابى للبلاد .

٤ ـ تجريد قبائل الريف من السلاح .

لكن الأمير الخطابى فاجأهم بقبول هذه الشروط كأساس للدخول فى المفاوضات وضرب بذلك مثلا رائعا من أمثلة إنكار الذات وذلك على أمل أن يحف لأهل الريف قدرا من الاستقلال الذاتى وعلى الرغم من أنه تم عقد مؤتمر فى وحده فى ١٨ أبريل سنة ١٩٢٦م للتفاوض بشأن إنهاء النزاع إلا أن الأسبان والفرنسيين أخذوا يقدمون مطالب متعسفه أثناء المفاوضات مما أدى إلى فشل المحادثات وتوقفت بعد أسبوعين .

وأستأنفت الدولتان القتال وزحفت على حصن ترجست الذى إتخذه الأمير مقرا له بعد سقوط أغدير وتم الاستيلاء عليه فى ٢٣ مايو ١٩٢٦م وبعدها سلم الأمير نفسه للفرنسيين لأنه وجد أن قبائل الريف قد أنهكت بسبب طول الصراع وأنها غير مستعدة فى المضى فى حرب العصابات والذى جعله يسلم نفسه للفرنسيين دون الأسبان هو أنه كان الأسبان يطالبون بمحاكمته كعاصى يستحق الاعدام أما الفرنسيون فقد اعتبروه أسير حرب وأكتفوا بنفيه إلى مستعمرة جزيرة (ريونيون) فى المحيط الهندى الذى ظل بها حتى سنة ١٩٤٧م

وبعدها تقرر السماح له بالإقامة فى فرنسا وعندما وصلت الباخرة التى تنقله من منفاه إلى فرنسا عندما وصلت إلى بور سعيد ألتجأ إلى السلطات المصرية التى رحبت بإقامته فى القاهرة وواصل كفاحه بالكلمة من القاهرة حيث شارك فى لجنة المغرب العربى وتوفى بالقاهرة سنة ١٩٦٣م .

جهود المغرب من أجل الاستقلال :

بعد أن فشلت عمليات الجهاد المسلح التى قام بها عبد الكريم الخطابى فى المغرب بدأ المغارب فى العمل فى ميدان الكفاح السياسى وكان من الذين قادوا العمل فى هذا الميدان (أحمد بلا فريج) الذى ألف جماعة أنصار الحق وهى الجماعة التى أراد أحمد بلا فريج بتكوينها زيادة الوعى السياسى بين الأهالى وكان موطنها الرباط عاصمة المغرب الجديدة .

ثم ظهرت حركة نشطة أخرى فى فاس العاصمة الدينية والتقليدية للمغرب وكان يقودها (علال الفاسى) وقد عملت هذه الحركة على نشر الدعوة السلفيةأولا ثم تحولت من دعوة دينية تحارب الجمود وتطالب بالإصلاح إلى حركة سياسية تحررية تحارب الإستعمار ثم أنشأ المغاربة من رجال المجموعتين (كتلة العمل المغربى) وهى تكتل إسلامى نظرت إليه فرنسا على أنه اكبر خطر يتهددها فى المنطقة لأن التكتل معناه الإتحاد هى لا تريد للمغاربة أن يتحدوا فعملت على فصل العرب عن البربر ولذلك أصدرت مشروع (الظهير البربرى) الذى كان يقضى بتعليم اللغات البربرية فى مناطق البربر علاوة على تطبيق العرف والتقاليد البربرية التى كانت سائدة قبل الإسلام، فى الوقت الذى تحاول فيه تطبيق القانون المدنى فى المناطق العربية.

ولما كان (الظهير البربرى) قد مس معتقدات الأهالى قامت المظاهرات ضد الفرنسيين واعتقلت القوات الفرنسية القادة وتراجعت فرنسا وأعلنت أن تطبيق (الظهير البربرى) هو أمر أختيارى ويعود إلى رجال البربر أنفسهم وحاولت الحركة الوطنية فى المغرب إجتذاب السلطان (محمد

الخامس) الذى تولى العرش فى سن مبكرة عند وفاة والده سنة ١٩٢٧م وكان هو الإبن الثالث (لمولاى يوسف) وكان وصوله إلى العرش وهو الأصغر عن طريق الفرنسيين لكى يخضع تماما لهم لكن الملك اثبت انه زعيم شعبى وقائد وطنى وإمام إسلامى .

ولذلك ركزت الحركة الوطنية على نقد الإدارة الفرنسية المباشرة وطالبوا بتنفيذ روح الحماية التى تشمل على قصر النشاط الفرنسى فى البلاد على إعطاء التوجية والإرشاد وترك الباقى لأبناء البلاد وطالبوا بإنشاء مجالس بلدية ومجالس للطوائف على أن يكون ذلك خطوة للوصول إلى الحكم النيابى [١].

وفى سنة ١٩٤٤م أنشأ حزب الاستقلال وطالب بالأستقلال التام وأيده الملك (محمد الخامس) الذى تولى قيادة الحركة الوطنية بنفسه مع زعماء البلاد ولذلك قامت فرنسا بنفيه إلى جزيرة (كورسيكا) ثم إلى جزيرة (مدغشقر) فى حين كان علال الفاسى وزملائه قد خرجوا إلى أوربا والبلاد العربية يناضلون ، وأشتد الكفاح المسلح داخل البلاد مما اضطر الفرنسيين إلى أطلاق صراح محمد الخامس ودعوته إلى فرنسا للتفاوض على الاستقلال وعاد الملك إلى عرشه سنة ١٩٥٥م وفى سنة ١٩٥٦م عقد مع فرنسا معاهدة استقلال المغرب ثم ذهب إلى أسبانيا حيث تم الاتفاق على تحرير المنطقة الشمالية[٢] .

٢.الطريقة القادرية :

أما القادرية فهى أوسع الجماعات الإسلامية انتشارا فى أفريقيا أسسها عبد القادر الجيلانى (٤٧١ ـ ٥٦١ هـ) ١٠٧٨ ـ ١١٦٦م ولد فى جيلان بطبرستان وانتقل إلى بغداد وتعلم بها وتصوف وتوفى بها . ودخلت القادرية

---

(١) د. جلال يحيى ، العالم العربى الحديث ، الجزء الثانى ، ص ٧٠٥ ـ ٧١٣ .

(٢) د. حسين مؤنس ، أطلس تاريخ الإسلام ، ص ٤٢٣ .

فى أفريقيا العربية فى القرن ١٥ فى (ولاته) على أيدى المهاجرين وهى أول مركز لهم ، ثم (تمبكتو) وفى مستهل القرن ١٩ نجد أن اليقظة الاسلامية الكبرى التى كانت تعم العالم الاسلامى بدأت تدفع بالقادرية الذين كانوا يقيمون فى الصحراء الكبرى وفى السودان الغربى إلى حياة ونشاط جديدين ، ولم يمضى زمن طويل حتى وجدنا كثيرا من فقهائهم قد انتشروا فى أرجاء السودان الغربى من السنغال إلى مصب نهر النيجر ، وأقاموا المراكز لتنظيم دعوتهم .

ورحب الوثنيون بدعاة القادرية بأعتبارهم فقهاء وكتاب ومعلمين وسرعان ما تطور الدخول إلى الإسلام من حالات فردية إلى جماعات يدخلون الإسلام وكانوا يبعثون بأبنائهم إلى مدارس ويشرفون عليها .

وكان نشاطهم فى الدعوة ذا طابع سلمى للغاية ، يعتمد كل الاعتماد على الأرشاد وعلى أن يكون الواحد منهم قدوة لغيره ، كما كان يعتمد على مبلغ تأثير المعلم منهم فى تلاميذه [1] وبهذه الخطة برهن دعاة القادرية فى السودان على أنهم أوفياء لمبادئ مؤسس الجماعة ولتقاليدها العامة ذلك لأن أهم المبادئ كانت تسيطر على حياة عبد القادر هى حب الجار والتسامح معه حتى ولو كان مسيحيا .

الفصل السابع

الفصل السابع

اليقظة الاسلامية فى النيجر ونيجريا والكمرون

وقد اسس رجال القادرية دولا إسلامية كبيرة مثل (عثمان دان فوديو) (١٧٥٤ـ١٨١٨م) فى النيجر ونيجيريا والكمرون الذى أقام (دولة الفولانى) فى بلاد الهوسا (الحوصا) فى نيجيريا الشمالية وكان قد حج وتأثر بالدعوة الوهابية فى محاربة البدع والخرافات ، وسلح اتباعه وكون دولة استمرت نحو قرن من الزمان حتى قضى عليها الاستعمار البريطانى وهاجم فى نفس الوقت رذيلتين كانتا منتشرتين فى السودان ، هما شرب الخمر وفساد الخلق .

وكانت جماعة (الفولانى) تتألف من عدة قبائل صغيرة متناثرة تحيا حياة رعوية ، وقد دانت هذه الجماعة بالاسلام فى وقت مبكر ، وكانت لا تزال حتى ذلك الوقت قانعة بتكوين مستعمرات من الرعاة والزراع فى مختلف بقاع السودان ، فكأنهم من هذه الناحية يشبهون السنوسية من ناحية النشاط الزراعى حول زواياهم .

ويتحدث عنهم أحد الرحالة الذين زاروا موطنهم على نهر الجمبيا سنة ١٧٣١م «فى كل دولة أو بلد على كل من جانبى النهر توجد جماعة ذات بشرة حمراء يدعون الفولز (أى الفولانى) وهم يشبهون العرب ومعظمهم يتكلم العربية لأنهم يتعلمونها فى مدارسهم ، ولأن القرآن ، وهو أيضا شريعتهم مكتوب بهذه اللغة ، وإلمامهم على وجه العموم أكثر بالعربية من إلمام أهل أوربا باللاتينية ، إذ أن معظمهم يتكلمها ، مع أن لهم لغة غير مهذبة تسمى فولى ، ويعيشون قبائل أو عشائر ويبنون لأنفسهم مدنا ولا يخضعون لأى ملك من ملوك البلاد التى يقيمون فيها مع أنهم يعيشون فى أراضى هؤلاء الملوك ،

وذلك لأنهم كانوا إذا أسئ إليهم فى قوم هم يعيشون بن ظهرانيهم هدموا مدنهم وارتحلوا إلى قوم آخرين ولهم رؤساء من أنفسهم يحكمونهم حكما معتدلا إلى جد أن كل عمل تقوم به الحكومة يبدو كأنه عمل الشعب أكثر من أن يكون عمل فرد من الأفراد وهذا النوع من الحكومات يدار دولابه فى سهولة ويسر لأن الأهالى أصحاب طبيعة هادئة ولأنهم تعلموا جيدا ما هو عدل وما هو حق ، حتى إن من يقترف الشر منهم يكون موضعا لكره الجميع . وهذه الجماعة على جانب كبير منّ النشاط الاقتصادى يزرعون من القمح والقطن أكثر مما يفى بحاجتهم ، ويبيعونه بسعر معتدل ويشتهرون بالكرم إلى حد أن مواطنيهم يعتبرون أن من نعم الله عليهم أن تكون بجانبهم بلد من بلاد فولى وفوق هذا أكسبهم سلوكهم حدا من الشهرة يجعل من العار أن يعاملهم أحد معاملة غيرْ كريمة ، ومع أن أنسانيتهم تعم كل الناس ، فشفقتهم بأبناء جنسهم مضاعفة ، وإذا علموا أن أى فرد من جماعتهم قد أخذ رقيقا اتحدالفلانى جميعا وحرروه ولوفرة الغذاء عندهم لا يدعون أبدا واحدا منهم يقاسى الحاجة، بل إنهم يعولون المسن والأعمى والأعرج ويساون بينهم وبين الآخرين وقلما يغضبون ، ولم أسمع مطلقا واحدا منهم يسب الأخر ، ومع هذا فلم تكن وداعتهم صادرة عن حاجة إلى الشجاعة إذ أنهم شجعان كأى شعب فى أفريقية وهم مهرة جدا فى استعمال أسلحتهم ، وكانوا يستخدمون أسلحة تتكون من الزغايات والبطغاغات القصيرة ، والقوسى والنشابه ، بل يستخدمون النبادق فى بعض الأحيان وهم مسلمون متمسكون بدينهم » [1] .

---

(١) د. جلال يحيى ، العالم العربى الحديث ، الجزء الثانى ، ص ٧٠٥ ـ ٧١٣ .

حركة الاصلاح على يد عثمان فوديو

عثمان بن محمد فوديو :

ولد عثمان فوديو سنة ١١٦٩هـ فى قرية «طفل» بإمارة «غوبير» بنيجيريا وكان بيته بيت علم وفتوى أسلم أجداده منذ زمن طويل وتفقه أبوه فى الدين واشتغل بالعلم واشتغل به بيته كله حتى زوجته وأولاده ، وشب فى هذه البيئة المتدينة فأولع بالعبادة والذكر ، ونشأ نشأة دينية خالصة ، ثم بدأ يخطو خطواته الأولى فى طريق العلم والثقافة ، فتلقى دروسه الأولى على أبيه وجدته رقية وأمه حواء ؛ ذلك لأن نساء الطوارق والفولا يتمتعن بنصيب وافر من الحرية والعلم ويتعلمن كما يتعلم الرجال سواء بسواء .

وأقبل عثمان فوديو على علوم العربية يستزيد منها ، وأخذ الاعراب عن الشيخ عبد الرحمن بن حمداء ، وتلقى الفقة على محمد تبو ابن عبد الله ، ثم ارتحل إلى الشيخ جبريل بن عمر ولازمه ثم عاد إلى بلاده ، وسمع التفسير فى زنفر ، ثم درس الحديث فى الصحيحين [١] .

وبعد أن أتم تعليمه بدأ يتجه إلى إصلاح حال قومه من قبائل الهوسا الذين كانوا يخالطون الوثنيين دون حرج ويقلدهم العامه ، ويتشبهون بهم ، وظهر الدين تشوبه البدعة والخرافات والجهل ، وسمع عن الحركة الوهابية السلفية فى بلاد العرب وكانت قد انتشرت فى الحجاز ، وذاعت مبادئها فى الاصلاح ، فرحل إلى الحجاز ودخل مكة فاستمع إلى دعاة الوهابيين وتحمس لمبادئهم ، فاتجهت نفسه لتقليدهم فى دعوتهم فى بلاده وايقاظهم من

---

(١) توماس أرنولد ، الدعوة إلى الإسلام ، ص ٣٦٥ ـ ٣٦٦ .

(١) د. حسن أحمد محمود ، دور العرب فى نشر الحضارة فى غرب افريقيا ، بحث منشور فى مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، مجلد ١٤ لسنة ١٩٦٨ ،

غفلتهم ومحاربة الجهل والبدع والخرافات المتفشية فى افريقيا .

لكنه سلك فى البداية سبيل الحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتى هى أحسن ، فأخذ يدعو إلى الاسلام ويحض الناس على التمسك بمبادئه ، وازدادا أتباعه ومريدوه بالتدريج وكان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر وتاب على يديه خلق كثير فازداد عدد أنصاره .

ووسع دائرة دعوته فذهب إلى الحكام والأمراء المعاصرة له يحضهم على اصلاح أحوال المسلمين ومحاربة البدع والخرافات ونشر الاسلام بين الوثنيين، وإعادة المجتمع الاسلامى إلى بساطته الأولى ، وعرف عنه أنه كان يلتزم الشورى فى أعماله كلها . وكان متقشفا زاهدا فى عرض الدنيا الزائل ، وينفى عن نفسه بقوة أنه لا يعمل من أجل الملك ، ويذكر أن العناية اختارته لإصلاح الاسلام وإعادة القوة إلى الجماعة الاسلامية .

وكان أمله أن يتحالف مع أمير من أمراء نجيريا لتقوية حركته فاتجه إلى أمير (غوبير) وطلب منه أن يعاونه فى أحياء الدين وإقامة العدل ، وكاد ينجح لولا وشاية الحاقدين عليه ، فاتجه إلى أمارة (زنفر) و (كب) فأسلم على يديه عدد كبير من الوثنيين وزاد أتباعه وفى النهاية أمروه بالخروج من بلادهم فلجأ إلى الصحراء بأتباعه ، فتعقبه أمراء الهوسا يحاربونه [1] .

وهنا بدأت المرحلة الثالثة من دعوته عندما بايعه أتباعه للدفاع عنه والجهاد فى سبيل الله ولقب بأمير المؤمنين ، ووجدت هذه الحركة استجابه فى جميع أنحاء نيجيريا ، ووجدت قبائل وعشائر الفولانى فى حركته وسيله لاتحادهم بعد تفرقهم .

---

(1) ص ٩٢ .

وتزعم ملك (غوبير) المعارضة ضده ،فأعلن عثمان فوديو الجهـ
رسميا سنة ١٨٠٦م ، فبدأ بمدينة (كانو) فهاجمها وهزم أميرها هزيمة ساحقه
واستولى عليها وولى أحد أتباعه من الفقهاء أميرا عليها ، ثم هاجم امارة
(زاريا) وفتحها سنة ١٨٠٧م ، واستولى على منطقة ([illegible]) واتخذ هذه
المدينة قاعدة لدعوته ، واستولى على (زنفر) و (غوبير) .

وفى سنة ١٨١٠ استطاع أن يخضع جميع امارات الهوسا لنفوذه ،
وبفضل هذه الدعوة انتشر الاسلام فى جنوب نيجيريا ، وبهذه البلاد اليوم
ملايين المسلمين الذين دخلوا فى الدين على نطاق واسع بفضل هذه الحركة
الاصلاحية الكبيرة .

وتم بفضلها نشر الحضارة الاسلامية والثقافة العربية فى غرب افريقيا ،
وألف عثمان فوديو نفسه حوالى عشرين كتابا فى مجال أصول الدين واحياء
السنة ونبذ البدع والخرافات والجهاد والتصوف والفقة ، وغيره من العلوم
الاسلامية .

تبدو آراء عثمان فوديو الإصلاحية فى إدارة الحكومة فيما كتبه من
المؤلفات ولا سيما فى رسالة عنوانها : « الفرق بين ولاية أهل الإسلام وأهل
الكفر » وهى مخطوطة كتبها بالخط العربى .

يقول المصلح عثمان فى كتابه هذا :

«أقول بعون الله أن دعائم الحكومة خمس : الأول ـ أن القوة (السلطان)
لا تمنح لمن يسعى إليها ، الثانى : الحاجة إلى الشورى . الثالث : التخلى
عن القسوة ، الرابع : العدل ، الخامس : الأعمال الصالحة » .

ويقول عن النظام الحكومى ما يلى :

« ينبغى أن تقتصر أعمال الحكومة على أربعة وزراء أولهم : وزير مخلص للأمانة العامة عليه أن يوقظ الحاكم إذا نام ، وأن تجعله يبصر إذا عمى وأن يذكره إذا نسى ، يا سوء حظ الحكومة والشعب إذا ابتليت بوزير غير أمين ، وأهم صفات هذا الوزير الرحمة والعطف نحو الناس .

ثانى الوزراء ! القاضى الذى يخشى الله . ثالثهم : رئيس الشرطة الذى يعطى كل ذى حق حقه ويناصر الفقراء ضد جشع الأقوياء . والرابع : هو المسئول عن جباية الضرائب فى نطاق واجبه المرسوم فلا يعسف أحدا » .

وقد نجح الزعيم عثمان فى دعوته نجاحا لم يحققه أى زعيم آخر فى موطنه فوحد كلمة الشعوب المتنافره وهذب السلوك الدينى ويمكن القول بأنه فى عام ١٨١٠م وصل جهاد عثمان إلى دروته واعتقد أنه أدى رسالته فوجه عنايته إلى تنظيم دولته فى أنحاء امبراطورية الفولا وقسم إدارة بلاده إلى قسمين:

قسم يشرف عليه شقيقه عبد الله وآخر يشرف عليه ابنه محمد بللو ثم تفرغ الشيخ للكتابة والتأليف (١) .

وهكذا امتدت اليقظة الإسلامية إلى شرق أفريقيا وأيقظت الشعور الإسلامى فى عدة مناطق وأقامت دولا كان لها دور كبير فى مواجهة الاستعمار الغربى عندما نزل بهذه المناطق ، كما كان لها دور كبير فى القضاء على الخرافات والخزعبلات التى لحقت بالدين الإسلامى فى فترة من فترات الضعف فى بلدان غرب أفريقيا نظرا لبعدها عن المراكز الحضارية فى قلب العالم الإسلامى [illegible] فاس والقيروان والقاهرة وبغداد ودمشق ومكة والمدينة والذى ساعد على هذه اليقظة تلك البعثات التى كان يقوم بها أبناء هذه المناطق

(١) المرجع السابق ، ص ٩٥ .

إلى الأزهر فى القاهرة ومكة والمدينة لأداء شعائر الحج وللتزود بالعلوم الإسلامية ولذلك كانت حركات زعماء هذه النهضة تدعو إلى العودة بالاسلام إلى ماضيه المشرق وكانت غاية عثمان وخلفائه وأمثالهم تهدف إلى تكوين مجتمع إسلامى فى نظمه وتقاليده وتعاليمه .

كان الفولانيون شعب من الرعاة موطنه الأصلى فى حوض السنغال وأصلهم من بربر الصحراء جنوبى بلاد الفولا وهم من قبيلة صنهاجة الصحراء ولعل اسم السنغال جاء من صنهاجة مع بعض التحريف وأسلموا على يد المرابطين وقد انتشرت فروع هذا الشعب وجماعاته فى كل المساحة الواسعة الممتدة من السنغال إلى إقليم تشاد واشتهرت منهم أربعة فروع كبيرة هى :

١ ـ الفولانيون السنغاليون المعروفون بفولا فوتاتورو .

٢ ـ الفولانيون الغينيون المعروفون بفولا الفوتاجلون .

٣ ـ الفولانيون فى إقليم ماسينا وبلاد الحوسى [(١)] (الهاوزا) فى نيجيريا .

٤ ـ الفولانيون فى أدماوة فى شرقى نيجيرا .

وأهم جماعات الفولانيين هى الجماعة الرابعة التى [(٢)] كانت بحق من أنشط الجماعات القبلية السودانية للعمل على نشر الإسلام وتوسيع رقعته فى بلاد السودان الغربى وفى منتصف القرن الثامن عشر كانت هذه الجماعة قد

(١) د. عبد الرحمن زكى ، الإسلام والمسلمون فى أفريقيا ، ص ٩٨ ـ ٩٩ .

(١) (الهاوزا) ليس اسم جنس معين بل هو اسم لغة اشترك فى الكلام بها عدد كبير من القبائل فى المنطقة التى تمتد شرقى نهر النيجر حتى تشاد ومعظم بلاد الحوسى تقع اليوم فى جمهورية نيجيريا ، ولها عدة أشكال فى الكتابة : الحوصى ، والحوسى ، والهاوزا .

استقرت فى إقليم - (جوبير) وهى منطقة داخلة فى بلاد الحوسى وفى سنة ١٧٥٤م ولد فيها عثمان دان فوديو الذى تربى وتشبع على حب الإسلام والولع على التبحر فى علومه وأشتهر بالتقى والورع مما جذب حوله الأتباع فأسلم على يديه عدد كبير من أهل هذه النواحى واتخذ لنفسه لقب الشيخ وأمير المؤمنين ولما ثارت مخاوف رجال الحوسى منه تحرشوا به فأعلن الحرب عليهم حتى أصبح سيد المنطقة وأكمل الأستيلاء على بلاد الحوسى مثل (كوتسينا) و (زارية) و (نوبه) و (كبة) وأنشأ من ذلك سلطنة إسلامية جعل عاصمتها مدينة (سوكوتو) .

وحاول عثمان دان فوديو أن يستولى على بلاد (البورنو) إلى الشرق ولكن هؤلاء وقفوا فى وجهه بقيادة قائد عسكرى يسمى (الكانمى) وانتهى الأمر بأن اتفق الجانبات على التصالح ووقف القتال وفى تلك الأثناء ظهر فى منطقة الكاميرون شيخ عالم مجاهد يسمى (أداما) أطلق عليه الناس لقب مؤدب الذى ينطقه أهل هذه البلاد (موديبو) ومعناها العالم الفقيه وكان عثمان دان فوديو قد اتم إخضاع بلاد الحوسى واستقر فى عاصمته (سوكوتو) سنة ١٨٠٩م وفى سنة ١٨١١م استدعى موديبو أدما وسلمه رايته البيضاء وهى راية الجهاد ويكلفه بمواصلة الحرب حتى ينتشر الإسلام فيما يلى (نهر البنوى) جنوبا وهو فرع كبير من فروع نهر النيجر فنهض موديبو أداما بالمهمة وأدخل كل ما يعرف بالكميرون فى الإسلام وأصبح اسم ادماوه نسبة ١٩٠١م احتل الإنجليز البلاد وأقاموا رابع أولاده واسمه (موديبو أدماه) أيضا أميرا على تلك البلاد التى أصبحت مستعمرة أنجليزية [1] .

ولما توفى عثمان دان فوديو سنة ١٨١٨م تقاسم ملكه أثنان من أسرته

(٢) حسين مؤنس ، أطلس تاريخ الإسلام ، ص ٣٧٦ .

هما أخوه عبد الله ويكتب اسمه وينطق (عبد ألاى) وابنه (محمد بلو) الذى أخذ يحكم من سوكوتو عاصمة أبيه وقد عرف محمد بلو بأنه رجل علم يؤلف فى التاريخ والدين .

حمادو الشيخ :

كانت فتوحات (عثمان دان فوديو) فى الغرب ذات آثار عميقة على جماعة الفولا الضاربة هناك فقد حركت نفوسهم للدعوة للإسلام وظهر من بينهم داعية مجاهد عظيم يسمى (حمادو الشيخ) فى منطقة الماسينا وأنشأ لنفسه مدينة جعلها عاصمة له سماها (حمد آلاى) أى الحمد لله وتمكن حمادو الشيخ من تنظيم دولته تنظيما دقيقا فقسمها إلى ولايات وأقام على كل ولاية واليا وقاضيا وأنشأ مجلسا للحكم من أربعين شيخا وأضاف إليهم ستين شيخا أخرين من كبار المحاربين وجعل هذه الهيئة مركز السلطة العليا فى البلاد واجتهد فى إقرار الناس فى الأرض وإخراجهم من البداوه وجعلهم يستقرون فى مدن عمروها ، فعمرت البلاد والطرق بمتاجر الفولا وغيرهم والحوسى القادمين من نواحى بحيرة تشاد والتكرور من السنغال والمغاربة من الشمال والطوارق ، وعلى هذه الصورة من الاستقرار والازدهار وجد الرحالة الأوربيون دولة الفولا فى حوض النيجر عندما بدأو يتوغلون فى أراضى القارة مرتادين وزعموا أنهم وجدوا البلاد فى حالة فوضى لتبرير الاستعمار[١] .

الطريقة التيجانية :

أما التيجانية : فتنتسب إلى طائفة نشأت فى بلاد الجزائر حول نهاية القرن ١٨ كونها أبو العباس (أحمد بن محمد بن مختار بن سالم التيجانى) (١٧٣٧ـ ١٨١٥م) ١١٥٠ ـ ١٢٣٠هـ الذى نشأ فى قرية عين ماضى واستقر فى (فاس) وكان مالكيا .

---

(١) المرجع السابق ص ٣٧٧ .

وأما أولى الحركات الحربية التى قام بها أفراد التيجانية فى نشر الدعوة فتعزى إلى (الحاج عمر السنغالى) الذى حج إلى مكة سنة ١٨٢٧ ولم يعد إلى وطنه إلا سنة ١٨٣٣ ومرَّ على القاهرة وزار الأزهر والتقى بكبار علمائه[١] وهاجم شيوخ القادرية لتساهلهم ، وعبر السودان الأوسط فظفر بكثير من الأتباع وسلحهم وبدأ سلسلة من الحملات لنشر تعاليم الدعوة بين القبائل التى كانت تقيم حول النيجر والسنغال وأسس امبراطورية التكرور ، وتوفى سنة ١٨٦٥م وخلفه ابنه (أحمدو شيخو أمادو) الذى حافظ على مملكة أبيه ثم صد عنها المنازعات الداخلية وقدوم الفرنسيين وانتقلت أراضيها إلى المستعمر الفرنسى .

وقد ساعد دخول القانون فى عصر الأستعمار وانتشار النظام فى نيجيريا الجنوبية كل ذلك ساعد على نشر الدعوة إلى الإسلام وكذلك .

الحال فى جهات أفريقية الأخرى التى أصبحت تحت الحكم الأوربى فأستطاع دعاة (الحوسى) الذين ينتسب بعضهم إلى الطريقة التيجانية أن ينتقلوا فى البلاد بحرية وأن ينفذوا إلى القبائل الوثنية التى كانت حتى ذلك الوقت تمنع فى تعصب وصلابة تطرق كل المؤثرات الإسلامية إليها .

وفى فترة الفوضى التى سبقت الاحتلال البريطانى كانت غالبية المسلمين تقيم فى مدن كبيرة تكتنفها الأسوار ولكنهم استطاعوا فى ظل الأمن الجديد أن يستقروا فى القرى على مقربه من أعمالهم الزراعية وعلى هذا النحو أخذ نفوذ الأسلام يزداد إتساعا فى هذه البلاد [٢] .

---

(١) د. إلهام ذهنى ، جهاد الممالك الاسلامية ، فى غرب أفريقيا ص ٤٨ .

(٢) توماس أرنولد ، الدعوة إلى الإسلام ، ص ٣٦٢ ـ ٣٦٣ .

الإسلام فى شرقى أفريقيا

عندما وصل البرتغاليون إلى شرق أفريقيا فى أوائل القرن الخامس عشر الميلادى وكانوا طليعة الغزو الإستعمارى وجدو العرب والمدنية الإسلامية لها مراكز حضارية فى زنجبار وتنجانيقا وكينيا والصومال وسواحل شرق أفريقيا وأيضا فى جزر شرق أفريقيا مثل جزر القمر ومدغشقر ولم يكن هذا الوجود بعد ظهور الإسلام وأنما كان من القرون الأولى لميلاد المسيح فيذكر المؤرخون أن العرب بدأوا فى النصف الثانى من القرن الأول الميلادى يتجرون مع شرق أفريقيا بالعاج والعبيد .

أما بعد ظهور الإسلام فإزدادت هذه التجارة فى شرقى أفريقيا إزديادا عظيما حتى أصبحت بعد قرنين من ظهور الإسلام تشمل ساحل إفريقيا الشرقى كله حتى أطلق عليها الأوربيون مصطلح الإستعمار العربى وتأسس فى أوائل القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) مقديشيو عاصمة الصومال الحالية .

وفى سنة ٩٧٥م جاء الفرس من شيراز وأسسوا (كيلفا) وتوغلوا فى السواحل إلى روديسيا ـ زيمبابوى) طالبين الذهب وانتشروا على طول الساحل الشرقى ووصلوا إلى (مقديشيو) (وباراكا) (وماليندى) (ومنباسة)(وزنجبار) (وبمبا) عند (دار السلام) حاليا وغيرها من المدن ووجدت إمارات فارسية صغيرة بين الإمارات العربية ولما أتى البرتغاليون تلك البلاد وجدوا فيها المدنية الإسلامية راسخة الأقدام .

ولم يقتصر العرب والفرس فى أعمالهم على التجارة بل إشتغلوا بالزراعة وعلموا أهل البلاد غرس الأشجار مثل الكاكاو وعددا لا يحصى من أشجار جزيرة العرب وفارس مثل المانجو والرمان والأترج وقصب السكر وأدخلوا

زراعة القطن والسمسم الهندى والبهارات الهندية وجلبوا كثيرا من حيوانات بلدانهم وبقيت المدنية الإسلامية قرونا طويلة فى هذه السواحل وفى القرن التاسع عشر الميلادى توغل العرب إلى الداخل .

على أن البرتغاليين عندما وصلوا وضعوا حدا للدور الأول من مدنية العرب عندما إحتلوا زنجبار سنة ١٥٠٣ وباركا سنة ١٥٠٤م (وكينيا) سنة ١٥٠٥م (ومنباسة) فى السنة نفسها وكان مقصدها بهذا الإحتلال تأسيس قواعد تجارية للبضائع التى تأتى من الهند ووضع اليد على معادن الذهب وبقى البرتغاليون هم السادة فى تلك السواحل إلى أواسط القرن السابع عشر حيث قاتلهم عرب عمان قتالا شديدا بدأوا به فى سواحل عمان نفسها سنة ١٧٥٠م فلما أجلوهم من هناك هاجموهم فى مستعمراتهم فى شرق أفريقيا وفتحوا زنجبار (ومافيا) (ويمبا) (ومنباسة) ثم إن حروبا داخلية فى عمان حملت (السلطان سعيد ١٨٣٢) سلطان عمان على تحويل عاصمته إلى زنجبار ثم صار ماجد سلطانا لشرق أفريقيا .

وبقى السلطان توين على كرسى مسقط عاصمة عمان فى الجزيرة العربية وهذا سنة ١٨٥٦م ، وهى السنة التى توفى فيها السلطان سعيد ثم توفى ماجد وخلفه أخوه برغش وفى أيام هذا السلطان بدأت الحوادث التى إنتهت بتقسيم هذه السلطنة العربية ، وبالجملة فالسلطنة العمانية التى إستمرت من آخر القرن السابع عشر إلى آخر القرن التاسع عشر قد تمكنت من التوغل داخل أفريقيا أكثر من جميع الدول التى كان العرب يستجلبون لها العمال من داخل البلاد واسس العرب مدنا فى الداخل مثل (طابورة) (وأوجيجى) وغيرها ووصلوا إلى الكونغو الأعلى واسسوا فيها مدنا وقرى وكان لهم هناك جنود مسلحون لحماية قوافلهم ولما ألغيت تجارة الرقيق فى زمان السلطان برغش سنة ١٨٧٣

ساءت حالة الزراعة فى السواحل بسب ندرة العمالة .

ولما بدأت ألمانيا تكون بعض الشركات الإستعمارية فى شرق أفريقيا كان ذلك على حساب سلطنة عمان ففى ٨ أبريل سنة ١٨٨٠م استأجرت الشركة الألمانية الإستعمارية من سلطان زنجبار مكوس السواحل كلها فلما أرادت وضع اليد عليها ثار العرب مع من معهم من الأفارقة ثورة عظيمة لكراهيتهم للجنس الأوربى وكان قائد هذه الثورة الشيخ أبو شيرى .

لكن الألمان أخمدوا هذه الثورة فى سنة ١٨٩٠م[١] .

السواحليون:

لما إختلط العرب والفرس والهنود والأفارقة فى شرق أفريقيا كونوا عنصرا جديدا يسمى (السواحليون) وأصبحت لهم لغة جديدة هى خليط من العربى واللغات الإفريقية الأردية الهندية والفارسية وهذه اللغة الجديدة تسمى (اللغة السواحلية) ونتج عن إختلاط العرب مع السود والفرس والهنود جنس جديد سمر الوجوه تقاطيعهم لطيفة وهم أهل نظافة ينظفون أسنانهم ويغتسلون دائما ولا يستعملون الوشم مثل الزنوج ويختتون لأنهم مسلمون ومن عاداتهم لبس البياض ويجعلون على رؤوسهم غطاءا أبيض وقد يلبسون الطربوش الأحمر ونساؤهم لا يتقبن ولكنهن يأتزرن بشئ اسمه (الشقة) يغطى الجسم ويجعلون على الالحاق شيئا إسمه (كسونو) وهم إجمالا سواء منهم سكان المدن أو القرى لا يشبهون فى شئ سكان الداخل من الزنوج وعندهم أدب وكياسة ومن صفاتهم حسن المعاشرة وقرب الألفة وسرعة العاطفة والبر بالأهل والحنو على الأولاد ويحبون السكن بعضهم بقرب بعض ومنازلهم بغاية النظافة بل الشوارع التى بين بيوتهم نظيفة ويبنون بيوتهم صفوفا ويغرسون أمامها

(١) شكيب أرسلان ، حاضر العالم الاسلامى جـ٣ ص ٧٣ ـ ٧٥ .

صفوفا من الاشجار الكبيرة وأينما وجد السواحلى إعتنى بغرس الشجر .

أكثر أعمال الحقول تقوم به نساؤهم فأما الرجال فيصتادون السمك ويتاجرون بالبضائع أو يحملون الاثقال وبالاجمال تعد هذه الأمة من الامم الموصوفة بالوداعة وعندهم ميل إلى الطرب يحبون الغناء ويعزفون بالطبول .

اللغة السواحلية

اللغة السواحلية،ومن اثار التواجد العربى اللغة السواحلية التى كان أهل ساحل شرق أفريقيا يكتبونها بالحروف العربية ، وأما الآن فتكتب بالحروف اللاتينية ، والسواحلية مزيج من العربية وعدة لهجات من لغة البانتو الافريقية.

ومع ذلك فإن المفردات العربية تصل نسبتها فى اللغة السواحلية حوالى ٢٢٪ بينما المفردات البرتغالية والانجليزية أو الالمانيةوالايطالية بالاضافة إلى الفارسية والهندية مجتمعه لا تتعدى نسبتها فى السواحلية ٦٪ .

ولم يكن هذا الأثر للغة العربية الذى يعادل أضعاف الأثر الذى تركته اللغات الأجنبية الأخرى إلا وليد الاتصال السلمى الهادئ للعرب بإخوانهم الأفارقة على الساحل الشرقى الافريقى .

وقد حاولت الدوائر الاستعمارية الألمانية والبريطانية وغيرها تحريم استعمال اللغة السواحلية فى دواوين الحكومات فى شرق أفريقيا .

ومع ذلك أوضح إحصاء أجراه (مسترولسن) ونشرته جريدة (الفلق) الصادرة فى زنجبار فى عدد ٣ من رجب ١٣٥٨هـ الموافق ١٩ من أغسطس ١٩٣٩م أن ٥٥ شخصا من بين ١٠٠فى جزيرة زنجبار يكتبون بالحروف العربية ، وشخصا واحدا يكتب بالحروف اللاتينية، وسبعة أشخاص يكتبون بكل من الحروف العربية واللاتينية وسبعة وثلاثون شخصا أميا .

ولكن جهود المنصرين الآن تتجه إلى التربص بالمفردات العربية فى تلك اللغة ، وهم بصدد اسقاط الأصول العربية بحجة الوصول إلى لغة سواحلية بانتوية خالصة(١) .

مفردات من العربية فى السواحلية

فى مجال شئون المنزل: سقف . غرفة . صحن

فى مجال الأسرة: عم . بنت . صديق . أهل

فى مجال التجارة: بيع . فائدة . خسارة . رهن . رخيص . غال .

الأعداد: ستة . سبعة . تسعة . عشرون . ثلاثون . أربعون . خمسون . ستون . سبعون . ثمانون . تسعون . مائة .

فى مجال الدين: الزكاة . التوبة . الرحمة . الفجر . الصبح . الظهر(٢) .

والعربى العمانى بدأ يقل وجوده هناك وكانت له هيئة جميلة جدا فى زنجبار وتلك السواحل وكانت على العربى سيماء الشرف حتى إلى ما بعد سقوط سلطنة العرب هناك وانقضاء دورهم السياسى والتجارى ، فلم يزل الباقون منهم يعيشون معيشة الأكابر محفوفين بالحشم ولا يعملون بأيديهم وهم يناظرون الهنود فى التجارة وكانت منهم بيوتا غنية كثيرة لكنها هوت فى الفقر بسقوط دولة العرب السياسية ولكنها بقيت حافظة وقارها وكرامتها ، لأن العرب فى تلك البلاد هم أشراف البلاد لا يشتغلون بأيديهم أينما وجدوا ويرتدون ملابس بهية منها ما يسمونه القفطان وهو من الجوخ الأسود المطرز

---

(١) عادل خفاجة ، الأثر العربى فى اللغة السواحلية ، مجلة الأزهر عدد شعبان ١٤١٥هـ يناير ١٩٩٥ .

(٢) المرجع السابق ، ذات المقال .

مفتوح من الامام تحته قميص أبيض طويل يسمى (كانزو) ثم نطاق واسع يحملون من فوقه خنجرا محلى بالفضة وهم طوال القامات رشاق القدود سمر الألوان ظاهروا الرصانة تجد حركاتهم كلهم موزونه بدون تملق بل بشئ من الإنقباض .

ويوجد صنف آخر من العرب إسمه (شحرى) نسبة إلى الشجر من جهات حضرموت ، فهذا الصنف ليس من النمط الأول لأنهم فقراء يتاجرون بالسجاد والزيت ، وليسوا ممن يقدرون على مزاحمة الهنود فى التجارة [(١)].

وقد تعرض الحكم العربى الإسلامى فى المنطقة للضعف إثر وفاة (ماجد بن سعيد) عام ١٨٧٠م فخلفه أخوه الصغير (برغش بن سعيد) وأخذت السياسة الاستعمارية تنفذ إلى المنطقة وتعمل على تقسيمها بين الدول الاستعمارية الكبرى ، فأخذت ألمانيا تنجانيقا بينما كان الإنجليز أصحاب النفوذ الأكبر فى (زنجبار) وكانت سلطتها ضعفت إثر وفاة (برغش بن سعيد) عام ١٨٨٨ م الذى شهد تقسيم بلاده فى حياته وخلفه (سيد خليفه) ولما هزمت ألمانيا فى الحرب العالمية الأولى وقسمت مستعمراتها على الحلفاء والمنتصرين كانت تنجانيقا من نصيب انجلترا بعد أن وضعت تحت وصاية عصبة الأمم .

وقد استقلت تنجانيقا عام ١٩٦١ وأصبحت ضمن رابطة الشعوب البريطانية (الأنجلو فونية) أما سلطنة زنجبار فقد استقلت عام ١٩٦٣ ، وكان سلطانها سيد خليفة قد توفى سنة ١٩٦٠ وخلفه ابنه (جمشيد ابن عبد الله خليفه) وما إن تم الإستقلال حتى حدث انقلاب عسكرى برئاسة (عبيد كرومى) الذى نصب نفسه رئيسا لجمهورية زنجبار وخلع (سيد جمشيد)

---

(١) شكيب أرسلان ، حاضر العالم الاسلامى جـ٣ ص ٧٦ .

ونكبت الأسرة العربية التى كانت تحكم زنجبار وقتل أكثر من ١٦ ألف من العرب لأن الانقلابيين عدو الأسرة الحاكمة أسرة دخيلة مستعمرة وقتل معهم ٥٤ ألف من المسلمين .

ولم تنته دسائس الاستعمار عند هذا الحد وإنما ضمت تنجانيقا اليها زنجبار فى سنة ١٩٦٤م فى إتحاد عرف بإسم (تانزانيا) تحت رئاسة (يوليوس نيريرى) الشيوعى رئيسا للجمهورية الاتحادية وعين (عبيد كرومى)نائبا للرئيس ولم تنته المؤامرات عند هذا الحد وإنما حدث فى سنة ١٩٧١م أن أعلنت الحكومة أنها كشفت محاولة لفصل زنجبار عن تنجانيقا وادعت أن بعض المتآمرين كانوا من زنجبار وبعضهم الآخر من عرب كينيا ونفذت أحكام الأعدام فيمن أرادت التخلص منهم ممن وقعوا تحت قبضتها وبعد ذلك بقليل تم اغتيال (عبيد كرومى) نفسه[١] .

المسلمون فى القرن الافريقى :

قبل الاسلام كان الاتصال قائما بين الجزيرة العربية وأفريقيا الشرقية بصفة عامة ومنطقة القرن الافريقى (اثيوبيا ـ ارتيريا ـ الصومال ـ جيبوتى) وذلك بسبب القرب وتشابه المظاهر المناخية فى الساحلين فكانت الظروف ملائمة ، فعبرت السفن العربية بوغاز باب المندب ونزلوا فى المنطقة التى توجد فيها (مصوع) الحالية ، وسرعان ما لمسوا التقارب بينها وبين بلادهم من ناحية الأحوال الطبيعية وظهرت لهم إمكانية الاستيطان فى الداخل ، فأقاموا المراكز التجارية والحربية ثم راحوا يتجهون صوب المرتفعات الحبشية لأنها أصلح مناخا من الجهات الساحلية وبحثا وراء الصمغ والتوابل والعاج واستقروا

---

(١) د. محمد السيد غلاب وآخرون ، البلدان الاسلامية والاقليات المسلمة فى العالم المعاصر ص ٥٤٢ ـ ٥٤٥ .

فى المرتفعات الخصبة واستوطنوها واشتغلوا بالزراعة وبدأوا يمتزجون بالسكان الأصليين وتوالت موجات الهجرة من العرب الوثنيين من شبه جزيرة العرب فيما بين سنة ٢٠٠٠ و ١٠٠٠ قبل الميلاد ، واستطاع الوافدون العرب أن يخضعوا الحاميين لسلطانهم وثقافتهم وامتصاصهم عن طريق التزاوج بفضل تفوقهم الحضارى عن «الأمهريين »سكان البلاد الأصليين الذين خضعوا للثقافة السامية[١] .

ومن الآثار الطبيعية التى ترتبت على هذه الهجرة الكتابة واللغة ، فاللغة الحبشية هى اللغة التى نتجت عن القبائل السامية التى هاجرت من جنوب الجزيرة العربية واستوطنت بلاد الحبشة ، وقد ترجم إليها العهد القديم (التوراة) وحرر بها كثير من التراث الأدبى والدينى للأحباش المسيحين الذين اعتنقوا المسيحية فى القرن الرابع الميلادى وجعلوها الدين الرسمى للبلاد .

وقد انقرضت الحبشية كلغة تخاطب وحلت محلها لهجات حديثة وأشهرها :

١. **الأمهرية :** وهى اللغة الرسمية لأثيوبيا الآن . وتكتب بالحروف الحميرية القديمة التى كتب بها أهل اليمن الجنوبى والشمالى .

٢. **التجرينية :** وهى لغة منطقة تجراى فى شمال وشرق الحبشة ، وهى اللغة التى يتحدث بها الآن الشعب الأرتيرى ، ومنطقة تجراى فى الحبشة .

٣. **لغة جورجواى :** وهى لغة شعب الجوراج Gurages الذى يقيم فى جنوب الحبشة ، ويشتغل الجوراج بالرعى [٢] وتتشابه هذه الفصائل الثلاث

---

(١) د. راشد البراى ، الحبشة بين الاقطاع والعصر الحديث ، ص ٢٢ - ٢٣ .

(٢) د. محمد مصطفى رضوان ، مذكرة فى السلالات اللغوية فى العالم .

تشابها عنيفا فى المفردات وأصول الاشتقاق وفى الصيغ وقواعد البنية وفى الجمل والتراكيب وفى المعانى والأفكار بحيث يجزم العلماء أنها جميعا لابد أن تكون متطورة عن أصل لغوى واحد هو تلك اللغة السامية المفقودة التى كان يتكلمها الشعب السامى الأول فى وطنه شبه الجزيرة العربية .

مما تقدم يتضح لنا الآثار اللغوية والحضارية للعرب قبل الاسلام فى منطقة القرن الافريقى ، ولما جاء الاسلام استمر الهجرات والتأثيرات الحضارية بين العرب وهذه المنطقة ، وكانت أول هجرة تمت بعد الاسلام هى هجرة المسلمين إلى الحبشة .

ولم يدخل الاسلام إلى الحبشة عن طريق غزو عسكرى أو حروب كما حدث فى الفتوحات الاسلامية الكبرى التى تغلبت فيها الدولة الاسلامية على دولتى الفرس والروم ودخلت إليها بجيوشها وسلطانها وتنظيماتها الاسلامية فى الحكم ، بل كان دخول الاسلام إلى الحبشة تغلغلا هادئا بدأ بالمهاجرين الذين ينشرون الدين الجديد بين القبائل الوثنية بمختلف الاساليب وكان لتفوقهم الحضارى أكبر الأثر فى استجابة الكثيرين من أهل البلاد إلى الدعوة الاسلامية .

مملكة شوا: وتأسست أول مملكة إسلامية فى قلب الحبشة فى أقليم شوا المشهور ،وكان سلاطين هذه المملكة من بنى مخزوم وهى قبيلة سيف الاسلام خالد بن الوليد ، وكان إنشاء هذه الدولة فى سنة ٦٩٨م(٧٩ هـ) وقد هاجر بنو مخزوم إلى الحبشة فى عهد بنى أمية حيث عبروا البحر الأحمر وتغلغلوا داخل القرن الافريقى ، وتمكنوا من انشاء هذه الدولة الاسلامية فى هذا المكان من قلب الحبشة الذى يعتبر من أمنع المعاقل فوق مرتفعات الهضبة ، والتى تقع به مدينة أديس أبابا عاصمة أثيوبيا الحالية .

وقد استمرت مملكة شوا زهاء أربعة قرون حتى عام ١٢٢٥م (٦٢٢هـ)[1] (القرن ١٩) فى رأى آخر .

إمارة زيلع: كما أسس العرب إمارة زيلع التى بدأت حول ميناء زيلع أهم المستوطنات العربية على الساحل الصومالى السمالى ، وكانت تتحكم فى تجارة هضبة الحب الصومالية إلى الجزيرة العربية وأهمها الجلود والصمغ والسمن والعاج والعطر ، وتصل إليها الواردات كالاقمشة والبخور والأسلحة والأوانى الفخارية والخزفية وكان يتبع هذه الامارة اقليم جبرت الذى هاجرت منه اسرة الجبرتى إلى مصر .

إمارة هرر: وتقع شرق أديس أبابا وسط هضبة على ارتفاع خمسة آلاف قدم فوق سطح البحر وهى مدينة مسورة أسستها مستوطنون ساميون أو مهاجرون من العرب واعتنق سكانها الدين الاسلامى فى وقت مبكر ، وكانت مركزا تجاريا هاما بين زيلع وهضبة الحبشة وتكتب لغتها بالحروف العربية ، وقضت مملكة الحبشة على هذه الامارة فى مطلع العصور الحديثة عندما تحالف الأحباش مع البرتغاليين ضدها وأمدهم البرتغاليون بالأسلحة الحديثة التى كانت عاملا حاسما فى الصراع .

وكان يطلق على هذه الدول أحيانا بلاد الزيلع فى العصور الوسطى فقال عنها المقريزى هى البلاد المواجهة لبر اليمن ، ويعبر عنها باسم الطراز الاسلامى لأنها على جانب البحر كالطراز له .

كما كانت هناك امارة (جما) الاسلامية فى الجنوب الغربى من الحبشة التى كان يسكنها قبائل الجالا التى أسلمت فى القرن الثامن عشر الميلادى وسقطت فى أواخر القرن ١٩ .

---

(١) محمد عثمان أبو بكر ، المثلث العفرى فى القرن الافريقى ، ص ٧٠ ـ ٧٥ .

دول الطراز الاسلامي:

وفى القرن السابع الهجرى تكونت فى بلاد الزيلع سبع إمارات اسلامية زاهرة هى :

١) إيفات : ويقال لها جبرة والنسبة إليها جبرتى ، وجبرتى مصر نازح منها ؛ ٢) عدل ٣) هدية ٤) الدوارو ٥) بالى ٦) شرفه ٧) داره.

وعندما قدم البرتغاليون إلى منطقة القرن الافريقى وجدوا دول الطراز الاسلامى فى صراع عسكرى مع دولة الحبشة فتحالفوا مع الحبشة لإدراك غايتهم الاستعمارية ، فأرسلوا بعثة إلى أديس أبابا سنة ١٥٢٠م.

وبعد سقوط دولة المماليك فى مصر ورث العثمانيون النفوذ فى البحر الأحمر بالحجاز واليمن وبسطو نفوذهم على مضيق باب المندب وسواحل البحر الأحمر الافريقية ، وأنشأوا أسطولا فى البحر الأحمر يستند إلى قاعدة «زيلع » وعقدوا تحالفا مع الأمير أحمد بن إبراهيم المعروف (بجران) أى الأشول، صاحب (سلطنة عدل) الاسلامية الغربية من حدود الحبشة وزودوه بالمعدات الحربية ومنها الأسلحة النارية [1] .

وتمكن أحمد بن إبراهيم من هزيمة الأحباش سنة ١٥٢٩ وفتح داوارو ، وشوا (١٥٣١م) وأمهره ولاستا (١٥٣٣) وسقطت فى يده بالى وهديه وأقاليم الجوراج وسيدامو ، وفى سنة ١٥٣٤ وصلت جيوشه إلى تجراى ، فطلب الامبراطور من البرتغاليين العون وعرض عليهم أن يكون تابعا للكنيسة الكاثوليكية فى روما مع الاحتفاظ بالمذهب الارثوذكس ، فأنزل البرتغاليون قوة لهم فى مصوع سنة ١٥٤١ وزحفوا فى تحالف مع الأحباش تمكنوا فيه من هزيمة أحمد بن ابراهيم وقتله ، وأخذت إمارة (هرر) العبء على عاتقها

(١) د. راشد البراوى ، مجمع سبق ذكره ، ص ٥٣ ـ ٥٤ .

وشنت هجوما فى سنة ١٥٥٩ مات فيه الامبراطور كلوديوس [١] .

وأحدث هذا الصراع بين المسلمين والحبشة ضعفا فى كلا الطرفين الأمر الذى أعطى فرصة لشعب (جلا) الذى زحف من الجنوب وهى قبائل حامية بدائية ووصلوا إلى (أمهره) وأحاطوا بالهضبة الحبشية فى دائرة ، ودمروا معالم الحضارة الاسلامية دون أن تكون لهم حضارة ؛ ولكن الاسلام انتشر بينهم .

وبذلك هوت المنطقة من جديد إلى فترة من الضعف والعزلة والفوضى، وتدخل المبشرون المنصرون الغربيون فى شئون الحبشة وانتهى الأمر بطردهم على يد الامبراطور (فاسيليداس) (١٦٣٢ ـ ١٦٦٧) .

وبدأ زحف قبائل الجالا على الحبشة وشرقها فى القرن ١٦م وأصبحوا جزءا أساسيا من الدولة يبلغ نصف مجموع السكان لكن (قبائل التجراى) و (قبائل أمهرة) كل منها متكتلة فى منطقتها بينما الجالا الذين يفوقونهم عددا متشرون على ساحات شاسعة من البلاد ، وليس من الميسور إيجاد تكتل بينهم لصعوبة المواصلات وبعد المسافات [٢] .

عناصر السكان فى القرن الافريقى

توجد فى أثيوبيا عناصر كثيرة من الأجناس فمنهم العربى والزنجى والأمهرة (الأحباش) والتجراى والصوماليون والجلاء والدناقلة (العفر) .

الأمهريون : وهم السكان الأصليون الذين خضعوا للثقافة العربية قبل الاسلام ، وأصبحوا الطبقة الحاكمة بالرغم من قلة عددهم ولما اعتنقوا

---

(١) المرجع السابق ، ص ٥٤ .

(٢) فتحى غيث ، الاسلام والحبشة عبر التاريخ ، ص ٢٧ .

المسيحية فى القرن الرابع الميلادى جعلوها الدين الرسمى للبلاد ، كما صارت لغتهم اللغة الرسمية للبلاد وهى (الأمهرية) ويقطن الأمهريون الهضبة الوسطى من أثيوبيا وأغلبهم مسيحيون . وكان منهم حكام أثيوبيا فى الماضى .

التجراى: ويقطنون فى شرقى الهضبة الوسطى ويتوزعون بين أثيوبيا وأرتيريا وأغلبهم مسيحيون ، ولغتهم التجرينية وكانت لغة مملكة أكسوم[1] فى الماضى ، ويتحدث بها معظم سكان أريتريا ، وتستعمل فى السهول الشمالية والغربية وقبائل بنى عامر والقبائل الرحل المسلمين المشتغلون بالرعى ، ومنهم ملس زيناوى الرئيس الحالى (١٩٩٧م) .

الصوماليون: ويسكنون بالصومال ويتحدثون اللغة الهرارية المعروفة فى مدينة «هرر» وهى متأثرة بالعربية وكانت تكتب أحيانا بحروف عربية وتسود فى منطقة أوجادين .

الجلا: هذا الشعب ينتشر شرق هضبة الحبشة ومعظمهم من المسلمين .

الأديان: من الأخطاء الشائعة والتى تأثر بها الرأى العام الخارجى فى كثير من البلدان أن الأغلبية العظمى من أهل إثيوبيا من المسيحين ، إذ الثابت من واقع الاحصائيات أنه بالرغم من أن المسيحية الدين الرسمى للبلاد فأتباعها أقلية لا تتجاوز ثلث السكان إلا بنسبة يسيرة ، وهم يغلبون على أقاليم (تجره) و (بيجامدر) و(جوجام) و (شوا) ونصف مقاطعة (وللو Wollo) فى الشمال الشرقى .

وتحولت الطبقه الحاكمة إلى المسيحية فى القرن الرابع الميلادى والكنيسة (أرثوذكسية) كانت مرتبطة بالكنيسة المصرية غير أنها استقلت عنها

---

(١) مملكة أكسوم : ظهرت هذه المملكة فى القرن الأول الميلادى .

مؤخرا سنة ١٩٥٩م . وللكنيسة تأثير عظيم فى إثيوبيا وخمس الرجال البالغين فى أثيوبيا رجال دين ومن هنا يطلق على إثيوبيا (بلد القساوسة)وفضلا عن ذلك فالكنيسة من كبار ملاك الأراضى ، وهذا شبيه بما كان عليه حال الكنيسة فى أوربا خلال العصور الوسطى وسيطرتها على رجال السياسة . وعلى ذلك فالكثرة الهائلة فى عدد رجال الدين الأحباش لا مثيل لها فى أى بلد من بلدان العالم الحديث ، مع الجهل المخيم على الغالبية الساحقة من القساوسة ، وانتشار الخرافات والأساطير والبدع بينهم التى نمت إلى الديانة المسيحية الحقيقية بصلة مما أصاب معظم المسيحين بالجمود والتأخر .

وتتدخل الكنيسة فى الشئون السياسية ، وينص دستور عام ١٩٥٥على أن لا يتولى العرش إلا من كان مسيحيا على المذهب الأورثوذكسى ، وهناك تحالف بين الكنيسة والساسة فى إثيوبيا أيام الأباطرة وبعد إنشاء الجمهورية[١].

والمسلمون:الذين يتجاوز عددهم أكثر من نصف السكان مبعدون إلى حد كبير عن المناصب الرئيسية فى الدولة ونسبتهم فى الوظائف الحكومية ضئيلة بشكل يلفت النظر ، وسبق لبعض الأباطرة أن طبقوا على المسلمين سياسة العزل، وحرم عليهم تملك الأرض ، وهذا يفسر انصرافهم إلى التجارة والحرف بحيث تركزت فى أيديهم على مر الزمن .

وهذا هو السبب فى روح عدم الاستقرار فى البلاد بسبب هذه السياسة الظالمة فى أثيوبيا ، وتعتبر هذه السياسة من العقبات القوية فى وجه الوحدة القومية ، ولن [illegible] جهود الحكومة المركزية فى هذا المجال إلا إذا سادت المساواة وإتاحة الفرص للجميع على قدم المساواة ، واعترفت الحكومة للمسلمين بالمركز الذى تؤهله لهم كثرتهم العددية وتفسح لهم أبواب وظائف

---

(١) د. راشد البراوى ، الحبشة بين الاقطاع والعصر الحديث ، ص ٣٢ ـ ٣٦ .

الدولة فى الوزارات والبرلمان . وأن تزال هذه الامتيازات الخاصة بالمسيحين من الدستور والقانون [1].

وكان الرق سائدا فى أثيوبيا حتى عام ١٩٤٢ حين صدر قانون يخول العبيد بأن يهجروا سادتهم إذا رغبوا فى ذلك أو كانوا يشعرون بمعاملة سيئة ، وهذا القانون لم يكن ملزما بتحرير العبيد ، ولذلك لا يمكن الادعاء بأن الرق زال تماما من أثيوبيا .

وفى البلاد جماعة تعرف باليهود السود ويطلق عليهم لفظ (فالاشا) ومعناها الغريب أو الأجنبى ، ويعتقد هؤلاء أنهم من نسل ملكة سبأ التى اعتنقت اليهودية أثناء زيارتها لسليمان فى فلسطين .

حماية الإستعمار لأثيوبيا المسيحية:

فى سنة ١٩١٣ توفى امبراطور أثيوبيا (منليك الثانى) وتم تعيين (ليدج ياسو) امبراطورا على أثيوبيا عام ١٩١٣ وارتبط الامبراطور الجديد بعلاقات ودية مع تركيا والمانيا فأثار غضب الدول الإستعمارية فى المنطقة وهى فرنسا وإيطاليا وبريطانيا .

وعندما اعتنق الامبراطور الجديد (ليدج ياسو) الاسلام وأعلن نبذه للديانة المسيحية وتزوج بزوجة مسلمة وتردد على المساجد ، وقوى صلاته بمسلمى هرر الصوماليين ، وأصر على كتابة الشهادتين (لا إله إلا الله محمدا رسول الله) على العلم الأثيوبى بحروف أمهرية ، وأحسن إستقبال القنصل التركى عند زيارته لأثيوبيا . عند ذلك تخوف الأوروبيون ورأت فرنسا المتمركزة فى جيبوتى ضرورة اتخاذ موقف حازم ضد الامبراطور الذى أعلن اسلامه وهو (ليدج إياسو) خاصة وأن الظروف كانت مهيأة لها بوجود

(١) المرجع السابق ، ص ٣٩ـ ٤٠ .

مستعمرة جيبوتى فتجمعت القوات الفرنسية فيها وتعاونت مع القوات البريطانية فى بربرة والايطالية فى مصوع[1] .

واتصلت القوى الاستعمارية الفرنسية والبريطانية والإيطالية بالمعارضة فى داخل أثيوبيا ونسقت معها لمعارضة الامبراطور المسلم فاجتمع الزعماء برئاسة « الرأس تجرى » واتجهوا إلى قصر المطرانى مطالبين أن يحلهم من يمين الولاء للامبراطور ، كما طالبوه بإصدار قرار الحرمان الذى أصدره بالفعل عام ١٩١٦م وتم تعيين «زاوديتو » إبنة الامبراطور (منليك الثانى) إمبراطورة على البلاد ، والرأس تجرى وصيا على العرش .

أما مصير (ليدج إياسو) فقد انسحب من العاصمة أديس أبابا متجها إلى اقليم (والو) ذى الأغلبية المسلمة من (الجالا) واتصل بمسلمى الصومال، وكان يأمل فى القيام بحركة إسلامية فى شرق أفريقيا ليستعيد حكمة، ولكن مقاومته لم تستمر طويلا فقد تم القبض عليه أما (زاوديتو) فقد تمت مراسيم تتويجها إمبراطورة على أثيوبيا عام ١٩١٧م [2] .

وترجع الأسباب الرئيسية لهذا التعصب الإستعمارى إلى تخوف الدول الأوربية من تحول أثيوبيا إلى الإسلام فيصبح المسلمون قوة كبيرة فى شرق أفريقيا ولاسيما معظم الجهات الساحلية يتركز فيها المسلمون فخشيت الدول الغربية من اعلان الدول الإسلامية الجهاد ضد المسيحين ، وخاصة أن فرنسا كان لها تجربتها القاسية والعنيفة مع مسلمى غرب أفريقيا الذين قاموا بحركة جهاد واسعة ، ونجحوا فى عرقلة التقدم الفرنسى للمنطقة لعدة سنوات .

---

(١) د. الهام ذهنى ، العلاقات الفرنسية الأثيوبية ، ص ٦٥ .

(٢) المرجع السابق ص ٦٦ .

جبهة تحرير أرتريا :

تكونت «جبهة تحرير أرتريا» رسميا فى القاهرة عام ١٩٦٠ وهى التى قادت كفاح الشعب الأرترى ضد الاستعمار الأثيوبى حتى تم تحرير أرتريا سنة ١٩٩١ ، وتعتبر الجبهة الشعبية لتحرير أرتريا فرعا من جبهة التحرير الأرترية التى يمكن أن نطلق عليها الجبهة الأم للنضال السياسى والعسكرى الأرترى .

وبدأت التناقضات وخاصة المتعلق منها بالاختلاف الدينى تظهر ، وبدأت «قوات التحرير الشعبية» تحاول الانشقاق على الجبهة الأم سنة ١٩٧١لأن غالبية أفرادها من المسيحين التجراى لاعتراضها على توجه الجبهة العربى واستعمالها للغة العربية ، وكانت «جبهة التحرير الأرترى» الأم بقيادة أدريس محمد آدم «عثمان صالح سبى» تعتمد على التموين من الدول العربية ومن العاملين الأرتريين فى البلاد العربية فى صورة مساهمات مالية ، ولكن لم يكن للمقتربين أى نفوذ قوى على حركة التحرير فى الداخل [١] .

وحاولت الجبهة الشعبية الأرترية تجنيد مجموعة الثوار المسيحيين المتطرفين الذين تم استبعادهم من جبهة التحرير الأرترية الأم لأسباب دينية ، وتم النظر إلى «عثمان صالح سبى» ذاته على أنه غير موثوق به من قبل الثوريين المتطرفين وعلى أنه قبلى متطرف من قبل أولئك الذين يعتمدون على الحسابات العرقية ، وكان من أهم قواد هذه الحركة المنشقة «أسياس أفورقى» المسيحى الذى ينتمى إلى قبائل التجراى [٢] .

---

(١) د. عبد الله جمعة الحاج،الحركة الوطنية الأرترية،بحث ضمن كتاب أرتريا دراسة مسحية شاملة تحت اشراف د. عبد الملك عودة من منشورات معهد البحوث والدراسات العربية بالقاهرة ١٩٩٦٠ ص ١٠٣ ـ ١٠٤ .

(٢) نفس المرجع .

وفى أغسطس ١٩٧١عقدوا مؤتمرا فى أسمرة أوضحوا فيه سبب انفصالهم عن جبهة التحرير الأرترية وتضمن بيانهم تجريحا لاذعا لقيادة جبهة التحرير متهما إياها باستخدام المنطلقات العرقية والدينية والمذهبية كأسس فكرية لحركة التحرير الوطنية ، ولم يشر البيان إلى حقيقة أن مصدريه ينتمون إلى الفئات المسيحية من المجتمع الأرترى ، وإن كان تنصل من أن البواعث الدينية هى التى جمعت بين أعضائه فى تنظيم واحد .

ورفض البيان الوصف الذى تفضل جبهة التحرير الأرترية اطلاقه على الشعب الأرترى بأنه عربى ، وكما رفض استخدام العربية كلغة رسمية فى البلاد مبررا ذلك أنها ليست إحدى اللغات التى تستخدمها أى المجموعات العرقية فى أرتريا ، وأشار بأن الروابط الموجودة بين الثورة الأرترية والعالم العربى هى روابط سياسية استراتيجية وليست عرقية أو ثقافية ، وأصبح هذا البيان هو دستور الجبهة الشعبية لتحرير أرتريا فيما بعد .

وعبثا حاول « عثمان صالح سبى » رأب الصدع فى هذا الانشقاق بدعوة الفصائل المنشقة وأهمها فصيل « الجبهة الشعبية » فى اجتماع بيروت فى يناير ١٩٧٢ ، ولكن استجابتهم كانت من أجل تمويلهم بالمال والسلاح فقط ، وحاول «سبى » إنشاء جبهة وطنية متحدة ؛ لكن ظلت الفروق التنظيمية للفصائل على حالها وخاصة الفصيل المسيحى «لأسياسى أفورقى » ومجموعته والتى تعود معارضته أساسا إلى الصراع المباشر على السيطرة والنفوذ داخل حركة التحرير الأرترية ، وعدم تمكين القادة المسلمين من الهيمنة على حركة التحرير .

ومرة أخرى حاول « عثمان صالح سبى » حل المشاكل عن طريق التفاوض السلمى كما حاول الاتصال «بأسياس أفورقى » لكنه فشل وبدلا من

ذلك دخلت الفصائل مع بعضها فى صراع مسلح استمر حتى عام ١٩٧٤ وتمخضت المعارك عن تكوين تحالف ضد جبهة التحرير الأم ، تنافس معها فى استقطاب المناضلين والأنصار ، إلا أنهم كانوا فى حاجة إلى التمويل عن الخارج وفقدوا التأييد السورى والعراقى لكن ليبيا أمدتهم بالسلاح والغذاء والأدوية (١) ونجحوا فى اجتياز المرحلة الحرجة ، وعندما قامت الثورة فى الحبشة ضد حكم هيلاساسى وأطاحت به سنة ١٩٧٤ دافعت قوات المقاومة متحدة عن أسمرة ضد جيش الحبشة الجديد ولكن ذلك لم يستمر طويلا ، وشيئا فشيئا قويت « الجبهة الشعبية » وضعف مركز « عثمان سبى » لأنه كان يعتمد على الجهاد من خارج البلاد ، وترسخت أقدام الجبهة الشعبية فى ساحات المعارك داخل أرتريا فى الفترة من ١٩٧٥ حتى ١٩٧٨ .

إستقلال أرتريا :

فى يوم ٣٠ من أغسطس ١٩٨٩ كتب أسياسى أفورقى مقالا فى «الاهرام » قال فيه : إن الانتصارات العسكرية التى حققتها الجبهة الشعبية لتحرير أرتريا فى مارس ١٩٨٨ والتى تمثلت فى تحطيم الوجود العسكرى الأثيوبى فى أرتيريا وطرد ٢٠ ألف جندى أثيوبى بعد الاستيلاء على معداتهم وذخائرهم كغنيمة حرب للجيش الشعبى لتحرير أرتريا ، فد اضطر النظام الأثيوبى إلى سحب قواته من كثير من محافظات أرتيريا .

وعلى إثر هذه الانتصارات بدأت أولى لمفاوضات الرسمية المعلنة بين وفدين رفيعى المستوى لحكومة أثيوبيا والجبهة الشعبية لتحرير أرتريا ، وقد جرت هذه المفاوضات فى مدينة أطلانطا بولاية جورجيا الأمريكية ، وهى مسقط رأس الرئيس الأمريكى الأسبق « جيمى كارتر » الذى حضر بنفسه هذه

(١) المرجع السابق ص ١٠٦ ـ ١٠٩ .

تريا، وجرى هذا الاستفتاء فى نهاية أبريل ١٩٩٣ ، ووافق فيه الشعب على الاستقلال بأغلبية كاسحة زادت على ٩٩٪ وكانت الأمم المتحدة التى أشرفت على الاستفتاء ، وأرسلت كل من روسيا وأمريكا وإثيوبيا وإسرائيل وفودا للاشتراك فى مراقبة عملية الاستفتاء بينما لم ترسل أى دولة عربية وعلى الأخص مصر أى وفد منها لهذا الغرض وهى التى يهمها الأمر فى المقام الأول.

واعتبارا من فجر يوم ٢٨ أبريل ١٩٩٣ ظهرت إلى الوجود دولة إفريقية جديدة لغتها الأولى العربية ، وأصبحت العضو رقم ٥٣ فى منظمة الوحدة الأفريقية ، ثم انضمت إلى الأمم المتحدة لتصبح العضو رقم ١٨٢ ، ولم تنضم حتى الآن إلى جامعة الدول العربية رغم عروبتها . ويتحدث أهلها بجانب العربية باللغة التيجرينيه وهى اللغة الثانية المستخدمة فى أرتريا وحروفها حميرية يمينة [(١)] وأعلن « أسياسى أفورقى » أول رئيس لها فى فترة الحكم الانتقالى وهو من مواليد « أسمرا » عاصمة أرتريا ، وكان والده موظفا بسيطا فى الحكومة الأثيوبية المحتلة لبلده ، وبعد انتهاء دراسته الثانوية التحق بجامعة أديس أبابا ، ولكنه تركها بعد سنة واحدة لكى ينضم إلى « جبهة تحرير أرتريا» فى عام ١٩٦٦ حيث كان عمره (٢٠ سنة) وفى العام التالى أوفدته الجبهة إلى الصين للتدريب على حرب العصابات كما كانوا يسمونها فى ذلك الوقت وعاد بعد سنة فوجد أن الجبهة حدث فيها إنشقاق فانضم إلى الجناح الذى أصبح اسم « جبهة التحرير الشعبى » وبعد سبع سنوات أختاروه أمينا مساعدا للجبهة

---

(١) تنتمى اللغة التجرينية إلى أسرة اللغات السامية هى وأخواتها فى القرن الافريقى وهى: الأمهرية لغة الحبشة أيام هيلاسلاسى والهررية لغة الصومال والتجرية لغة بعض قبائل الحبشة والجعزية والجوراجية كذلك . د. محمد مصطفى رضوان ، مذكرة فى السلالات اللغوية .

ثم أمينا عاما بالانتخاب فى عام ١٩٨٧ والقائد الفعلى لها وعمره الآن (١٩٩٧) ٥١ سنة (١) .

وكانت أمريكا من أوائل الدول التى اعترفت باستقلال أرتريا وكثرت الزيارات الرسمية للأمريكان لأرتريا لأهميتها الاستراتيجية فى مدخل البحر الأحمر وكثرت الزيارات الاسرائيلية كذلك لهذه الدولة ، وقد زار أفورقى اسرائيل عدة مرات ويقيم معها علاقات قوية ، وأيد أفورقى التدخل الأمريكى فى الصومال ، وبدأ يسير فى فلك أمريكا وإسرائيل .

وهكذا حدث التحول فى كل من أرتريا وأثيوبيا بعد انتهاء الصراع الأمريكى السوفيتى وانهيار الاتحاد السوفيتى والإنظمة الشيوعية فى العالم ، وأعلن إعتلاء (زيناوى) سدة الحكم فى أديس أبابا من السفارة الأمريكية فى لندن قبل اعلانه فى وسائل الاعلام فى أثيوبيا نفسها ، وبذلك كان تسلم زيناوى الحكم تحت اشراف أمريكى واضح ، وبدأ زيناوى يعيد دور «تيجراى» فى أديس أبابا على حساب « الامهرا » التى حكمت أثيوبيا لعشرات من السنين .

وقد سعت الجبهة الشعبية الأرترية إلى الاستئثار بالسلطة دون غيرها من الجبهات ، ويجمع كل هذه الأطراف فى أرتريا وأثيوبيا أنها أقليات قبائلية سيطرت على الحكم وأقصت الأغلبية من باقى القبائل والأعراف والقوميات ، ومخططهم يهدف إلى :

١) وقف المد الاسلامى . ٢) إقصاء النفوذ الفرنسى من المنطقة .

٣) السيطرة على منابع النيل لمحاصرة مصر والعروبة من الجنوب .

---

(١) الأهرام ، عدد ١٩٩٧/٣/٧ مقال حول أفورقى بقلم حسن نزاد .

٤) احكام السيطرة على مدخل البحر الاحمر[١]

وقد غيرت الجبهة الشعبية اسمها إلى : « الجبهة الشعبية للديمقراطية والعدالة » تمشيا مع الدور الذى تعلن عنه وهو إقامة حكم ديمقراطى وتحقيق العدالة بين أفراد الشعب بلا تفرقه :

وتواجه الحكومة مشكلة اعادة توطين حوالى نصف مليون أرترى يقيمون حاليا فى السودان ، أما التحدى الأكبر والأخطر فهو المتمردون الأرتريون الذين يشنون اعتداءاتهم من داخل السودان بمساعدة جبهة الترابى ، وسوف يظلون مصدر قلق للحكومة وخاصة بعد دعم أفورقى للمعارضة السودانية ، ولما كان الدستور المؤقت لا ينص على تمثيل القوميات والديانات المختلفة فى المناصب الوزارية حسب عدد أبنائها ولذلك فإن الباب سيظل مفتوحا أمام التذمر مستقبلا من المسلمين الذين يزيد عددهم على ٦٠٪ من الشعب الأرترى هذا وسيفرض عليها توتر العلاقات بينها وبين السودان من ناحية وبين اليمن على جزر حنيش المتنازع عليها من ناحية أخرى سيفرض عليها وضع قواتها فى حالة استعداد لأى تطور وتدعيم قدراتها وبالتالى تستهلك جزءا من ميزانية الدولة كان من المفروض أن يتجة إلى اعادة إعمار البلاد [٢].

العلاقات مع جامعة الدولة العربية :

ساهمت الجامعة العربية فى الاشراف على عملية الاستفتاء لاستغلال أرتريا ببعثة من المراقبين ، كما أعلن الأمين العام للجامعة العربية د. عصمت عبد المجيد مساهمة الجامعة بمنحه عشرة آلاف دولار لمواجهة الكوارث الطبيعية التى اجتاحت أرتريا مثل إعصار مصوع ، وقد قررت أرتريا إرجاء

---

(١) الشعب عدد ٤/٣/١٩٩٧ من مقال لمجدى أحمد حسين حول اثيوبيا .

(٢) الأهرام ٤/٣/١٩٩٧ عن مراسل الأهرام فى أسمرا عطية عيسوى من مقال بعنوان=

موضوع انضمامها للجامعة العربية حتى يخضع للبحث والدراسة باعتباره ليس من الموضوعات الملحة فى المرحلة الانتقالية التى غربها البلاد ، والتى تسير فيها وفق قوانين مؤقتة [1] .

الصومال

تقع الصومال على طرف القرن الأفريقى البارز فى مياه المحيط الهندى وتطل سواحلها على خليج عدن فى الشمال المحيط الهندى فى الشرق يبلغ طول هذه السواحل ١٨٠٠كم وتجاور الصومال أثيوبيا فى أقليم أوجادين الذى تتنازعه الدولتان كما تجاور الصومال فى جنوبها الغربى كينيا ودولة الصومال تضم فى أراضيها معظم الشعب الصومالى الذى كان مستعمرا من فرنسا وإيطاليا وبريطانيا وقد نالت جيبوتى استقلالها من فرنسا مؤخرا ويسكنها العفار والعيسى وكانت تسمى قبل استقلالها سنة ١٩٧٧م بالصومال الفرنسى .

نشأت علاقات تجارية بين سواحل شبه الجزيرة العربية فى عمان وحضرموت واليمن من جهة وبين سواحل القرن الأفريقى من جهة أخرى وقد أنشأ العرب محطات تجارية على سواحل ذلك القرن يتفلون منها إلى داخل شرقى افريقيا وقد انتشر الإسلام فى المنطقة بين جنوبى الحبشة وموزنبيق عن طريق هجرات عربية من منطقة عمان وحضرموت واليمن أو نتيجة للعلاقات التجارية التى لم تنقطع طوال العصور التاريخية بين بلادالعرب وشرق أفريقيا وهناك عربية نزحت من عمان إلى شرق أفريقيا فى عام ١٢٢هـ هاجرت جماعة من الزيدية إلى هناك وانتشرت حتى خط الاستواء وبعد أجيال خرجت هجرات أخرى إقليم الإحساء فى سنة ٣١٣ هـ [1] .

= «ارتريا التحديات والأسباب» .

(١) د. نجوى أمين الفوال ، العلاقات الخارجية لأرتريا ، بحث ضمن كتاب أرتريا دراسة مسحية شاملة ، صدر عن معهد البحوث والدراسات العربية ، إشراف د. عبد الملك عودة ، ص ٢٤٤ .

وأنتشرت المراكز العربية الإسلامية فى منطقة السهل الساحلى بشرق افريقيا فنشأت مدن هامة مثل (مقديشيو) و (كلوا) و (زنجبار) و (منباسا) و(سفاله) وقامت المبادلات التجارية بين الطرفين .

ونشأت المجتمعات الاسلامية الأولى فى مدن تحف بخليج عدن والبحر الأحمر مثل سواكن ومصوع وذيلع وبربه وهرر وقامت هذه المجتمعات بدورها فى نشر الإسلام بين القبائل الحامية البدوية التى تقيم فى المنطقة الممتدة من ساحل البحر حتى الهضبة الحبشية مثل قبائل البجة والعفار والصومال الجلا انتشر الإسلام على سواحل البحر الأحمر ونفذ الإسلام إلى شرقى أفريقيا .

ثم بدأ الإسلام يدخل أرض الحبشة نفسها وكان الإسلام ينتشر فى تلك الجهات سلميا على مهل عن طريق التجار والدعاة فى المنطقة التى دعاها الجغرافيون المسلمون (بر الزنج) .

وكان لمصر صلاتها التجارية بشرق أفريقيا وكانت هناك جماعة من التجار المسلمين فى مدينة (قوص) تتالف من مهاجرين من أهل التكروروبعض الهنود والعرب عرفت بإسم (الكارمية)أو (الكانمية) نسبة إلى بلاد(الكانم) فأشتغل هؤلاء بتجارة التوابل وكانوا نشيطين فى التجارة والدعوة إلى الإسلام منهم قراء ومحدثون وفقهاء وإن اشتغلوا بالتجارة طلبا للرزق وأعان هؤلاء على جهودهم فى نشر الإسلام أتصالاتهم التجارية وطول إقامتهم فى البلاد ومعاشرتهم لأهلها ومعرفتهم لعاداتهم وقد أسلم على أيديهم الكثير من أهل الحبشة وكان ملوك الحبشه إذا أرادوا أن يلتمسوا شخصا أمينا جديرا بالثقة لختاروه من بين التجار المسلمين وكان المسلمون من أهل شرق أفريقيا يرحلون إلى مصر طلبا للعلم بالأزهر وكان لهم رواق بالأزهر يسمى رواق الجبرت

---

(١) محمد السيد غلاب وآخرون : البلدان الإسلامية والاقليات المسلمة فى العالم المعاصر ، ص ٤٥٦ .

وينتمى إليه عبد الرحمن الجبرتى المؤرخ المصرى المعروف .

وحين تطلع البرتغاليون إلى محالفة الأحباش للقضاء على الإسلام فى البحر الأحمر كان النفوذ العثمانى قد أخذ يظهر فى بلاد اليمن ومضيق عدن وشرق افريقيا وكان لهم أسطول قوى فى البحر الاحمر وأعلنوا إغلاق البحر الأحمر أمام السفن الاوربية الإستعمارية بحجة أن البحر الأحمر تطل مياهه على الحرمين الشريفين حرم مكة المكرمة وحرم المدينة المنورة فلا يجب أن تدنس مياهه بالسفن الغربية المسيحية فحفظوا بذلك للبحر الأحمر عربته وإسلامه وجعلوه بحرا إسلاميا مغلقا ولم يتغير وضعه هذا إلا بعد ضعف الدولة العثمانية فى مطلع القرن التاسع عشر الميلادى عندما بدأت السفن الاستعمارية تجتازه وبدأ النشاط الاستعمارى المحموم فى مياهه بين فرنسا وإيطاليا وانجلترا وقد ظفرت بريطانيا بعدن أما فرنسا فأستعمرت جيبوتى التى كان يطلق عليها الصومال الفرنسى أما إيطاليا فاستعمرت أرتيريا وجزءا من الصومال واحتلت القوات البريطانية جزءا آخر من الصومال سنة ١٨٨٧م وعندما احتلت بريطانيا مصر سنة ١٨٨٢م أجبرت مصر فى عام ١٨٨٤م ترك أراضيها فى شرق أفريقيا وكانت مصر قد بنت لها مراكز فى مصوع وذيلع وبربره وهرر .

وقد واجه الصوماليون الاستعمار الإنجليزى بالمقاومة وقاد الجهاد الشيخ (محمد ابن عبد الله) ضد البريطانيين والأحباش معا ولم تنته حركة الشيخ محمد ابن عبد الله فى الصومال إلا فى عام ١٩٢١م حيث كلف المحتلين البريطانيين خسائر فادحه وقد بدأ محمد ابن عبد الله يثير المتاعب فى وجه المستعمرين بإعلانه الجهاد ضدهم وضد الحبشة وكان يتخذ أساليب المهدى ومن جاء بعده فى السودان وقد جمع هذا الزعيم قوات كبيرة لمحاربة الإنجليز ودعى قومه إلى الوحده لطرد الإنجليز ومن هنا لقيت دعوته أذانا صاغية ولم يقوى الإنجليز إلا على السيطرة على السواحل وأخذوا فى توجيه الحملات

الحربية إلى حركة محمد ابن عبد الله لقمعها حتى توفى سنة ١٩٢١م وانتهت حركته بعد أن كلف الإنجليز خسائر فادحة [١] .

وتنتشر الطرق الصوفية فى المنطقة الصومالية وأهمها (الطريقة القادرية) التى سبق أن تحدثنا عنها فى غرب أفريقيا وهى أقدم الطرق الصوفية التى دخلت الصومال بفضل اليمنيين الذين استقروا فى (مقديشيو) (١) وذيلع وغيرها استطاعت القادرية أن تتوغل إلى داخل البلاد حوالى سنة ١٨١٩م عندما اسس الشيخ إبراهيم حسن جابرو مركزا لها مكان بلدة (برديرة) الحالية ثم نشر الشيخ عيسى ابن محمد البراوى هذه الطريقة فى جوبا العليا وبنى مسجدا وزاوية فى قرية (توجحلة) عام ١٩٠٩م وفى ذكرى مولده يقام احتفال كبير حول ضريحة كل عام فى بلده (بيولى) بالقرب من توجحله .

وتوجد طرق صوفية أخرى فى الصومال مثل الطريقة الأحمدية التى اسسها أحمد بن أدريس الفاسى (ت ١٨٣٧م) والطريقة الصالحية التى تنسب إلى محمد ابن صالح (ت ١٩١٩م) وهى فرع من الأحمدية والطريقة الرفاعية واتباعها قليلون فى الصومال غالبية الصوماليين على المذهب الشافعى (٢).

وبعد نهاية الحرب العالمية الثانية وتأسيس هيئة الأمم المتحدة نظرت هيئة الأمم فى وضع المستعمرات السابقة فى الصومال ووضعت الصومال تحت وصاية الامم المتحدة وتم الإستقلال فى سنة ١٩٦٠م بقسميها : الذى كان خاضعا لبريطانيا والذى كان خاضعا لإيطاليا وصارا يؤلفان دولة واحدة أما إقليم الصومال الفرنسى فقد تم استقلاله فى سنة ١٩٧٧م عقب استفتاء شعبى لتقرير المصير تحت اسم (جيبوتى) ولم يبق سوى إقليم (أوجادين) الذى تسيطر عليه أثيوبيا .

---

(١) د . عبد الرحمن زكى ، الإسلام المسلمون فى أفريقيا ، ص ٢٤٦ .

الباب الثالث

المسلمون فى الشرق الأقصى

الفصل الثامن

المسلمون فى جنوب شرقى أسيا

يمثل انتشار الإسلام فى جنوب شرقى آسيا [المعروف بأرخبيل (الملايو)] قصة من أهم قصص الإسلام فى العالم بفضل ما بذله الدعاة المسلمون فى جزر الهند الشرقية فلم تذهب إلى هذه البلاد جيوش إسلامية لفتحها وإنما ذهب إليها التجار والدعاة المسلمون دون مساعدة من حكام البلاد الإسلامية ومن الصعب تحديد تاريخ معين لأول دخول للإسلام فى هذه البلاد يقول (توماس أرنولد) فى كتابه الدعوة إلى الإسلام .

وكل ما نعرفه أن العرب زاولوا مع بلاد جنوب شرق آسيا تجارة واسعة النطاق منذ عصور مبكرة جداً ففى القرن الثانى للهجرة كانت تجارتهم مع سيلان كلها فى أيديهم وفى مستهل القرن السابع الميلادى لقيت تجارتهم مع الصين عن طريق سيلان رواجاً عظيماً حتى لقد وجدنا تجار العرب فى أواسط القرن الثامن يقيمون فى كانتون فى جموع غفيرة وفى الفترة التى بين القرنين العاشر والخامس عشر حتى قدوم البرتغال كان العرب سادة التجارة مع الشرق دون منازع لذلك نستطيع أن نزعم فى شيء من التقليد المقبول أنه لابد أن يكونوا قد اسسوا مستعمراتهم التجارية فى بعض جزائر أرخبيل الملايو كما فعلوا ذلك فى أماكن أخرى فى عصر مبكر جداً ومع أننا لا نجد ذكراً لهذه الجزائر فى مذكرات العرب قبل القرن التاسع نجد فى حوادث سنة ٦٨٤م (٦٥هـ) فى الأخبار الصينية المدونة حسب السنين خبراً عن زعيم عربى يظن من التعليقات المتأخرة أنه كان زعيم مستعمرة عربية على ساحل (سومطره) الغربى(١) .

---

(١) توماس أرنولد ، الدعوة إلى الإسلام ص ٤٠١ ـ ٤٠٢ .

ويتبع السواد الأعظم من مسلمى الأرخبيل المذهب الشافعى الذى يسيطر فى الوقت الحاضر على سواحل الهند الشرقية والغربية كما كانت الحال كذلك حول منتصفى القرن الرابع عشر عندما زار (ابن بطوطه) هذه البقاع مما يدل على أن الدعاة الأوائل قد وفدوا على (أرخبيل الملايو) من سواحل الهند وعلى الأخص السواحل الجنوبية .

ولا شك أن التجار العرب الذين قدموا من اليمن ومن الخليج العربى ذهبوا إلى الصين كانت لهم مراكز فى (سومطره) و (ملقا) و (الفلبين) وهذه المراكز هى التى ألقت بذور الإسلام فى جزر الهند الشرقية ولابد أنهم قد وضعوا أساساً سياسياً واجتماعيا ثابتاً لجهودهم فى سبيل نشر تعاليم الإسلام ، إنهم لم يغدوا على هذه البلاد غزاة كما فعل الأسبان فى القرن السادس عشر ولم يستخدموا السيف أداة لتحويل الناس إلى الإسلام بل لم يدعوا لأنفسهم حقوق جنس أسمى يتمتع بالغلبة والسيادة لكى يحطموا بذلك شأن السكان الأصليين ويسلبوا حقوقهم بل قدموا فى زى التجار واستخدموا كل ما لديهم من ذكاء أسمى ومدنية أرقى فى سبيل دينهم ، أكثر من أن يكونوا قد استخدموا ذلك وسيلة لتسع نفوذهم الشخصى أو لتنمية ثرواتهم (١) .

وتنشر الأخبار المتداولة فى جزر (الملايو) أن أول داعى ذهب إلى جزيرة (سومطرة) هو رجل عربى يدعى (عبد الله عارف) وتذكر أيضا أنه زارالجزيرة فى منتصف القرن الثانى عشر الميلادى وأن أحد تلاميذه وهو (برهان الدين) حمل الدعوة معه إلى الساحل الغربى .

والراجح أن الإسلام ظل وقتا مقتصرا على الموانئ التى اتصل بها تجار المسلمين وبدأ يتقدم ويتوغل فى داخل الجزر شيئاً فشيئاً ويذكر الراحلة الأوربى (٢) (ماركوبولو) الذى قضى خمسة أشهر على ساحل سومطره

---

(١) المرجع السابق ص ٤٠٣ .	(٢) هو إيطالى من البندقية .

الشمالى فى سنة ١٢٩٢م أن جميع السكان عبدة أوثان اللهم إلا فى مملكة(برلاك) الصغيرة على الزاوية الشمالية الشرقية من الجزيرة حيث كان سكان المدن وحدهم مسلمين لأن تجار العرب الذين كثر ترددهم على هذه المملكة قد ادخلوا الأهالى فى الإسلام أما سكان المرتفعات فكلهم وثنيون اومتوحشون يأكلون لحوم البشر [١] .

وتحدثنا الروايات التى تتحدث عن مدينة سومطره أن شريف مكة أرسل بعثة لتحويل شعب سومطره إلى الإسلام وكان قائد الجماعة رجلاً يدعى الشيخ (إسماعيل) وبفضل دعوتهم اقتنع شعب هذه الجزيرة باعتناق الإسلام وكانت أول مدينة وصلوا إليها باسورى فى الساحل الغربى ، ثم تقدموا شمالاً حتى وصلوا إلى الساحل الشرقى فى مقابلة ملقا .

وصل الشيخ (إسماعيل) فى جهوده إلى أن أقنع ملك سومطره الوثنى باعتناق الإسلام فاتخذ لنفسه اسم (الملك الصالح) .

وفى مستهل القرن التاسع عشر ، قامت فى سومطره نهضة دينية ، ولم تكن عادمة التأثير فى ترويج دعاية للإسلام أبعد مدى وأعظم أثراً .

وفى سنة ١٨٠٣ رجع ثلاثة من جماعة (الحاجى) من مكة إلى وطنهم سومطره ، وكانوا فى أثناء وجودهم فى المدينة المقدسة قد تأثروا تأثيراً عميقاً بالحركة الوهابية التى قامت لإصلاح الإسلام ، فأصبحوا الآن يتوقون إلى إن يدخلوا مبادىء هذا الإصلاح بين مواطنيهم ، وإلى أن يبثوا فيهم حياة دينية أكثر صفاء وأشد غيرة .

ومن ثم أخذوا فى الدعوة إلى التشدد فى التوحيد الذى تقول به الطائفة

(١) المرجع السابق ص ٤٠٥ .

الوهابية ، وحرموا التوسل إلى الأولياء وشرب الخمر والميسر وسائر الأعمال التى تتعارض مع القرآن وجعلوا عدداً من بين إخوانهم فى الدين والأهالى الوثنين على سواء يدخل فى مذهبهم . وأخيراً أعلنوا الجهاد على (البتك) ولكن الحركة فقدت صبغتها الأصلية وانحطت فأصبحت حرباً وحشية دامية ترمى إلى الغزو ، وذلك بوقوع هذه الحركة فى أيدى قوم لا وازع لهم يطمحون إلى الشهرة .

وفى سنة ١٨٢١ وقع هؤلاء الذين عليهم جماعة البدرى فى نزاع مع الحكومة الهولندية ، ولم تأت سنة ١٨٣٨ حتى سقط آخر معاقلهم وكسرت شوكتهم [(١)] .

كان العرب قديما يجلبون من أندونسيا البهارات والكافور والصندل والفلفل والذهب والفضة والرصاص والأرز والعاج والأبنوس والطيور والخيرزان. وقد اختص العرب بمعرفة الأسفار إلى المشرق وكانت تجارتهم العربية قبل الميلاد بقرون عديدة تحملها السفن المصرية والفينيقية إلى أندونسيا مارة بسواحل الهند ومعنى هذا أنه كان من الطبيعى أن نبأ ظهور الإسلام وصل إلى الشرق الأقصى عن طريق العرب بقدر سرعة الرياح التى كانت تسير بها السفن التجارية وبعد إسلام هؤلاء التجار كان من الطبيعى أيضاً أن هؤلاء التجار كانوا رسل الدعوة الإسلامية إلى جنوب شرقى آسيا ، فلابد أن الإسلام قد وصل إلى أندونسيا وجزر الهند الشرقية بصفة عامة فى أول القرن الهجرى الأول ويذكر بعض الباحثين [(٢)] أن ذلك حصل فى عهد خلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه .

---

(١) المرجع السابق ص ٤١٠ .

(٢) عبد الله شكرى زركش ، دور المسلمين الأندونيسيين فى استقلال أندونيسيا من سنة ١٩٣٠ ـ ١٩٤٥ ص ١٤ .

لقد ذكرنا من قبل أن الإسلام انتشر فى جزيرة (سومطره) وكان ذلك لوقوعها فى الطريق التجارى بين الهند وفارس وجزيرة العرب غرباً والصين شرقا ثم منها انتشر لجزيرة (ملقا) (ماليزيا الآن) وقد ذكر مؤرخ صينى (شينج هو) أن حاكم (ملقا) فى سنة ١٤٠٤م كان مسلماً وفى منتصف القرن الخامس عشر كان نفوذ الدولة الإسلامية بملقا قد وصل إلى معظم الملايو.ولقد نافست الدولة الإسلامية فى (ملقا) مملكة (جاوه) وكانت فى إحدى الجزر الأندونيسية وكانت قد تسرب إليها الضعف بسبب منافسة الدولة الإسلامية فى(ملقا) وقد انتهز مسلمو ملقا وسومطرة هذه الفرصة وقاموا بدعة الجاويين إلى الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة ووصل إلى جزيرة جاوه أحد علماء الفرس وهو (مولانا ملك إبراهيم) الذى قام بالدعوة الإسلامية وتوفى بها سنة ١٤٠٩م وشيئاً فشيئاً ازداد عدد المسلمين فى جاوه وتحرروا من قيود البوذية والهندوكية التى كانت منتشرة فى هذه الجزر .

وبنفس الطريقة أى طريق التجار انتشر الإسلام فى جزيرة (مالوكو) والجزر المجاورة لها فى أواخر القرن الخامس عشر الميلادى .وفى حوالى سنة ١٥٠٠ م دخل الإسلام إلى مدينة (برونى) وهى مركز سلطان برونى فى شمال جزيرة (كاليمنتان) التى كان لها نشاط تجارى واسع يصل إلى بلاد الصين ، ثم دخل الإسلام بعد ذلك جزيرة (سولاويسى) ومنها انتشر إلى جزر الفلبين ومنها أيضاً انتشر إلى جزر (مالوكو) وجزيرة (إيريان) الغربية فى الشرق.

ومن (جاوه) انتشر الإسلام شرقاً إلى مجموعة الجزر الموجودة بين جزيرة (تيمور) وجزيرة (جاوه) .

استعمار جزر الهند الشرقية

تمكن الهولنديون فى فترة سيطرة أسبانيا عليهم من معرفة الطريق إلى الهند منذ سنة ١٥٨٠م وخرج أول أسطول هولندى إلى الهند سنة ١٥٩٥م وكان يتكون من أربع سفن بقيادة (هوتمان) فبلغ الجزائر الأندونيسية ثم عاد إلى هولندا وكانت هذه الرحلة سبباً فى تأسيس (شركة الهند الشرقية الهولندية) سنة ١٦٠٢م وكانت هذه الشركة سبباً فى هيمنة الهولنديين على كثير من المستعمرات فى الشرق وورثت المستعمرات البرتغالية فى طريق رأس الرجاء الصالح وجزر الهند الشرقية واستراليا ونيوزلنده وركزوا اهتمامهم فى الجزر الأندونيسية حيث طردوا البرتغاليين من هناك وفى سنة ١٦٤١م انتزعوا من البرتغال (ملقا) [1] التى كانت مصدر قوتهم وجعلوا من أنفسهم سادة لهذه الجزر التى كان يطلق عليها جزر التوابل واتخذوا من جزيرة جاوه الأندونيسية مركزاً لأمبراطوريتهم الشرقية واعترفت أسبانيا بإستقلالهم سنة ١٦٤٨م .

ولم يهتم الهولنديون فى بداية الأمر بنشر المسيحية كما كان يفعل البرتغاليين قبلهم ، وبدوا كما لو أنهم تجار فحسب مما جعل سكان الجزر الأندونيسية يأنسون إليهم فى البداية ولكن سرعان ما بدت وسائل السيطرة التجارية الماكرة تظهر فقد اتبعت الشركة نظام دفع الثمن على المحاصيل مقدماً إلى المزارعين وهى طريقة ربوية ماكرة تؤدى إلى الحصول على التجارة بأثمان أقل وشيئاً فشيئاً أدت إلى رهن الأراضى للهولنديين ثم الأستيلاء عليها من أصحابها ثم عندما تورطوا فى الأستدانة ولم يوفوا الشركة بمحاصيلهم ساروا يعملون بنظام السخرة فى أرضهم لصالح الشركة .

فلما قاوم السكان المسلمون ذلك الوضع أخمدت هولندا مقاومتهم

---

(١) بانيكار ، آسيا والسيطرة الغربية ، ص ٥٥ - ٥٦ - ٥٧ .

بالقوة القاهرة وسار الهولنديون السادة الذين لا ينازعهم منازع فى ثروة الجزر الأندونيسية وحاولوا فرض لغتهم لتكون هى اللغة الرسمية فى البلاد .

ولم يكن البرتغاليون والهولنديون وحدهم هم الذين حاولوا استعمار اندونيسيا بل اننا نجد بريطانيا قد أتت إلى هذه الجزر وأقامت قلعة لها فى (بان كولن) على الشاطئ الغربى لسومطرة فى سنة ١٧١٤م وظلت هناك حتى سنة ١٨٢٥م .

وقد سقطت أندونيسيا تحت حكم الشركة البريطانية للهند الشرقية ١٨١١ - ١٨١٦م أثناء حروب نابليون التى تمكن فيها من احتلال هولندا ولكن بريطانيا وهولندا عقدتا معاهدة فى لندن فى ١٣ أغسطس ١٨١٤م قضت بإعادة المستعمرات والممتلكات الهولندية التى كانت موجودة فى سنة ١٨٠٣ إلى هولندا وبذلك استردت هولندا الجزر الأندونيسية من بريطانيا [١] .

ومن ذلك يتبين لنا أن البرتغال وبريطانيا وهولندا قد حاولوا استعمار أندونيسيا ومكثوا فيها بعض الوقت غير أن هولندا وحدها هى التى تمكنت من البقاء فى أندونيسيا منذ مطلع القرن السادس عشر ومكثت فيها تستنزف خيراتها وتستولى على مقدراتها وتقف حجر عثرة فى سبيل تقدمها ورقيها حتى احتلت القوات اليابانية أندونيسيا فى مارس ١٩٤٢م بعد استسلام الجيش الهولندى أمام اليابان .

نظام الحكم الذاتى

لقد كان الاستعمار الهولندى يعتمد حتى سنة ١٧٤٣ فى إدارة الجزر الأندونيسية على حكام محليين ، ظل حكمهم حتى هذه السنة قاصراً على

---

(١) د. محمد زيتون ، المسلمون فى الشرق الأقصى ، ص ١٢٥ .

إدارة مؤسسات وحصون متناثرة من نقطة مركزية هى (جاكرتا) التى أطلقوا عليها إسم (باتافيا) وكان للشركة حق الأحتكار فيما يتعلق بتصدير التوابل .

وأدرك الهولنديون منذ زمن مبكرالنفقات الزهيدة التى يتكلفها نظام (الحكم غير المباشر) ومن ناحية أخرى أتاحو للسلاطين حرية القتال فيما بينهم وظلم رعاياهم وفعل كل ما يشاءون ما دامت الشركة تحتكر التجارة ، ولكن سرعان مادب دبيب الأنحلال إلى البلاد بسبب هذا النظام الفاسد الذى جمع بين الأستقلال السياسى والتبعية الأقتصادية وأدت هذه الحال إلى مواصلة التدخل لتأييد الحكام إن كانوا أصدقاء للهولنديين ولخلعهم إن لم يكونوا خاضعين للسياسة الهولندية ، حتى أن الهولنديين كانوا يسلحون الأب على ابنه،والأبن على أبيه ، وكانوا ينضمون اليوم إلى الملك وغدا إلى رعيته تبعاً لمقتضيات مصلحتهم.

ولما أحدث هذا النظام ضرراً بليغاً فى أحوال الجزر الأقتصادية أضر بمصالح هولندا اضطرت فى سنة ١٧٤٣ إلى الأستيلاء المباشر على الأرض وإنقاص الإستقلال السياسى للسلطنات .

ففى تلك السنة استولت الشركة على جميع النواحى الساحلية فى الجبهة الشمالية من (جاوه) ، كما نقلت إلى يدها نيابياً البينة المطلقة على جميع الموانى البحرية وعلى أراضى كثير من الممالك (بلامبورجان) [١] .

وبذلك تقوى مركز الهولنديين بجاوة عند حلول عام ١٧٦٠ ، ولكن اهتمام الشركة ومصلحتها ظلا فى (سومطرة) والأقاليم الخارجية قاصرين على التجارة وحدها .

---

(١) بانيكار ، آسيا والسيطرة الغربية ، ص ١١٠ - ١١١ .

ولكن فى نهاية القرن الثامن عشر أضحى الهولنديون هم السادة العليون لجميع أقاليم الجزر الإندونيسية وفى سنة ١٧٩٥ حذت هولندا حذو فرنسا واختارت طريق الثورة ، وانزعجت السلطات الأستعمارية فى أندونيسيا من تطبيق المبادىء الثورية الفرنسية التى تتعلق (بالحرية والأخاء والمساواة) على الجزر الأندونيسية على أن هذه السلطات سرعان ما وصلت إلى ترجيح مصالح الشركة التى هى أكثر أهمية ولذلك اتفقوا على أن تكون (الحرية والإخاء والمساواة) إنما تكون بأرض الوطن فقط والأستغلال فى بلاد المستعمرات ، كانت هذه واقع المبادىء الثورية الأوربية ، وفى سنة ١٧٩٨ أصبحت إندونيسيا مستعمرة لهولندا وتابعة للدولة [١] .

ومع أن الحكومة بهولندا ظلت تعتنق المبادىء الثورية إلا أنهم ذيلوا ذلك بأن نصوا على أن :

(مبادىء الحرية والمساواة لا يمكن أن تنقل إلى ممتلكات الدولة بالهند الشرقية ولا أن تطبق عليها ما دام أمن هذه الممتلكات يعتمد على الإبقاء على حالة الخضوع الراهنة الضرورية (التى كان عليها الإندونيسيون) .

ونظر الهولنديون إلى الشعب الأندونيسى نظرتهم إلى البهائم وهذه النظرة وضعها (كوين) مؤسس (جاكرتا) وجعلها مبدأ أقيمت على أسسه السياسية الهولندية ، فلقد تساءل قائلاً : « أفلا يستطيع أى رجل فى أوربا أن يفعل ما يشاء بماشيته؟ هكذا يفعل السيد هنا برجاله ، ذلك لان هؤلاء بكل ما يملكون إنما هم فى كل مكان ملك للسيد بالمثل شأنهم فى ذلك شأن البهائم فى الأراضى المنخفضة والقانون بهذه البلاد هو إرادة الملك ، والملك هنا هو من يكون أقوى الناس » .

---

(١) المرجع السابق ، ص ١١٢ - ١١٣ .

ولم يحدث قط لا فى نظرية الحكم عند الهندوك ولا المسلمين أن ادعى أحد أن الحاكم يملك الشعب .

ويقول بانيكار : « ولكن مذهب (كوين) الشرير أصبح أساساً لمعاملات الهولنديين وممارستهم والدعامة النظرية التى تقوم عليها علاقة الزارع المستعمر الهولندى بالكولى (العامل) الإندونيسى تلك العلاقة التى سادت بإندونيسيا مدة مائة عام [١] .

استعمار الفلبين وأندونيسيا

تتألف الفلبين الحالية من مجموعة الجزر التى تقع بين الجزر اليابانية فى الشمال وجزر أندونيسيا فى الجنوب وكان الإسلام قد انتشر فى هذه البلاد عن طريق التجارة كما ذكرنا وفى سنة ٩٢٧هـ (١٥٢١م) وصل إليها الأسبان عن طريق جهودهم المستمية لمحاصرة الملسمن وذلك بقيادة (ماجلان) وعندما رأى ماجلان المسلمين أطلق عليهم اسم (مورو) وهو نفس الإسم الذى كان يطلقه الأسبان على المسلمين فى الأندلس وشمال أفريقيا [٢] .

وعندما أراد ماجلان نشر المسيحية الكاثولوكية فى تلك الجزر اصطدم بالمسلمين الذين كانوا يتمركزون فى الجزر الجنوبية أهمها (سولو) و(ماجندناو) ونشبت معركة بين الطرفين قتل فيها ماجلان وقل عدد من بقى من رجاله وسفنه فعاد منهم عدد ضئيل حوالى ١٨ رجلاً فى سفينة واحدة إلى أسبانيا وقد أطلق الأسبان على هذه الجزر اسم (فيليب الثانى) ابن ملك اسبانيا وقبل مجىء الأسبان إلى هذه الجزر كانت تعرف بإسم (إنديوس Indios)

---

(١) بانيكار ، المرجع السابق، ص ١١٤ .

(٢) ومن لفظه مورو جاءت كلمة (موروكو) = مراكش باللغة الأسبانية وجاءت أيضا لفظة موريتانيا للدلالة على بلاد شنقيط المغربية الإسلامية .

وظل إسم فيلبين فترة طويلة يعنى فى تلك الجزر الأسبان المولودين فيها ثم أطلق أخيراً على كل سكان تلك الجزر .

والواقع أن الأسبان جاءوا إلى جزائر (إنديوس) مجاهرين بسياسة واضحة هدفها :

أولا: توسيع رقعة ممتلكات أسبانيا.

ثانياً: تنصير سكان البلاد التى يحتلونها .

ولم يستطع الأسبان استعمار المناطق الجنوبية الإسلامية لأن بها سلطنات إسلامية أهمها (سولو) و (ماجندناو) تلك المناطق التى ظلت محافظة على استقلالها حتى الربع الأخير من القرن التاسع عشر (١) .

واستمرت الحرب بين الأسبان وبين المسلمين حتى سنة ١٨٩٨م وفى هذه المدة ازداد انتشار النصرانية فى الفلبين حتى أصبحوا أكثر عدداً من المسلمين فى ظل الحماية الأستعمارية الأسبانية ، وذلك فى الجزر الشمالية .

وكانت جزر الفيلبين البالغ عددها (٧١٠٠ جزيرة) تقريبا جزءا من جزر الهند الشرقية ، وقد أطلق عليها أيضا جذر الهند الصينية لوقوعها بين نفوذ الحكام فى الهند والصين ، وأطلق عليها أيضا اسم : جزر ماليزيا غير البلد المعروف حالياً باسم ماليزيا (٢) .

ولما جاء الأسبان إلى الفيلبين أطلقوا على المسلمين الذين كانوا يحكمون هذه الجزر اسم « مورو » وعلى الوثنيين الذين تنصروا فيما بعد اسم « أنديوس » وعلى الأسبان الذين نزحوا اليها إسم « فيلبينوس » أى فلبينى

(١) قيصر أديب ،الإسلام فى الشرق الأقصى ، ص ١٦٠ - ١٦٣ .

(٢) عبد الباقى أبو بكر ، الإسلام فى الفلبين ، ص ١ - ٢ .

تميزا لهم عن الأسبان الذين هاجروا إلى أمريكا اللاتينية ، وأما التقسيم الجغرافى للفلبين فتنقسم هذه الجزر إلى ثلاث مجموعات :

١ ـ لوزان ـ بالشمال Luzan.

٢ ـ فيزيا ـ بالوسط Visaya.

٣ ـ مورو ـ بالجنوب (مندنا و وسولو) Mindanao and sulu .

ومجموعة الجنوب الاسلامى أو (مورو) هى أغنى هذه المجموعات من حيث الموارد الطبيعية وأحسنها من حيث الموقع والمناخ وأقلها سكانا نسبياً ومساحة الجنوب اليابس تبلغ ١١٥,٠٠٠ كم مربع من جملة مساحة الفلبين اليابسه ٣٠٠,٠٠٠ كم مربع .

وعدد سكان الجنوب ١١ مليون نسمة من مجموع سكان الفلبين ٤٠ مليون نسمة والمسلمون منهم من سكان الجنوب حوالى ٧ ملايين والباقى وثنيون ومسيحيون مهاجرون من الشمال والوسط .

الحروب الأسبانية المورية:

بعد قتل ماجلان عرف المسلمون فى الفلبين أن الحادثة تنذر بخطر مستطير ولابد أن أسبانيا سوف تنتصر وتعد العدة لذلك بحملات عسكرية لضرب الجزر والسيطرة عليها ، فأعدوا العدة للخوض فى غمار حروب طويلة.

وتوالت الحملات الأسبانية على الجزر الشمالية والوسط فتساقطت الجزر واحدة تلو الأخرى بفعل الأسلحة الحديثة التى لم تكن فى يد سكان هذه الجزر واستمرت الحروب الى أخر يوم انتهى فيه الحكم الأسبانى عام

١٨٩٨ م للجزر الفلبينية باستثناء منطقة مورو التى أبت أن يحكمها التاج الأسبانى ولو يوما واحدا طوال هذه الحقبة الطويلة من الزمن [١] حوالى ٣٣٣ عاما قضاها هذا الشعب البطل فى الدفاع عن سيادته وحريته وعقيدته .

وقبل أن يتخلص المسلمون من الأسبان وقعوا فريسة الاحتلال الأمريكى سنة ١٨٩٨ م بموجب تنازل من أسبانيا لأمريكا فى مقابل ٢٠ مليون دولار أمريكى ، وقد دام الاستعمار الأمريكى ٤٥ عاما وفى عام ١٩٤٢ تعرضت الفلبين للاحتلال اليابانى واجتاحت القوات اليابانية البلاد ، واستمر جهاد المسلمين ضدهم مدة أربع سنوات استطاع المسلمون أن يحققوا النصر على اليابان [٢] .

الحروب الأمريكية ـ المورية ١٨٩٩ ـ ١٩٤٠ م :

استمرت الحروب بين شعب المورو المسلم وبين أمريكا ٤٠ عاما ابتداء من عام ١٨٩٩ بعد الغارة الأمريكية على حصن أسبانى ، ولم تنته هذه الحروب حتى حققت لأمريكا مآربها وهى فرض الاستعمار الكامل والسيطرة الكاملة على بلاد المورو ، ولكنها توقفت بوقوع البلاد فى خضم الحرب العالمية الثانية .

وقد اضطرت أمريكا إلى الإنسحاب من الفلبين إلى استراليا ، وخاض المسلمون حروبا جديدة ولم ير المسلمون فرقا شاسعا بين الاستعمار القديم المتمثل فى التاج الأسبانى وبين الاستعمار الحديث الذى خططته الرئاسة الأمريكية ، ولا بين هذا وذاك وبين الاستعمار الفلبينى الجديد . وإذا كان الأسبان جاءوا إليهم ليستولوا على أرض لا يملكونها ، ثم أتى الأمريكان

---

(١) عبد الباقى أبو بكر ، المرجع السابق ص ١٠ .

(٢) جريدة العالم الإسلامى التى تصدرها رابطة العالم الإسلامى من مكة المكرمة ، عدد الإثنين ١٤ من أبريل ١٩٩٦ من مقال لأحمد محمد عبد العظيم بعنوان: «المسلمون فى الفلبين» .

ليتسلموا بلدا لا يستحقونه فعلى أى أساس يأتى الفلبينيون ليسرقوا شعبا لم يقع في قبضتهم ، ويسلبوا حقه [1] .

التخطيط الأمريكى لمحاربة المسلمين :

أدركت أمريكا أنها تحكم شعبين فى جزر الفلبين شعب فلبينى وشعب مورو ، ولذلك حددت أمريكا الحدود الجغرافية لأراضى مورو عام ١٩٠٣ وهى جزيرة « منداناو» ومجموعة جزر « سولو » وأقامت أمريكا حكومتها الاستعمارية فى الفلبين وسمتها « فلبينى كوميشن » وأما التخطيط الذى رسمته فى الجنوب المسلم فكان ذا شقين الشق العسكرى ، والشق السياسى .

ولقد شغل الشق العسكرى عشرة أعوام من عام ١٩٠٣ - ١٩١٣ تحت قيادة حاكم عسكرى لإدارة مورو ومن عام ١٩١٤ حتى عام ١٩٢٠ عينوا حاكما مدنيا لإدارة المورو .

وفى **المرحلة الأولى** :(من ١٩٠٣ - ١٩١٣) وضع الأمريكان ثقلهم لمواجهة سولو بصفتها أقوى المعاقل الاسلامية بالجنوب وأوسعها رقعة ، وبحكم موقعها الجغرافى حيث أنها متصلة بحرا بجميع مناطق مورو ، وعلى الرغم من أن الحكم كان عسكريا فإن أمريكا سعت إلى عقد هدنة سلام مع سلطان سولو « جمال الكرام الثانى » ولكن الهدنة لم تخفف كثيرا من حدة التوتر .

وفى **المرحلة الثانية** :(١٩١٣ - ١٩٢٠) اتسمت السياسة الأمريكية فى هذه المرحلة بالسمة المدنية وأشرف على شئون مورو حاكم مدنى لإدارة شئون مورو وساد البلاد هدوء نسبى فى الفترة من ١٩١٥ حتى ١٩١٨ نتيجة سياسة التهدئه والترغيب .

---

(١) المرجع السابق ص ١٠ - ١١٠

وأتت بعد ذلك **مرحلة ثالثة** من ١٩٢٠ - ١٩٣٦ وفيها لم يحقق الأمريكان نجاحا نسبيا بتهدئة الموقف ، فأرادوا استخدام السلاح الثقافى وذلك لأن السلاح العسكرى فى المراحل السابقة للأسبان والأمريكان بهدف التصفية وتخويف المسلمين لم ينفعهم ولم يحقق انتصارا ، وأما السلاح الثقافى فهو يحارب العقول ويغير الاتجاهات والأفكار ؛ ولذلك وضع «حاكم» « كاربتر » برنامجا ثقافيا وتربويا ، وقال له أحداً أعضاء مجلس النواب الأمريكى : «أنت تقوم بعمل خطير جدا لأنك تثقف المسلمين ليعرفوا قيمتهم » .

ونجح هذا البرنامج نوعا ما خصوصا فى المدن بينما وقف زعماء القبائل الاسلامية قاطبة ضد هذا البرنامج بحجة أنه برنامج لتكفير المسلمين وتنصير عقليتهم وتغيير أساليب حياتهم الى الحياة المسيحية الاباحية .

أما **المرحلة الرابعة** : والأخيرة من فترة الحكم الأمريكى فكانت من سنة ١٩٣٦ حتى سنة ١٩٤٦ وقد تغير فيها وضع الحكم الأمريكى بالفلبين إلى حكومة انتقالية تمهيد اللاستقلال التام الذى تقرر اعلانه فى عام ١٩٤٥ ولكنه تأجل إلى ٤ يوليو ١٩٤٦ بسبب انشغال جميع الأطراف بالحرب العالمية الثانية، وقد أصبح اسم الحكومة فى هذه الفترة « حكومة الكومنولث الأمريكية بالفلبين » ، وأسندت أمريكا الوظائف الادارية إلى الفلبينين وأصبح الاشراف على شئون المسلمين بيد المسيحيين الفلبينين تحت حماية أمريكا على الرغم من احتجاج المسلمين ، وكان واضحا أن هذا تمهيداً لضم بلاد مورو إلى الفلبين المسيحية ، وهذا مخالف لحق تقرير المصير وهو من الحقوق المعترف بها فى الأمم المتحدة .

وعلى كل حال فقد تم اعلان استقلال الفلبين سنة ١٩٤٦ غير أن الدولة تحتفل فى الوقت الحاضر بعيد الاستقلال على أنه تم فى ١٢ يونيو ١٨٩٩

وهو تاريخ خروج آخر جندى أسبانى من الجزر واعتبروا الفترة الاستعمارية الأمريكية التى دامت ٤٥ عاما عهد للصداقة الأمريكية الفلبينية .

شعب المورو يرفض :

ولقد رفض المسلمون تسليم أمورهم للمسيحيين فى شمال البلاد لأنهم كافحوا وناضلوا بكل ما هو غال ورخيص لأجل الحفاظ على حريتهم الدينية وأملاكهم طيله أربعة قرون فأكثر ، ولم يقبلوا هذا الظلم .

وعلى الرغم من اعلان الاستقلال عام ١٩٤٦ م ولكن ظل النفوذ الأمريكى مهيمنا على البلاد حتى عام ١٩٤٨ م واعتبر المسلمون أن ضم بلاد مورو للدولة المسيحية الجديدةليس شرعيا ، وحاولت الحكومة الجديدة اقناع المسلمين بشرعية الوضع الجديد بشتى الوسائل إلا أن عملية الضم المخادعة سبقت عملية الاقناع .

فحاولت الاخضاع بالوسائل العسكرية لكنها فشلت أمام عقيدة قاطعة للمسلمين بأن الموت والحياة بيد الخالق القدير ، والتولى عند الزحف كفر ومأواه جهنم وبئس المصير ، وأما السلاح التشريعى والقانونى فيقابله المسلمون بمفهوم عقائدى لايلين أبداً ، أى لا يعرف المرونة حسب التعبير الدبلوماسى الحديث ، ويفسرون بأن أى قانون غير مستنبط من الكتاب والسنة والمصادر التى أجمع على صلاحيتها وصحتها علماء المسلمين فى العالم لا يجوز العمل به فى ديار الاسلام (١) .

ولذلك قال الجنرال (برشينج) الخبير الأمريكى فى الاستراتيجية الحربية والذى تعين حاكما عسكريا فى إدارة شئون المسلمين فى مورو عام ١٩٠٦ - ١٩٠٩ :

---

(١) عبد الباقى أبو بكر ، أمين عام العلاقات الخارجية لجبهة تحرير مورو .

« إننى لا أعرف كيف أقاتل أناسا يعتقدون أن الموت شرف لهم » وقد قال هذا القول بعد ما فشل فى أعماله الحربية لاخضاع المسلمين .

وسائل الحكومة الفلبينية لاخضاع المسلمين :

١. الوسيلة الثقافية : فتحت الحكومة أبواب التعليم على مصراعيها أمام الارساليات المسيحية ، وأصبحت هذه المدارس تصور المسلمين من شعب المورو بأشكال قبيحة منفرة مثل أن مورو قتلة ومجرمين وقرا صنة وإرهابيين وانتحاريين وجهلاء متأخرين وغير أخلاقيين لأنهم يتزوجون أكثر من واحدة ، وأما الأسبان والأمريكان الذين جاءوا من أقصى الدنيا لقتال المسلمين وسلب أرضهم وأملاكهم فتصورهم على شكل رسل رحمة ، وأبرزوا فى مادة التاريخ أسماء وصور لأبطال مسيحيين فلبينيين وأجانب بينما تناسوا تماما ماضى المسلمين وكفاحهم الطويل ضد الاستعمار الأسبانى والأمريكى ، ويقصدون من وراء ذلك تشويه صورة المسلمين تاريخيا .

٢. الوسيلة الادارية : لجأت حكومة الفلبين إلى تفتيت الوحدة للمنطقة الاسلامية فى الجنوب ، وأجرت تغييرا جذريا فى المعالم الحضارية وغيرت أسماء الوحدات والقبائل والقرى الاسلامية باسماء مسيحية مستحدثة ، ولا تزال عملية التقسيم جارية الى الآن بغرض إبادة الكيان الاسلامى تماما .

هذا بالاضافة الى بث الفرقة بين المسلمين وإعطاء بعض ضعاف النفوس من المسلمين بعض المكاسب والمناصب لكى يكونوا حرباً على إخوانهم المسلمين لاضعاف جبهة المقاومة .

ووضعت الحكومة خطة للادماج الوطنى سنة ١٩٥٧ ، ومع ذلك فإن مناطق المسلمين ظلت أكثر المناطق خرابا وتأخرا ، ووضعت حكومة الفلبين

نظاماً لشئون الأرض والاستيطان منذ عام ١٩٤٨ وهذه السياسة فى الحقيقة كانت استمرارا للبرامج التى رسمتها أمريكا منذ عام ١٩٠٣ وكانت تقضى بإلغاء جميع الرخص والعقود الصادرة من سلاطين المسلمين لامتلاك الأرض ما لم تكن مصدقا عليها من سلطة التاج الأسبانى وهذا قانون مجحف ومناف لأبسط صور حقوق الانسان إذ كيف يحصل المسلم على تصديق من أسبانيا على رخص لامتلاك أرضه إذا كانت أسبانيا لم يسبق لها أن حكمت هذه الأرض .

٣ .الوسيلة العسكرية : وقفت القوات المسلحة مع كل الوسائل السابقة حامية لها ولم تتوقف الحرب بين الفلبين وشعب المورو منذ عام ١٩٦٥ حتى عام ١٩٩٦ واستمر جهاد المسلمين ضد حكومة الفلبين لمدة ٣١ عاماً إستطاع المسلمون ان ينتصروا فيها على الفلبين وتعرضت البلاد فيها لموجة من الصراع النامى بين المسلمين والنصارى وذلك عقب ضم جزيرة (ميندناو) المسلمة إلى جزيرتى (لوزيويو)و (بيايس) ذات الأغلبية النصرانية ، مما أدى إلى مطالبة المسلمين باستقلال بلادهم الجنوبية وثاروا على الحكومة الفلبينية ولم تستجب الحكومة الفلبينية لمطالبهم واستعملت ضدهم العنف والقوة لاجبار المسلمين على تقبل الوضع الراهن مما أدى إلى تفجر الموقف ومواصلة المسلمين الجهاد ضد الحكومة للحفاظ على الهوية الاسلامية من الضياع وللحفاظ على ارض بلادهم من النهب ، وهذا الصراع لايزال مستمراً حتى اليوم كما ان سياسة الاستيطان التى تبعتها الحكومات المتعاقبة على حكم البلاد حتى الحكومة الحالية أدت إلى زيادة عد د المستوطنين النصارى فى المناطق الاسلامية ، واصبح المسلمون اقلية ، كما حدث فى اقليم لاناو الشمالى ، كما انخفضت نسبة المسلمين فى بعض المناطق من ٩٠٪ إلى ٧٥٪ ولا تزال مخططات التنصير فى المناطق الإسلامية مستمرة من جانب

الحكومة الحالية للفلبين والتى تدين بالنصرانية ، كما أن الظلم والقهر الذى يتعرض لهما المسلمون من جانب الحكومة الحالية التى تحكم الفلبين فرض عليهم ظروفاً اقتصادية ومعيشية قاسية كان لها تأثير كبير على حاضرهم ومستقبلهم ويعيش المسلمون اليوم فى ظل هذه الحكومة ظروفاً قاسية ويصارعون من اجل استعادة حريتهم والاحتفاظ بما تبقى تحت ايديهم من اراضى وممتلكات والاحتفاظ بهويتهم الإسلامية [1].

اتفاق طرابلس ١٩٧٦م

توصلت الوساطة الاسلامية المضنية التى بذلتها منظمة المؤتمر الاسلامى واللجنة الوزارية الرباعية المنبثقة عن هذه المنظمة والمشكلة من السعودية وليبيا والصومال والسنغال فى مؤتمر وزراء الخارجية الاسلامى فى بنغارى عام ١٩٧٣ إلى اتفاق عرف (باتفاق طرابلس) فى ٢٣ ديسمبر ١٩٧٦م.

ويتضمن الاتفاق بنودا أهمها : منح المسلمين بالجنوب الاسلامى الحكم الذاتى فى ١٣ منطقة اسلامية من ٢٦ منطقةمن أراضى مورو الوراثية، واعلان وقف اطلاق النار الذى يندرج تحته المسائل الآتية : الإفراج عن المعتقلين المسلمين نتيجة أحداث الحرب التى وقعت بين السلطات الحكومية وبين قوات جبهة تحرير مورو ، واعلان العفو العام ، وتأمين الحرية للاجتماعات والتنقلات للمسلمين . كما يتضمن الاتفاق كذلك موضوع [2]

---

(١) جريدة العالم الإسلامى التى تصدرها رابطة العالم الإسلامى من مكة المكرمة ، عدد الإثنين ١٤ من أبريل ١٩٩٦ من مقال لاحمد محمد عبد العظيم بعنوان: «المسلمون فى الفلبين» .

(٢) عبد الباقى أبو بكر ، مذكرة قضية شعب مور . حول اتفاق طرابلس .

بحث تحديد النسب المعينة لحكومة الحكم الذاتى من موارد المعادن والمناجم بالجنوب ، وحق المسلمين فى اتخاذ نظام تربوى تعترف به الحكومة ، وتشكيل القوات الأمنية الداخلية ، وحقهم فى المشاركة بالشئون الخارجية والعسكرية بصفتهم مواطنين فليبنيين وإقامة المحاكم على أساس الشريعة الإسلامية ، ومشاركة منظمة المؤتمر الاسلامى فى تهيئة وتشكيل الحكومة المؤقتة لحكومة الحكم الذاتى للمسلمين بالجنوب ، ومسئولية حكومة الفلبين فى وضع الحكم الذاتى فى الاطار الدستورى والقانونى للبلاد .

ويتم طبقا للاتفاق وضع الصيغة النهائية لتنفيذ الاتفاق برمته فى مفاوضات لاحقه فى الخارج تحت اشراف منظمة المؤتمر الاسلامى ثم توقع عليها الاطراف المعينة وهى حكومة الفلبين ، وجبهة تحرير مورو ، ومنظمة المؤتمر الاسلامى ، واللجنة الوزارية الرباعية فى مانيلا .

وأما البند الخاص بوقف اطلاق النار وما يندرج تحته فقد أعلنت حكومة الفلبين التزامها به اعتبارا من تاريخ توقيع الإتفاق وهو ٢٣ ديسمبر ١٩٧٦ وأما الجبهة فقد اتفقت جميع الأطراف المعينة على أن يبدأ التزامها باتفاق وقف اطلاق النار اعتبارا من ٢٠ يناير ١٩٧٧ نظرا لصعوبة الإتصال بقواعدها العسكرية فى المناطق المختلفة .

وحيث أن البند الخاص بوقف إطلاق النار كان أول بند من بنود الاتفاق دخل فى حيز التنفيذ تحت اشراف اللجنة المشتركة لوقف اطلاق النار المكونة من الممثلين لحكومة الفلبين ، وجبهة تحرير مورو ، ودول اللجنة الوزارية الرباعية فإنه كان أول بند منى بالتصدع والإنهيار تماماً بعد أربعة شهور فقط من اعلان جميع الأطراف بالإلتزام فى ٢٠ يناير ١٩٧٧ وقد انهار هذا البند تاركا وراءه سجلا حافلا بأحداث خرق وقف اطلاق النار تبلغ ١٦٠٠ حادثة قتل من

الجانب الفلبينى وحده غير الاعلانات الاستفزازية التى لا تقل خطرا عن أحداث القتل .

وأما البنود الأخرى ـ غير البند الأخير ـ فقد ولدت ميتة بارتباط مصيرها بالمفاوضات اللاحقة فى جولة فبراير ومارس ١٩٧٧ فى طرابلس ليبيا وفى جولة أبريل ١٩٧٧ فى مانيلا لأن هذه المفاوضات كلها قد أفشلتها حكومة الفلبين .

وأما البند الأخير الذى ينص بمسئولية الحكومة فى وضع الحكم الذاتى فى الاطار الدستورى والقانونى للبلاد والذى تفسره منظمة المؤتمر الاسلامى وجبهة تحرير مورو بالبند الذى يحمى الاتفاق بكاملة فقد استغله ماركوس اداة قانونية لتدمير الاتفاق برمته وذلك لأن ماركوس عرض الاتفاق للاستفتاء العام المزيف بالجنوب قبيل انعقاد المفاوضات اللاحقة المذكورة وأسفر الاستفتاء عن نتيجة ٩٧٪ برفض الاتفاق واستخدام ماركوس هذا الاستفتاء المزيف قنبلة ناسفة للاتفاق بحذافيره بحجة أن مسئولية وضع الحكم الذاتى فى الاطار الدستورى والقانونى كانت من اختصاص حكومته بأى أسلوب تراه مناسبا . أعلنت منظمة المؤتمر الاسلامى معارضتها وعدم اعترافها بهذا الاستفتاء بحجة أن الاتفاق الذى يتمتع بصفة دولية لا يجوز عرضه للاستفتاء من ناحية وأن مسئولية حكومة الفلبين فى وضع الحكم الذاتى فى الاطار الدستورى والقانونى للبلاد كانت لغرض حماية الاتفاق بضمان دستورى وقانونى للبلاد وليست لتدمير الاتفاق بضمان دستورى وقانونى للبلاد وليست تدمير الاتفاق بكامله وقد عارضت جبهة تحرير مورو الاستفتاء بشدة وأبلغت منظمة المؤتمر الاسلامى وحكومة الفلبين بأن الجبهة تعتبر الاستفتاء خطوة هدامة للاتفاق وهى بذلك تحمل حكومة الفلبين مسئولية جميع ما ينجم عن هذا الاستفتاء

من أمور لا تحمد عقباها . كما أبلغ الرئيس الليبى العقيد معمر القذافى الرئيس الفلبينى فرديناند ماركوس بأن الاستفتاء لا يزيد الأزمة إلا تعقيدا وغموضاً لا نهاية لهما . كما احتج على هذا الاجراء أيضا وزير خارجية تركيا بصفته رئيساً لمنظمة المؤتمر الاسلامى فى ذلك الحين بحجة أن الاستفتاء الذى يجريه ماركوس يمثل خرقا صريحا لاتفاق طرابلس . ولكن ماركوس لم يعر أذنا صاغية إلى هذه الاحتجاجات كلها .

ويلاحظ أن اتفاق طرابلس لم يتم التوقيع عليه بدون مقابل أو باعتبار أدق بدون مكاسب لحكومة الفلبين الاستعمارية وذلك لأن جبهة تحرير مورو تحت تأثير الشعور بالخوف من التعرض للانعزال عن العالم الاسلامى مرة أخرى بعد الانقطاع عنه لمدة ما يقرب من خمسة قرون تنازلت للقرارات الاسلامية عن مطلبها الاصلى للاستقلال التام وحق تقرير المصير لشعب مورو إلى مجرد الحكم الذاتى الذى يعنى قبولها لأول مرة فى تاريخ نضال شعبها الضم إلى حظيرة حكومة الفلبين الكاثوليكية الاستعمارية منذ أن تأسست فى القرن الخامس عشر الميلادى أول حكومة شهدتها الجزر التى أطلق عليها الآن اسم الفلبين وهى (سلطنة سولو الاسلامية) ثم (سلطنتا) (ماجينداناو) و (راناو) بجزيرة (منداناو) وكلها وقعت بالجنوب الذى تشكل مساحته نسبة ٣٨٪ من مساحة الفلبين اليابسة . وهذا التنازل تنازل سياسى وتاريخى عظيم وخطير خصوصا أنه تم أثناء حرب ضارية لم يخسر المسلمون فيها ولو معركة واحدة على مرأى ومسمع القريب والبعيد كما تنازلت الجبهة لحساب « اتفاق طرابلس» عما يقرب من ٥٠٪ من أراضى مورو الوراثية وهذا التنازل لا يقل خطرا وشأنا عن التنازل الأول .

على الرغم من ذلك كله أن الاتفاق الذى دفع المسلمون له ثمنا تاريخيا

باهظا وأكسب للفلبين الكاثوليكية الاستعمارية مكاسب لم يسبق لها مثيل فى تاريخ كفاح الشعوب لأجل التحرر الوطنى وفى تاريخ اجتهاد مرير لشعب مسلم لأجل اعلاء كلمة ربه ، لم تنفذه حكومة الفلبين لأسباب وهى :

إن حكومة الفلبين إنما وقعت على اتفاق طرابلس لتحقيق هدفين أساسين :

أولا:لاستلام مكاسبها التاريخية الممثلة فى تنازلات الجبهة ثم القضاء نهائيا على القضية .

ثانيا:للتغلب على مشاكلها الداهمة وهى :

أ ـ الضغوط العسكرية الممثلة فى الحرب الدائرة بين قواتها المسلحة وبين القوات الاسلامية لجبهة تحرير مورو بجنوب البلاد والمماطلة الأمريكية فى تزويد الفلبين بالسلاح كضغط على الثانى ليكسب الطرف الأمريكى فى المفاوضات التى كانت جارية فى ذلك الحين بين الفلبين وأمريكا حول موضوع ابقاء القواعد العسكرية الأمريكية بالفلبين .

ب ـ الأزمة الاقتصادية التى سببتها الحرب وتفشى الغش فى البلاد مما أثقل كواهل البلاد بالقروض المالية ـ التى تبلغ وقتها ـ ١٦ بليون دولار أمريكى لدرجة أن مؤسسة النقد الدولى قد أعلنت رفضها منح الفلبين المزيد من القروض نظرا لأنها قد حصلت على الحد الأقصى من القروض .

جـ ـ تخوف ماركوس ـ خطأ ـ من التعرض للمقاطعة البترولية من الدول الاسلامية التى تمول بلده بتروليا بمعدل ٩١٪ من حاجته اليومية من الاستهلاك البترولى ، وخصوصا أن موعد انتهاء العقود البترولية بين بلده وبين البلاد الاسلامية ينتهى سنويا فى شهر فبراير.

د ـ تفشى البطالة فى البلاد لسبب الاحتكار العسكرى لجميع مرافق البلاد .

كيف يواجه ماركوس هذه المشاكل ؟

يرى ماركوس ضرورة وضع تخطيط محكم لاستئصال هذه المشاكل فرسم خطة للتنصل وكسب الوقت وما أن أتم تحكيم خطته الشاملة حتى أعلن عن استعداده للتفاوض مع جبهة تحرير مورو حول المقررات التى أعدتها منظمة المؤتمر الاسلامى واللجنة الوزارية الرباعية ووافق عليها مؤتمرا وزراء الخارجية الاسلامية فى جدة واسطنبول عامى ١٩٧٥ ـ ١٩٧٦ كأساس للتفاوض بين حكومة الفلبين وجبهة تحرير مورو وأطلق على هذه المقررات اصطلاح «مشروع ورقة العمل» وكرد على اعلان ماركوس عن استعداده للتفاوض أجرت منظمة المؤتمر الاسلامى الاتصالات مع ماركوس ، فوجدت المنظمة جدية ماركوس فى رغبته فى التفاوض مع الجبهة فى شهر ديسمبر ١٩٧٦ ، وافقت الجبهة على المقترحات المطروحة لما للجبهة من ثقة تامة للمنظمة الاسلامية على الرغم من وجود تردد كبير لها فى الجدول الزمنى وذلك لأن الجبهة لا تستطيع استعراض قواتها العسكرية للضغط على حكومة الفلبين لأن البحر هائج طوال شهور ديسمبر ويناير وفبراير مما يصعب على قواتها التنقل بين الجزر الجنوبية .

كللت الوساطة الاسلامية بالنجاح لأن المفاوضات قد عقدت وتوصلت إلى ما يقال باتفاق طرابلس السابق ذكره . وخرج الجميع من المفاوضات منهم رافعوا الرءوس بسبب نجاحهم مثل منظمة المؤتمر الاسلامى ومنهم حاملوا المكاسب مثل الفلبين ومنهم مثقلة كواهلهم بأعباء مسئولية تاريخية مثل جبهة تحرير مورو لأنها قد تنازلت عن أشياء كثيرة من حقوق شعبها المناضل .

ثم حل فبراير حيث موعد انعقاد المفاوضات اللاحقة . أرسل ماركوس وفوداً متخصصة كثيرة إلى منطقة الشرق الأوسط : وفد بترولى لتحديد صفقة البترول بين الفلبين وبين هذه البلاد ، ووفد عمالى لتصدير العمال إلى البلاد العربية ، ووفد مالى لطلب القروض المالية ، ووفد عسكرى الى إسرائيل لطلب الامدادات العسكرية ، ووفد سياسى للتفاوض مع جبهة تحرير مورو لغرض تدمير الاتفاق لا لتنفيذه ، وكللت هذه الوفود كلها بالنجاح ، وأما المفاوضات التى كانت تجرى بين الفلبين وأمريكا فقد انتهت بابقاء القواعد العسكرية الأمريكية بالفلبين ونقلت إلى الفلبين جميع الأسلحة الأمريكية المتبقية فى فيتنام . فأسرع ماركوس إلى تنفيذ جميع مخططاته بالجنوب وكان يصدر قرارات وينفذها ويدعى انه ينفذ اتفاق طرابلس مع انه قد دمرها وضربها عرض الحائط مما جعل الرئيس الليبى العقيد معمر القذافى يعلن امام مؤتمر وزراء الخارجية الاسلامى فى طرابلس عام ١٩٧٧ قائلا : « إن جميع ما نفذه ماركوس فى مانيلا يخالف جميع ما اتفق عليه فى طرابلس » قامت منظمة المؤتمر الاسلامى بمجهود جبار لملاحقة ما أصاب الاتفاق من أضرار فنجحت قبيل انعقاد مؤتمر وزراء الخارجية الاسلامى بطرابلس المذكور أن يعقد جولة أخرى من المفاوضات بين حكومة الفلبين وجبهة تحرير مورو فى مانيلا فى أبريل ١٩٧٧ ولكن المفاوضات فشلت فانسحبت تدريجيا جميع الأطراف الممثلة فى وقف اطلاق النار من اللجنة المشتركة للمراقبة بدون اعلان من أى طرف .

حاولت منظمة المؤتمر الاسلامى اصلاح ما فسد واقترحت استخدام السلاح الاقتصادى لفرض نوع من الضغوط على حكومة ماركوس على شكل تأخير شحن البترول إلى الفلبين ولكن لم يعر هذا الإقتراح أذنا صاغية .

وجاء إثر هذا كله الظلام الهالك ليخيم على الجنوب الاسلامى ولكن الله غالب على أمره اذ سرعان ما انقشع هذا الظلام وتبدد وذلك لأن الفرقة العسكرية الفلبينية التى جندها ماركوس تحت قيادة جنرال (تيود ولفو بلوتستا) وستة كولونيلات وثلاثين من ضباط آخرين برتب مختلفة للتسلل إلى قيادات الجبهة ورجالها لغرض اصطيادهم إلى قصر ماركوس مقابل رشاوى ماليه ورتب عسكرية ومناصب حكومية قد ابادتها إلى آخرها احدى فرق الجبهة المقاتلة تحت قيادة المجاهد (عثمان صالح) فى جزيرة سولو . أصابت هذه الحادثة صدمة عنيفة وارتباكا شديداً فى الجيش الفلبينى وهزت أركان قصر ماركوس وخرقت حاجز الكتمان .

وفى مجال التحرك الدولى للجبهة لم تبق من الدول الاسلامية لم تصل الجبهة - على الأقل - إلى أحد مسئوليها سوى إيران ولكن سرعان ما انقلب الحكم من هذه البلاد وانتصرت الثورة الاسلامية فيها فأرسلت الجبهة وفدا برئاسة السيد نور مسوارى رئيس الجبهة إلى طهران عام ١٩٧٩ ، ركز الوفد مطلبه من هذه الحكومة الجديدة على مقاطعة الفلبين بتروليا فلم يعد آية الله الخمينى لنا بأى شىء ولم يمض فترة وجيزة من الزمن من مغادرة الوفد إيران حتى أعلنت حكومة إيران بأنها « لا تزود الفلبين بقطرة من بترولها لأن حكومة الفلبين تضطهد المسلمين بالجنوب » .

على الرغم من أن البترول الايرانى كان يشكل ٥٪ فقط من الاستهلاك اليومى للفلبين كانت المقاطعة الايرانية قد أصابت الفلبين اضطرابا شديدا وعطلت بعض المصالح فى البلاد ، وكانت سيارات المدن تقف ليلا ونهارا فى طابور طويل لشراء قسط محدود من البترول لكل سيارة فى كل فترة زمنية محددة وبدأت الجماهير تأخذ فى التذمر ضد ماركوس بسبب مماطلته فى حل

مشكلة المسلمين فى الجنوب وظن الفلبينيون أن السيف الاسلامى وهو البترول سوف تأتى مقاطعة واحدة تلو الاخرى لقطع رقابهم ما لم يوضع حل جذرى وحقيقى لمشكلة المسلمين فى الجنوب .

سيطر على ماركوس الخوف والهلع والرعب فوجه أنظاره إلى دول الخليج المنتجة للبترول التى بدأت علاقاتها تسوء مع إيران ولعب لعبته مستغلا النزاع القائم بين العراق وايران ، فبدون أدنى اعتبار لقضية مورو المسلم بجنوب الفلبين وجرائم ماركوس البشعة ضد هذا الشعب الاسلامى المظلوم وموقف ماركوس المناور للتنصل عن الاتفاق الذى تم التوصل إليه فى إطار منظمة المؤتمر الاسلامى بين الفلبين ومورو ، ومطالبة المناضلين المسلمين بفرض الضغوط إن لم تكن عقوبات على حكومة ماركوس وافقت دول الخليج وعلى راسها العراق والكويت على تزويد الفلبين بالبترول بمقدار ضعفين مما قطعته إيران عن الفلبين كتعويض للفلبين عن المقاطعة الايرانية ، وهذا هو الذى دعى رجال جبهة مورو أن يتساءلوا من الذى يكسب ويخسر من هذا الموقف ؟ إن الذى يكسب مكسبا منقطع النظير هو العدو اللعين الفلبين لأنه بإمكانه أن يستخدم القوى الاسلامية لضرب الاسلام ، والمسلمين وأما الخاسر فيكون هو شعب مورو المضطهد .

فيا حبذا .. لو كانت الدول الاسلامية التى تقيم مع حكومة ماركوس علاقات سياسية وتجارية وبترولية وعمالية تدرس هذه العلاقات واضعة فى الاعتبار تلك المآسى الإنسانية التى يواجهها شعب مورو المسلم بجنوب الفلبين لساهمت هذه الدول بالشيء الكثير فى ايجاد الوسائل للنصر لكفاح هذا الشعب ولشعر العدو والصديق بأن للمسلمين فى توادهم وتراحمهم وترابطهم قوة لا تقهر . ولكننا مجاهدون مؤمنون .. نؤمن بأن وعد الله حق حيث يقول سبحانه

وتعلى فى محكم آيته « وعد الله الذين آمنو منكم وعموا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم آمنا » (١)

صدق الله العظيم .

محاولة أخيره فاشلة لتجديد المفاوضات

زار السيد/ حبيب الشطى الأمين العام لمنظمة المؤتمر السلامى مانيلا قبل انعقاد مؤتمر وزاره الخارجية الاسلامى باسلام آباد عام ١٩٨٠ وتباحث مع الرئيس الفلبينى ماركوس حول موضوع تجديد المفاوضات بين الفلبين وجبهة تحرير مورو ، وافق ماركوس على تجديد المفاوضات بدون شروط مسبقة ولكن لما رجع السيد الشطى الى جدة تسلم خطابا من ماركوس يتضمن شروط التفاوض ومن هذه الشروط : تغيير اصطلاح « مفاوضات » إلى «محادثات»، وتغيير مكان « المحادثات » من كوالا لمبور إلى جاكرتا ، وأن تتم هذه «المحادثات » فى سرية تامة ، وأن تسلم جبهة تحرير مورو جميع مقاتليها الذين اتهموا برمى القنابل على المدن ، وأن تعيد جبهة التحرير جميع رجالها الذين انسحبوا من وقف اطلاق النار إلى المدن ، وأن تضم جبهة تحرير مورو ضمن أعضاء وفدها المفاوض (سلامات هاشم) الذى ادعى الإنفصال عن الجبهة ، وأن يرفع الأمين العام لمنظمة المؤتمر الاسلامى له بتقارير تخص مقابلته بالجماعة المنشقين عن الجبهة ، وان لا يكون فى «المحادثات » طرف ثالث وأن لا يندرج فى جدول أعمال المفاوضات أى موضوع متصل بحجم ما نفذه فى الجنوب وارفق الخطاب بكشف أسماء الوفد المفاوض من طرفه . فوجدنا أن الأسماء أسماء لأشخاص مسلمين استسلموا

(١) الآية ٥٥ من سرة النور .

لماركوس ووصفهم ماركوس بأنهم ممثلون الحكومة الحكم الذاتى بالجنوب .

ويلاحظ من هذه الشروط أن كلا من منظمة المؤتمر الاسلامى وجبهة تحرير مورو لا تجد ان أى موضوع يمكن أن يتفاوض عليه الجانبان الفلبينى ومورو وخصوصا أن الجانب الفلبينى المفاوض لا يمثل الفلبين بل يمثل حكومة الحكم الذاتى المزعومه بالجنوب .

وعلى كل حال إن منظمة المؤتمر الاسلامى لم تلتفت إلى هذه الشروط جملة وتفصيلا بل ركزت جهودها على الاصرار على ضرورة تجديد المفاوضات طبقا لوعد ماركوس ، فكان الرد الفلبينى على ذلك هو ذلك الاعلان الشهير لوزارة الخارجية الفلبينية الذى جاء على لسان ما نويل كوليا نتيس وكيل وزارة الخارجية ومتحدثها الرسمى قال فيه « إن اتفاقية طرابلس لم تعد لها أية فاعلية لحل مشكلة المسلمين فى الجنوب » صدر هذا الاعلان المدمر للاتفاق بكامله فى ١٥ مارس ١٩٨٠ .

وفى زيارة ماركوس الرسمية للسعودية فى العام المنصرم ١٩٨٢ أثيرت القضية فى البيان السعودى الفلبينى المشترك على أساس أن يكون الحل للمشكلة فى الجنوب طبقا لاتفاق طرابلس ولكن تصريحات ماركوس تحمل فى طياتها وسائل للتدمير والتخريب لأنه يشير إلى جهاز مزيف شكلة بالجنوب وادعى أنه هو الحكم الذاتى أو جزء منه طبقا لاتفاق طرابلس وتحدث عن ادماج الادارات الجنوبية بعضها البعض والانتخابات الزائفة والمحاكم الخيالية التى وصفها بأنها اسلامية .

ولماذا يتمادى ماركوس فى جرمه واستهتاره للمسلمين ؟ والجواب بسيط، إن ماركوس أدرك تماما أن قضية الشعب المسلم بالجنوب قد سقطت من اعتبار الدول الاسلامية التى تقيم معه العلاقات الدبلوماسية وتعقد معه الاتفاقات الاقتصادية والعمالية والبترولية .

اتفاق جاكرتا

إتفاق سلام فى اغسطس ١٩٩٦ :

وأخيرا تم توقيع إتفاق سلام بين الحكومة الفلبينية وجبهة تحرير مورو الوطنية والذى تم إقراره فى (جاكرتا) عاصمة أندونيسيا فى نهاية أغسطس سنة ١٩٩٦ ووقع عليه الجانبان فى (مانيلا) يوم الأثنين الثانى من أغسطس ١٩٩٦م بعد فترة طويلة ظلت فيها الحكومة الفلبينية تناور وتتلاعب بالمسلمين لمدة عشرين عاماً منذ توقيع إتفاق طرابلس فى ليبيا للحكم الذاتى عام ١٩٧٦م وهو الاتفاق الذى رفضته الحكومات الفلبينيةالمتعاقبة .

وقد نص (إتفاق جاكرتا) الأخير على تشكيل مجلس للسلام والتنمية فى جنوب الفلبين الذى يعد بمنزلة حكومة مؤقته للأشراف على المشروعات الاقتصادية وتقديم المقترحات للحكومة المركزية بشان خطط التنمية اللازمه فى المحافظات الأربع عشرة وهى مناطق الحكم الذاتى فى الجنوب ويرأس هذا المجلس (نور ميسوارى) زعيم الجبهه الوطنية لتحرير مورو ويوجد نائب له وثلاثة مساعدين يمثلون الفئات الثلاث الموجوده بالجنوب المسلمين المسيحين - الوثنيين ويتبع هذا المجلس جهاز أستشارى يتألف من ٨١ عضوا منهم ٤٤ للجبهة الوطنية أى الأغلبيه للمسلمين .

وقد نص الاتفاق كذلك على إنشاء دار للأفتاء مهمتها تقديم الأستشارات الدينية ويتم تعيين أعضائها من قبل (ميسوارى) ، وفيما يتعلق بالقضية الشائكة الخاصة بعدد قوات الجبهة المفترض انضمامهم الى الجيش الفلبينى فقد تم التوصل الى حل وسط يقضى بضم ٧٥٠٠ جندى إلى الجيش والشرطة

معا وبهذا تم حل الخلاف حول العدد إذ كانت الجبهة ترغب فى ضم ١٥ ألف من قواتها الى الجيش بينما كانت الحكومة متمسكه بضم ٥ آلاف فقط .

وأخيرا نص الاتفاق على أن تكون مدة عمل المجلس ثلاث سنوات يتم بعدها إجراء إستفتاء عام فى المحافظات (الـ ١٤) يدور تساؤل الأساس هل تقبل استمرار الحكم الذاتى للمسلمين أم لا ؟

تنازلات متبادلة :

لقد جاء هذا الاتفاق بعد جهود مضنية بدأت فى أبريل ١٩٩٣م فى رعاية أندونيسيا فالجبهة كانت تصر على قيام حكومه مؤقته محليه فى الجنوب لحين إجراء الأنتخابات وترفض أى أستفتاء لتحديد مصير المقاطعات (الـ ١٤) بينما الحكومة تصر على أن الأستفتاء يجب أن يسبق أى حكومة وأخيراً رضخت الحكومة على تشكيل المجلس وهيمنه الجبهه عليه لحين إجراء الأستفتاء ولكن جبهه تحرير مورو الاسلامية برئاسة (سلامات هاشم) ثانى الجماعات المعارضة المسلمه أعلنت رفضها لهذا الاتفاق وكذلك رفضته العديد من الجماعات المسيحية المتطرفه فى الجنوب [1].

---

(١) انظر جريدة الشعب التى تصدر فى القاهرة عدد ٣ من سبتمبر ١٩٩٦م .

الفصل التاسع

حركة اليقظة الإسلامية فى أندونيسيا

منذ بداية القرن العشرين بدأ ظهور حركة اليقظة الإسلامية فى أندونيسيا على أثر حركة التجديد والإصلاح الدينى والإجتماعى التى قام لأجلها السيد جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده .

وبدأت هذه الحركة تشق طريقها إلى كل المجالات السياسية والثقافية والإجتماعية وشملت كل الطبقات الموجودة فى أندونيسيا فكلهم مصممون على ضرورة التجديد والإصلاح الدينى والإجتماعى ثم النهوض والقيام لمجاهدة الأستعمار وطرده من أندونيسيا .

وكان من مظاهر حركة اليقظة الإسلامية فى أندونيسيا هو ظهور المنظمات أو الجمعيات الإسلامية ولقد تغير شكل الجهاد ضد الاستعمار منذ بداية القرن العشرين فلقد أخذ شكل إحياء الثقافة الإسلامية بإنشاء المدارس الإسلامية الحديثة .

إن المسلمين فى أندونيسيا ليسوا طائفة بين سائر الطوائف الموجودة بل هم الشعب نفسه والحروب كلها إسلامية وأن قوة الإسلام وروحه هى القوة الأساسية فى الثورة التحريرية ضد الأستعمار .

بدأت حركة اليقظة الإسلامية فى أندونيسيا تشق طريقها من (سومطره) و (جاوه) ثم انتشرت إلى أنحاء أندونيسيا [1] .

(١) عبد الله شكرى زركشى ، دور المسلمين الأندونيسيين فى استقلال أندونيسيا ، ص ٦٥ ، ٦٦، ٦٧ .

وفيما يلى عرض للمنظمات الإجتماعية والسياسية التى ساهمت فى حركة اليقظة الإسلامية :

الجمعية الخيرية : (١)

تأسست هذه الجمعية سنة ١٩٠٣م ونالت تصريحا من الحكومة الهولندية بمزاولة نشاطها سنة ١٩٠٥م فى (جاكرتا) العاصمة مع عدم السماح بفتح فروع لها خارج جاكرتا .

مؤسسوا هذه الجمعية هم : السيد أدريس بن شهاب ـ والسيد محمد الفخرى والسيد بوساندير وهم من الحضارمة المستوطنين فى أندونيسيا .

وهذه الجمعية تعتبر من أوائل الجمعيات التى أقيمت منذ أن وطئت أقدام الاستعمار فى أندونيسيا .

أهداف هذه الجمعية : (بالنسبة للنشاط الداخلى)

رفع نشاط الدعوة الإسلامية ـ ورفع مستوى التعليم .

بالنسبة للنشاط الخارجى للجمعية :

الاتصالات الخارجية مع الدولة الإسلامية مثل مصر وتركيا والسعودية وغيرها وكانت نتائج هذه الاتصالات ادخال الجرائد العربية إلى أندونيسيا مثل: جريدة **العروة الوثقى** وغيرها .

وأيضاً نشر الشكاوى عن أحوال المسلمين فى أندونيسيا على صفحات الجرائد فى تركيا . ونتيجة أيضاً لهذه الاتصالات تم إيفاد أحد علماء الدين إلى أندونيسيا من أحد هذه الدول وهو: الأستاذ (أحمد شوكانى) وهو كان مدرساً

---

(١) عبد الله شكرى زركش ، در المسلمين الأندونيسيين فى استقلال أندونيسيا ، ص ٧٠ .

وداعياً إلى التجديد والإصلاح الدينى والإجتماعى . ومجىء هذا الأستاذ إلى الجمعية الخيرية أدى إلى جذب العلماء وطلاب العلم من كل مكان .

وبدأت الجمعية بفتح فروعها فى (جاكرتا) وأصبحت الجمعية الخيرية مدرسة اليقظة الإسلامية فى (جاوه) وتخرج فيها زعماء حركة اليقظة الإسلامية من أمثال الحاج : (أحمد عمر سعيد) وغيره.

وخرج الأستاذ (أحمد شوكانى) من هذه الجمعية وأقام جمعية الإصلاح والأرشاد كما أقام الحضارمة العلويون جمعية أخرى على أثر هذا الإنقسام وهى الجمعية العلوية فى جاكرتا . وإن وجود هذا الانقسام لم يؤثر على حركة الإصلاح الدينى والإجتماعى فى جاوه بل زاد نشاطها إلى أوسع من قبل .

جمعية مطلع الأنوار: (١)

تأسست هذه الجمعية سنة ١٩٠٥ بجهود (الحاج محمد ياسين) .

وكان نشاط هذه الجمعية فى مجال التربية والتعليم والدعوة الإسلامية ولقد فتح الحاج ياسين مدارس حديثة لإدخال الفكرة الجديدة عن حركة التجديد والإصلاح الدينى والإجتماعى للإسلام والمسلمين وشاركت هذه الجمعية شركة الإسلام فى سياستها ضد الحكومة الهولندية فى أندونيسيا .

وشاركت كذلك هذه الجمعية فى الكفاح ضد الاستعمار للشعب الأندونيسى بقيام الثورة المسلحة سنة ١٩٢٦م . هذا ولم يكن لهذه الجمعية بعد ذلك نشاط سياسى يذكر الرقابة من الحكومة الهولندية عليها .

مجلس المناظرات . تصوير الأفكار: (٢)

أسس هذا المجلس الحاج (عبد الوهاب حسب الله) والحاج منصور فى

(١) المرجع السابق ، ص ٧٠ - ٧١ . (٢) المرجع السابق ، ص ٧٠ .

سنة ١٩١٥م فى مدينة (سورابايا) ولتوسيع مجال الدعوة الإسلامية أنشأ الجمعية المسماه بنهضة الوطن سنة ١٩١٦م . وكان هدفها توسيع نشاط الدعوة الإسلامية وبحث المسائل الخلافية .

جمعية الدراسات الإسلامية: (١)

أسس هذه الجمعية الدكتور (سوتومو) فى مدينة (سورابايا) ونالت اقبالاً من العلماء . ناقشت هذه الجمعية المسائل الخلافية وتوحيد الآراء المخالفة كما حاولت تضييق الفجوة بين المسلمين ودعت إلى الوحدة الإسلامية .

شركة إسلام: (٢)

المرحلة الأولى:

تأسست سنة ١٩١١م فى مدينة (صولو) الشركة التجارية الإسلامية المسماه (شركة داغانج إسلام) بمجهود المسلمين (بقيادة الحاج سامن هودى).

وكان هدفها رفع مستوى المعيشة للمسلمين عن طريق التنظيم الأقتصادى بين المسلمين فى أندونيسيا .

نتيجة للنشاط الحماسى الذى قام به أعضاء هذه الجمعية أدى ذلك إلى إثارة مخاوف الأستعمار من قيام حركة المقاومة لذلك أوقفت الحكومة الهولندية هذه الجمعية فى ١٢/٨/١٩١٢ م ولما لم تجد ما يبرر مخاوفها ألغت الأمر بوقف نشاط هذه الجمعية فى نفس السنة .

ظهرت بعد ذلك فكرة جديدة وهى أن الجمعية لا ينبغى أن تكتفى بنشاطها الأقتصادى فحسب بل لابد أن تمارس نشاطاً اجتماعياً وسياسياً .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٧٢ .

(٢) المرجع السابق ص ٧٣ إلى ص ٩٦ .

وبدأ نشاطها السياسى والإجتماعى بعقد مؤتمرها الأول فى مدينة (سورابايا) ونال هذا المؤتمر اقبالاً وترحيباً من المسلمين من حيث قراراته وهى تقسيم ادارات الشركة إلى إدارة مركزية وإدارة فرعية وكذلك قرر انتخاب السيد عمر سعيد شوكرو أمين ورئيس لشركة إسلام . وكذلك فإن انتشار شعبية شركة إسلام بين المسلمين فى أنحاء أندونيسيا أدى إلى فتح فروع لها فى كل المناطق فى جزر اندونيسيا خصوصاً فى جاوه وبلغ عدد أعضائها فى سنة ١٩١٥م ثلاثة ملايين عضو وفى سنة ١٩١٦م خطت شركة إسلام خطوة رائعة نحو إيقاظ القومية الأندونيسية بإقامة مؤتمر قومى أندونيسى فى (باندونج) فى جاوه حضر فيه ممثلو الفروع لشركة إسلام المنتشرة فى أنحاء أندونيسيا وكان عددهم ثمانون فرعاً .

وخلاصة القول أن شركة اسلام قد حققت خطوة رائعة فى إحياء القومية الأندونيسية وحققت شعبية واسعة وحققت نتائج فى حركة التجديد والإصلاح الدينى والإجتماعى فى برامجها للدعوة الإسلامية .

المرحلة الثانية :

مع بداية سنة ١٩٢٠ تزعزع (نفوذ الشركة) إلى أن اضطرت أن تسلك سياسة جديدة لتقوية نفوذها وكانت اندونيسيا فيما بين ١٩٢٠ م إلى ١٩٣٠ م حدث فيها تطور هام فى نشاطها السياسى .

ومن أهمّ أدوار هذه الشركة هى تصفية الشيوعيين من الشركة وبدأت تخطو خطوة أخرى لتوحيد صفوف المسلمين . وجدير بالذكر أن الشيوعية قد قامت بثورات عنيفة ضد الحكومة الهولندية فكانت بذلك سبباً فى إلغاء الحزب الشيوعى الأندونيسى نهائياً عن الوجود السياسى فى العهد الهولندى وقد قامت الشركة بحملة واسعة لإحياء الوحدة الوطنية تحت شعار القومية الأندونيسية

ولقد أثمرت هذه الدعوة الوطنية إلى نتيجة مذهلة وهى أنه عقدت منظمات الشباب المنتشرة فى أنحاء أندونيسيا بما فيها شباب الجمعية المحمدية وشركة إسلام .

ومن هنا وصلت القومية الأندونيسية إلى قمة يقظتها حيث وصلت إلى هدفها الرئيسى وهو استقلال اندونيسيا .

ومن الملاحظ أن (حزب شركة إسلام) ليس من الأحزاب المتطرفة فى سياستها تجاه الحكومة الهولندية لذلك سلم زعماؤه من الأعتقالات التىْ دبرتها الحكومة الاستعمارية الهولندية واكتفت تلك الحكومة الهولندية بفرض الرقابة على هذه الحركة وزعمائها .

جمعية اتحاد الأمة الإسلامية: (١)

اسسها الحاج (حليم) فى مدينة (مادجالنجا) سنة ١٩١٧م وقد انحصر نشاط هذه الجمعية فى مجال التعليم والتربية والدعوة الإسلامية فى تلك المنطقة .

الجمعية المحمدية: (٢)

تأسست هذه الجمعية بمجهود الحاج (أحمد دحلان) وذلك سنة ١٩١٢ فى (جاوه الوسطى) وكانت هذه الجمعية تهتم بالتربية والتعليم - إحياء المجتمع وتنمية روح المسلمين على أساس التعاون - تنمية مكارم الأخلاق - اعداد أماكن العبادة والأوقاف - القيام بتربية النساء وتهذيبهن على اسس الوعى

---

(١) المرجع السابق ص ٩٧ .

(٢) عبد الله زركش ، دور المسلمين الأندونيسيين فى استقلال أندونيسيا ص ٦٧ إلى ص ٧٠ .

الدينى - تربية البنين والشباب - تنفيذ أحكام الله فى المجتمع .

وكانت مهمة (الجمعية المحمدية) مهمة صعبة وذلك لأن هذا المجتمع يصعب عليه قبول دعوة التجديد والإصلاح الدينى والإجتكماعى وذلك لتمسك السكان بتقاليد الديانة الهندوكية والبوذية اللتان جاءتا إلى هذه الجزيرة قبل الإسلام . كانت المحمدية فى نظر الحكومة الهولندية ليست من المتطرفين فى حركتها لأنها لم تدع جهراً لمناهضة الاستعمار الهولندى إنما دعت المسلمين إلى بعث الوعى الثورى الإسلامى ضد الاستعمار عن طريق الثقافة والتربية والتعليم . أدى نشاط هذه الجمعية إلى اليقظة الإسلامية فى أندونيسيا .

جمعية التربية الإسلامية: (١)

تكونت هذه الجمعية بسبب تطور المدارس الإسلامية القديمة إلى مدارس إسلامية حديثة على يد عدد كبير من العلماء على رأسهم الشيخ (عباس بادانج) . وهكذا كان هدف هذه الجمعية هو التربية والتعليم ونشر الدعوة الإسلامية ومساعدة الفقراء والأيتام .

جمعية سومطره طوالب: (٢)

انقسم العلماء فى (سومطرة الغربية) إلى قسمين : العلماء القدماء على رأسهم الشيخ : (عباس بادانج) والعلماء الشباب الذين ساهموا فى إدخال حركة التجديد والإصلاح الدينى والإجتماعى لمحمد عبده وجمال الدين الأفغانى .

وكان اسم هذه الجمعية فى بدايتها هى سومطره طويلب (تصغير طالب)

---

(١) المرجع السابق ص ١٠٨ وص ١٠٩ .

(٢) المرجع السابق ص ٧٠ .

ثم سميت سومطره طوالب لتشمل جميع الطلبة .

وفى سنة ١٩٣٠م غير اسم (سومطره طوالب) لإسم (اتحاد المسلمين الإندونيسيين) برئاسة الحاج إلياس يعقوب .

جمعية نهضة العلماء: (١)

تأسست هذه الجمعية فى ظروف مليئة بالصراعات الفكرية حيث تنافست فى أندونيسيا تيارات **الشيوعية والوطنية والإسلامية.**

فكرة إنشاء هذه الجمعية ظهرت من العالم الحاج : (عبد الوهاب حسب الله) رئيس مجلس المناظرات المسمى بتصوير الأفكار وكانت فى ذلك الوقت مسألة الخلافة الإسلامية فى تركيا تشغل بال المسلمين فى أندونيسيا والعالم حيث طرد (مصطفى كمال باشا) الخليفة وحيد الدين الملقب بالسلطان (محمد السادس) وتولى عرش الخلافة بعده (عبد المجيد) ثم تبين بعد ذلك أن السلطان عبد المجيد قد أجرى اتصالات سرية خارجية مع انصاره مما أثر على مصطفى كمال فطرده من تركيا وهكذا قامت جمهورية تركيا .

وهذه الجمعية مثل المحمدية فى نشاطها الإجتماعى غير أنها تختلف عنها فى أمرين :

١ ـ أن جمعية نهضة العلماء تمنع أعضاءها كأفراد من دخولهم فى حزب سياسى أو ممارسة أى نشاط سياسى .

٢ ـ أن نشاط هذه الجمعية التعليمى ينصب فى إحياء المعاهد الإسلامية القديمة وقد أقامت الجمعية مؤتمراً سنة ١٩٣٠ م وتم فيه بحث المسائل الخلافية الشائعة فى ذلك الوقت والمسائل التى تتعلق بالإسلام والمسلمين

---

(١) المرجع السابق ص ١١٣ - ١١٧ .

الأندونيسيين .

ولكنها تحولت عام ١٩٤٩م إلى حزب سياسى من أكبر الأحزاب فى أندونيسيا .

تأسيس الحزب الوطنى الأندونيسى وظهور أحمد سوكارنو

ظهرت شخصية بارزة فى المجال السياسى وهو (سوكارنو) الذى أنشأ (الحزب الوطنى الأندونيسى) حيث حسم الخلاف بدعوة إلى الوحدة الوطنية والتزامها لتقوية الشعب الأندونيسى أمام الاستعمار قبل المضى قدماً لاستقلال أندونيسيا استقلالا تاماً .

وكان شعار (سوكارنو) الوحدة الوطنية القومية الأندونيسية وقد اشتهر (سوكارنو) بشخصية قوية وكان خطيباً نقيباً ولذلك نال إعجاباً وترحيباً من الشعب ولاسيما فى حملته الواسعة فى إحياء القومية الأندونيسية والوحدة الوطنية الأندونيسية .

وعلى أثر هذه الموجه القومية الأندونيسية قام حزب (شركة إسلام) بنفس الحملة التى قام بها (سوكارنو) ولكن قوميتها التى كانت تدعو إليها كانت الإسلامية الأندونيسية .

ولقد كونت (شركة إسلام) و (الحزب الوطنى الأندونيسى) بقيادة (سوكارنو) وحدة لتوحيد جميع الأحزاب الوطنية الأندونيسية . وهذا الاتحاد هو الذى ساعد على استقلال أندونيسيا [1] .

المرجع السابق ص ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٥ .

أندونيسيا من بداية سنة ١٩٣٠م إلى الأحتلال اليابانى ١٩٤٢م:

سياسة الأستعمار الهولندى: (١)

هذه السياسة جاءت لعدة عوامل :

١ ـ الحرب العالمية الأولى .

٢ ـ الثورة الشيوعية من سنة ١٩٢٦ م و ١٩٢٧ م.

٣ ـ اتجاه الحركات والمنظمات فى أندونيسيا إلى الاتجاه العام من الأحزاب والهيئات السياسية والدينية نحو الغاية القومية المتحدة وهو استقلال أندونيسيا .

ولقد زاد نشاط المنظمات الإسلامية والجمعيات منذ سنة ١٩٣٠م مثل (الجمعية الوطنية) و (جمعية الخيرات) وغيرها من الجمعيات التى سبق ذكرها ولقد زاد عدد فروع (الجمعية المحمدية) إلى ٤٦٣ فرعاً .

المدارس الإسلامية:

إن اليقظة الإسلامية لها أثر كبير فى التربية والتعليم وكانت إقامة المدارس الإسلامية أصبحت موجه تشق طريقها فى أنحاء أندونيسيا لرفع مستوى التربية والتعليم للمسلمين الأندونيسيين بعد أن حرموا منها قبل اليقظة الإسلامية فى أندونيسيا . وكانت هذه المدارس من أحد العوامل الرئيسية فى حركة اليقظة الإسلامية فى أندونيسيا وأن حركة التجديد والإصلاح الدينى والإجتماعى سوف لا تتحق إلا عن طريق التربية والتعليم بإقامة المدارس الإسلامية .

---

(١) عبد الله زركش ، دور المسلمين الأندونيسيين فى استقلال أندونيسيا ص٦٧ - ٧٠ .

ومع بداية سنة ١٩٣٠م بدأ تطوير المدارس الإسلامية إلى مدارس إسلامية حديثة بشكل واسع ومنتشر فى أنحاء أندونيسيا وخاصة بعد رجوع الطلبة الأندوليسيين من (مصر) و (مكة) وتخرجهم فى جامعاتها مثل (الأزهر).

وانتشرت هذه المدارس الإسلامية فى جميع أنحاء البلاد .

ولقد أعطت الحكومة الهولندية مساعدة لـ (١١٥) مدرسة إسلامية وأعطت أيضاً المساعدة لنحو ٢٤٧ مدرسة مسيحية . ويتضح من ذلك عطف خاص ومؤيد من الحكومة الهولندية للديانة النصرانية .

ويلاحظ أن الجمعيات الخيرية الإسلامية أدلت بدلوها فى مجال الاقتصاد فأسست شركات اقتصادية إسلامية فى مجال الزراعة والتصنيع والملاحة فدعمت الأقتصاد الإسلامى الأندونيسى فى مواجهة الأقتصاد الهولندى وهذا هو الذى أسرع بعملية الأستقلال الأندونيسى .

ومن الجدير بالملاحظة أن الشركات الإسلامية التى أنشئت فى أندونيسيا فى الثلاثينات وكانت جزءاً من نشاط الجمعيات الإسلامية هى التى ساعدت على اليقظة الإسلامية فى أندونيسيا .

ومن الملاحظ أيضا أن نشاط هذه الشركات أتى فى العالم العربى بعد نصف قرن من أندونيسيا أى فى بداية الثمانينات ، ومن المؤسف أنها لم يكتب لها النجاح فى مصر والعالم العربى واستعدت عليها أوربا الحكومات العربية فأغلقتها واستولت عليها لصالح النظام الربوى الأوربى المنتشر فى العالم العربى ، وبذلك تأخرت اليقظة الإسلامية فى العالم العربى عنها فى أندونيسيا.

المجلس الإسلامي الأعلى : (١)

فى ١٨/٩/١٩٣٧ م عقد إجتماع لزعماء المنظمات الإسلامية وزعماء كل من الجمعية المحمدية وجمعية نهضة العلماء . والجمعية الخيرية وجمعية اتحاد الأمة الإسلامية وحزب شركة إسلام ، وجمعية الإصلاح والإرشاد وبعض زعماء الجمعيات الإسلامية الصغيرة فى مدينة (سورابايا) . ولقد وصل الإجتماع إلى بعض القرارات ومنها :

١ ـ إنشاء هيئة إسلامية لتوحيد الحركات الإسلامية .

٢ ـ تشكيل إدارة للمجلس .

٣ ـ عمل برنامج للعمل بهذا المجلس .

وفى سنة ١٩٣٨ م عقد مؤتمر فى مدينة (سورابايا) حضر هذا المؤتمر عدد كبير من الزعماء الإسلاميين لعدد من الجمعيات والمنظمات الإسلامية الأندونيسية وبحث فى هذا المؤتمر القضايا الإسلامية ومشاكل المسلمين فى هذا الوقت .

وكان المؤتمر صورة واقعية للوحدة الإسلامية فى أندونيسيا وفى ٢ مايو سنة ١٩٣٩ م.عقد المؤتمر الإسلامى الأندونيسى الثانى لهذا المجلس فى مدينة (سولو) .

الاتحاد السياسى الأندونيسى : (٢)

وفى ٢٠ سبتمبر ١٩٣٩ م عقد مؤتمر لجميع الحركات السياسية الأندونيسية وقرر المؤتمر إنشاء هيئة لتوحيد الأحزاب السياسية والحركات

---

(١) عبد الله زركش ، دور المسلمين الأندونيسيين فى استقلال أندونيسيا ص ٦٧ – ٧٠

(٢) نفس المرجع ص ١٧١ .

السياسية فى أندونيسيا وتسمى هذه الهيئة بالاتحاد السياسى الأندونيسى وقد استطاع المؤتمر فى خطوته الأولى أن يصدر قرارا لأجل أندونيسيا الحرة وهو:

من الضرورى وجود برلمان .

والاعتراف بعلم أندونيسى وهو الأحمر فوق الأبيض .

الإحتلال اليابانى لأندونيسيا: (١)

مع بداية الحرب العالمية الثانية دخلت أندونيسيا تحت غمار الحرب بين الحلفاء واليابان . ولم يكن الهولنديون والحلفاء فى أندونيسيا على استعداد كامل لصد هجمات اليابان العسكرية .

ويمكن أن نعرف مدى قوة الدفاع لجيش الحلفاء فى أندونيسيا بالنسبة لضخامة قوة اليابان حيث بلغ عدد جنود الحلفاء فى أندونيسيا إلى ٤٠,٠٠٠ أربعين ألف مقسماً إلى أربع مجموعات وبلغ عدد الجيش اليابانى إلى ما يقرب مائتى ألف مكون من ثمانى مجموعات بدأ الهجوم اليابانى على مدينة (تاراكان) ومنه إلى باقى المدن بأندونيسيا فى ٣/١/١٩٤٢ م .

ومنذ ذلك الوقت دخلت أندونيسيا تحت الاحتلال اليابانى وانتهى العهد الهولندى فى أندونيسيا بعد مرور نحو ثلاثة قرون ونصف قرن من الاحتلال .

ودخلت أندونيسيا مرحلة جديدة وهى مرحلة الاحتلال اليابانى .

هذا وقد كان للأندونيسيين دور كبير فى تسهيل انتصار اليابان على الحلفاء لاعتقادهم أن اليابان هى المنقذ للشعب الأندونيسى من الاستعمار الغربى .

---

(١) عبد الله زركش ، دور المسلمين الأندونيسيين فى استقلال أندونيسيا ص ٦٧ - ٧٠

وفى ٤ أكتوبر سنة ١٩٤٤ م جاء النبأ الذى أذاعه الراديو اليابانى أن الحكومة اليابانية ستمنح الأستقلال لأندونيسيا بعد انتهاء الحرب .

ولقد فوجىء الأندونيسيون بإستسلام اليابانيين ولكنهم امتنعوا عن تسليم سلطة البلاد إلى الوطنيين الأندونيسيين واحتاطت السلطة وأصدرت لذلك الحكومة اليابانية قراراً للقضاء على أية حركة ثورية لأغتصاب السلطة هذا ولقد مكث احتلال اليابان للبلاد حوالى ثلاث سنوات ونصف سنة .

إعلان استقلال إندونيسيا : (١)

خطب (سوكارنو) فى هذه المناسبة وقال فى خطبته (لا أقول أن استقلال أندونيسيا سيجىء قبل أن تثمر الذرة وإنما أقول أن استقلال أندونيسيا سيجىء قبل ظهور جذور الذرة) .

وبعد استسلام اليابان فى أواخر الحرب العالمية الثانية أعلن الوطنيون الأندونيسيون بزعامة (سوكارنو) استقلال البلاد سنة ١٩٤٥ م .

علاقات مصر بأندونسيا :

كانت مصر أول دولة تعترف بأستقلال أندونيسيا عن اليابان عام ١٩٤٧ م وعقدت مصر على الفور أتفاقية صداقة مع اندونيسيا ، لم تبدأ علاقة مصر بأندونيسيا فقط عام ١٩٤٧ م بل سبقت ذلك بأعوام حيث ساندت مصر حركة التحرر فى أندونيسيا ووقفت جامعة الدول العربية داعمة لتلك الحركة فى ظل أمينها الأول عبد الرحمن باشا عزام وتم إرسال القنصل المصرى فى بومباى الى جاكرتا لمقابلة أحمد سوكارنو رغم الحصار الهولندى وسلمة ورقة أعترف

(١) عبد الله زركش ، دور المسلمين الأندونيسيين فى استقلال أندونيسيا ص ٦٧ - ٧٠

من الحكومة المصرية وكذلك من جامعة الدول العربية باستقلال أندونيسيا وطلب منه إرسال وفد الى مصر ، وجاء الوفد فعلاً برئاسة وزير الخارجية الأندونيسى آنذاك (أجوت سالم) ووقع أول معاهدة صداقة مع مصر يوم ١٠ من يونيو عام ١٩٤٧ م.

وواصل عبد الرحمن عزام باشا دعمه للأستقلال الأندونيسى حيث سافر الى نيويورك خصيصاً لدعم قضية أندونيسيا فى الأمم المتحدة وطلب من الهند أن تدعم موقف أندونيسيا .

وعقب حصول أندونيسيا على الأستقلال والدور الذى لعبته مصر فى ذلك تدعمت العلاقات بين الدولتين وبلغت ذروتها بعقد مؤتمر (باندونج) الذى أسس منظمة عدم الأنحياز ١٩٥٥ م وكان أقطاب ذلك المؤتمر هم : جمال عبد الناصر وأحمد سوكارنو وجواهر لال نهرو والرئيس اليوغسلافى تيتو وتدعمت العلاقات بشكل خاص بين جمال عبد الناصر وأحمد سوكارنو وتقابلا عدت مرات وتبادلا الزيارات وحصل سوكارنو على الدكتوراة الفخرية من جامعة الأزهر وزاد عدد الطلاب الأندونيسيين فى جامعات مصر خاصة جامعة الأزهر .

ولكن عقب الأطاحة بالرئيس سوكارنو ووصول سوهارتو الى الحكم عام ١٩٦٥ م شهدت العلاقات المصرية الأندونيسية فتوراً ملحوظاً لأن عبد الناصر لم يكن مستريحاً للأطاحة بصديقه سوكارنو واستمر الفتور فى العلاقات بين الدولتين حتى عام ١٩٧٦ م وبدأت تتحسن تدريجياً بزيارة سوهارتو الى مصر عام١٩٧٧م وزيارة شيخ الأزهر الى أندونيسيا فى نفس العام ، وقد ساهم فى

تحسن العلاقات تشابه النظامين السياسى والأقتصادى فى كل من مصر وأندونيسيا فقد بدأت مصر منذ ذلك الوقت نهج سياسة التحرر الأقتصادى وكانت أندونيسيا سبقتها الى ذلك كما أن مصر أنقلبت على السوفيت وتشابهت فى ذلك مع أندونيسيا وبدأت تزداد الصادرات الأندونيسية الى مصر فى ظل التقدم الأندونيسى وتم إنشاء لجنة مشتركة مصرية أندونيسية للتعاون الأقتصادى والفنى فى ١٤ من يوليو ١٩٨٥ م والبدء فى التفاوض لتوقيع عدد من الأتفاقيات لضمان وحماية وتشجيع الأستثمار وتجنب الأزدواج الضريبى والعمل على أجتذاب الأستثمارات الأندونيسية الى مصر وقد تواصلت أجتماعات هذه اللجنة فيما بعد أعوام ١٩٨٨ و ١٩٩٠ و ١٩٩٤ (١) .

أندونيسيا بعد الأستقلال

كانت أندونيسيا قد وقعت إبان الحرب العالمية الثانية (٣/١/١٩٤٢ م) تحت الاحتلال اليابانى ونالت أستقلالها فى سنة ١٩٤٥م بزعامة (أحمد سوكارنو) ، وظل سوكارنو يحكم أندونيسيا من سنة ١٩٤٥م الى سنة ١٩٦٥ وكان سوكارنو فى هذه الفترة التى أمتدت عشرين عاماً يتعاون مع القوميين واليساريين وفى مقدمتهم الشيوعيين وقد أنقلب عليه الشيوعيون أكثر من مرة وكان التيار الأسلامى فى أندونيسيا هو ضحية ذلك التحالف بين القوميين والشيوعيين .

وبعد فشل الانقلاب الشيوعى على الرئيس سوكارنو فى عام ١٩٦٥م شنت الحكومة آنذاك حملة واسعة النطاق لملاحقتهم والقضاء عليهم ، ولما تم أستبعاد الشيوعيين والاسلاميين وجد المبشرون فى ذلك الفراغ فرصتهم

(١) من تقرير كتبه الصحفى قطب العربى فى جريدة الشعب المصرية ، عدد ٢٥ من يوليو ١٩٩٧ م بمناسبة احتفال مصر وأندونيسيا بذكرى مرور ٥٠ عاما على بدء علاقات الصداقة بين الدولتين .

الذهبية للأنطلاق فى أندونيسيا . لدرجة أن المنظمات التبشيرية أصبحت تسيطر على جزر أندونيسية بأكملها ولا سيطرة للحكومة المركزية عليها ولا علاقة لها بها إلا من الناحيتين السياسية والجغرافية وأصبحت هذه المنظمات تملك عدة طائرات صغيرة للتنقل بين هذه الجزر بينما لم يكن لدى الحكومة أية وسيلة للوصول إليها .

غير أن ذلك النشاط التنصيرى واجهه المسلمون فى أندونيسيا بغضب شديد خصوصاً فى جاوة وسومطره وتطور الأمر إلى صدامات عنيفة بين الطرفين فى عدة مدن وأتهم المسلمون خلالها بإرهاب المنصرين .

مؤتمر عام ١٩٦٧م .

على أثر هذه الصدامات بين المسلمين والمنصرين فى أندونيسيا دعت الحكومة الى مؤتمر للمصالحة عقد فى جاكرتا عام ١٩٦٧م أجتمع فيه ممثلوا الأديان وأفتتحه الرئيس سوهارتو الذى كان قد تسلم السلطة منذ عام ١٩٦٥م وفى خطابه الذى ألقاه آنذاك لم يشر بكلمة واحدة الى الإسلام وإنما أعرب عن الأسى للصدام الحاصل بين المسلمين والكاثوليك والبروتستانت وقال :« إن صرح الحياة الدينية فى أندونيسيا يقوم على شىء واحد هو مبادىء (البانشاسيلا) وهى الإيمان بالله الواحد والعدالة والأخوة الأنسانية ووحدة أندونيسيا والديمقراطية وهى المبادىء التى جرى صكها لتجاوز الأنتماء الأسلامى ، مع أن أندونيسيا بها ٩٠٪ من سكانها مسلمون ، ودعا سوهارتو جميع الشعب أن ينبذ خلافاته وأن يتعاون فى ظل المبادىء الخمسة التى تفتح طريق الأزدهار لأندونيسيا وكان من أهم الكلمات التى ألقيت فى المؤتمر ما قاله الدكتور (تامبونان) وزير الشئون الأجتماعية الذى كان أحد أقطاب المسيحيين البروتستانت فى أندونيسيا الذى أعلن صراحة أن البروتستانت

يقومون بمهمة التحديث فى أندونيسيا وأن ذلك هدفهم الأساسى وأن أبناء طائفته يرتبطون بالدولة الأندونيسية حقا لكن أرتباطهم أكثر بالأوامر الإلهية المذكورة فى الأنجيل التى تأمر المسيحيين بالتبشير وهداية الناس فى جميع أنحاء المعمورة .

ولقد سادت أجواء شديدة التوتر فى أندونيسيا بعد هذه التصريحات من وزير مسئول فى الدولة يتحدث بتلك الجرأة ويتحدى مشاعر الأغلبية المسلمة.

وتحدث المسلمون أيضاً بقدر كبير من الصراحة وكان الدكتور محمد رشيدى الذى كان أول وزير للشئون الدينية فى البلاد وعمل سفيراً فى عدد من الأقطار العربية والأسلامية كان أهم من تحدث من المسلمين فقد حذر من الغارة التبشيرية على العالم الاسلامى ، وروى كيف أنه شخصياً تعرض لمحاولة إخراجه من الاسلام وإغرائه بالدخول فى الكاثولوكية وقال : « إن ما حدث معه يتكرر يومياً مع ما لا حصر له من البشر » وقال : «إن المبشرين حاولوا أختراق المجتمع الأندونيسى فى ظل الأستعمار الهولندى ولكن الحكومة الأستعمارية تحفظت وتعاملت معهم بحذر شديد تحسباً لردود الأفعال من جانب المسلمين وبعد الأستقلال وجدوا الحكومة الوطنية أقل حذراً فأندفعوا يحاولون تحقيق غاياتهم فى شتى أنحاء البلاد .

وأنتقد الدكتور رشيدى زعم المنصرين بأنهم يسعون إلى التحديث ويعولون كثيراً على التسامح السائد حيث يستظلون به لممارسة أنشطتهم وأعتبر ان أطلاق مثل هذه الشعارات هو من قبيل الأحتيال والكذب والضحك على عقول الجميع .

ونتيجة لهذه الصراحة التى أعلنها المسلمون فى المؤتمر فقد فشل المؤتمر فى الوصول الى أيةنتيجة ومن ثم أعلن الرئيس سوهارتو فضه بسبب الخلاف حول أقتراح من شقين :

أولهما: منع ممارسة التبشير بين أتباع أى من الديانات المعترف بها فى البلاد .

وثانيهما: دعوة من يريد التبشير الى التوجه الى المجتمعات الوثنية التى تعج بها المناطق الداخلية فى كاليمنتان وايريان .

ولما فشل المؤتمر فى إيقاف المنصرين عند حدهم شاع أنطباع قوى بأن أندونيسيا صارت نهباً للمبشرين وصدرت عدة كتب فى العالم العربى تحذر من أن الإسلام بسبيله الى الأندثار فى أندونيسيا وأن الناس يدخلون أفواجاً فى الكاثوليكية والبروتستانتيه [1] .

هكذا فإن الواقع الأندونيسى بدا كئيباً فى السبعينيات كما أن صداه فى بعض الدوائر فى العالم الأسلامى كان يائساً إلى حد كبير وكان التبشير إحدى ثماره وربما ضمن فاتورة المساندة الغربية القوية للجنرال سوهارتو ورفاقه من العسكر الذين تولوا السلطة فى عام ١٩٦٥م كما يقول الأستاذ فهمى هويدى وكان التحالف بين العسكر والمتغربين الذبن تولوا تدعيم أركان النظام الجديد الذى كان شديد الحاجة الى المسانده فى سنوات حكمه الأولى بوجه أخص بسبب أفتقاره الى الشعبية والشرعية وكانت حصة المتغير بين فى السلطة بعد عام ١٩٦٥م عالية بدرجة لافتة للنظر وصفة المتغربين تطلق فى أندونيسيا على

(١) من بين هذه الكتب :

* أبو هلال الأندونيسى بعنوان (غارة تبشيرية على أندونيسيا) .

* عز الدين بليق وكتابه بعنوان (أنقذوا أندونيسيا يا مسلمين) وكاتب هذا الكتاب زار أندونيسيا وعاد يقول إنهم يزرعون الكنائس هناك كما تزرع الأشجار وهو كاتب لبنانى دعاه المجلس الأعلى الأندونيسى للدعوة الاسلامية وذكر فى كتابه سنة ١٩٧٢م يقول إن مجلس الكنائس البروتستانتية فى أندونيسيا ذكر فى أحصائية له ٩٣١٩ كنيسة و ٢٣٩٧ قسيساً و٦٥٠٤ مبشرين متفرغين وقيل إن الفاتيكان وضع خطة لتنصير أندونيسيا فى سنة ٢٠٠٠ .

الذين تنصروا ومن ثم أرتبطت مصالحهم ومصائرهم بالكنائس والمنظمات الغربية فكان لهم عشرة وزراء كاثوليك على الأقل من ١٩ وزيراً فى الحكومة فى السبعينيات والثمانينيات بينما نسبتهم فى تعداد السكان لا تتجاوز ٧٪ أما المسلمون الذين يمثلهم ٩٠٪ من السكان فكان يمثلهم ٩ وزراء فقط هذا بالإضافة إلى الوظائف الأساسية التى ظلت حكراً عليهم مثل رئاسة أركان حرب القوات المسلحة ورئاسة جهاز الأمن ورئاسة البنك المركزى ... الخ فمثلا رئيس أركان الجيش الأندونيسى لمدة ١٨ سنة أسمه (بنى مورداني) كان كاثوليكياً من أب مسلم وأم ألمانية ، ولنا أن نتصور تأثير ذلك على إعادة تشكيل الجيش وترفيع قيادته فى ظل تحيزاته التى أثارت نقمة المسلمين داخل الجيش وخارجه [١] .

لقد كان المسلمون ضحية للوضع الجديد أيضاً من ناحية لأن النخبة الحاكمة ظل من مصلحتها طمس الهوية الإسلامية لإلحاق أندونيسيا بالنموذج الغربى ، ومن ناحية أخرى لأن بعض عناصر النخبة أقنعت الجنرال سوهارتو بأن المسلمين خطر على نظامة وحكمه ، بقدر ما أن الشيوعين ظلوا خطراً على نظام الرئيس سوكارنو بالرغم من تحالفهم معه . من ناحية ثالثة لأن هذه الأجواء كان من شأنها فتح أبواب أندونيسيا على مصارعها لبعثات التبشير ومنظماته ، التى ركزت جهدها فى محاولة تنصير عوام المسلمين وبسطائهم .

الحياة النيابية فى أندونيسيا :

كان فى أندونيسيا فى هذه الفترة (١٩٦٥م ـ ١٩٩٧م) ثلاثة أحزاب رئيسية :

أحدهما : حزب العمال الذى يسمى بالأندونيسية جولكار وهو الحزب

(١) المرجع السابق .

الحاكم .

الثانى: الحزب الديمقراطى الأندونيسى.

الثالث: حزب التنمية.

وكانت هذه الاحزاب الثلاثة مجرد ديكور تمثل واجهات للتعدديه السياسية فقط بينما كان القرار الحقيقى فى يد الجيش ، فقط كرس العسكر مواقعهم وأعادوا تشكيل الحياه السياسة بحيث يستمر أحتكارهم للسلطة وجرى تقنين هذا الوضع فى عام ١٩٨٢م حين صدر قانون وسع من دور الجيش فى الحياه السياسية وخصص هذا القانون ٧٥ مقعداً فى المجلس النيابى الذى كان عدد أعضائه ١٠٠٠ عضو ٦٠٪ منهم معينون من قبل رئيس الجمهورية أى ٦٠٠ عضو معين منهم حصة الجيش داخله فى هذه النسبة أما البقية وهى ٤٠٠ عضو فأغلبهم من ممثلى الحزب الحاكم وهو حزب العمال .وبذلك نرى أن الجيش سيطر تماماً مع المتغربين على الحياة السياسية .

الحياة الأقتصادية:

سيطر الصينيون على الحياة الأقتصادية فى أندونيسيا حتى قيل [(١)] أن الصينين يسيطرون على ٧٥٪ من أقتصاد أندونيسيا وأن مجموع رءوس الأموال التى لديهم تقدر بسبعين مليار دولار ومن الاحصائيات اللافتة للنظر فى هذا الصدد أن عدد المليارديرات فى أندونيسيا ٢٢٠ شخصاً منهم ٢٠٢ من الصينين أى بنسبة ٩٢٪ واغلب هؤلاء الصينين من الكاثوليك وقد فسر كثيرون أعتناقهم للكاثوليكية بأعتباره سبيلا للتقارب والتفاهم مع النخبة المسيطرة فى البلاد .

---

(١) يذكر فهمى هويدى ذلك فى مقاله السالف الذكر .

وزيراً وعين رئيس أركان للجيش مسلماً بدلاً من رئيس الأركان المسيحى .

وبدأ يعتمد على شخصية أسلامية لها وزنها وهو الدكتور بحر الدين حبيبى وزير البحث العلمى الأندونيسى الآن وهو من الشخصيات التى تحاول الأسهام فى نهضة العالم الاسلامى بالاعتماد على علمائه ومثقفية المنتشرين فى أنحاء الكرة الارضية والذى أسس أتحاد المثقفين المسلمين الأندونسيين .

وكانت الندوة التى دُعى اليها الأستاذ فهمى هو يدى من أعداد وترتيب الدكتور بحر الدين حبيب وهو الرجل الذى يقف وراء النهضةالصناعية والعلمية التى حققتها أندونيسيا فى الأونة الأخيرة وهو وإن كان يشغل منصب وزير البحث العلمى الى أنه أحد أهم النجوم الصاعدة فى الحياة السياسية الأندونيسية وهو بمثابة الرجل الثانى فى حكم البلاد ويعده الرئيس سوهارتو لخلافته فى المستقبل والدكتور حبيب أكتسب ثقة الرئيس سوهارتو حتى صار نائباً فى رئاسة حزب العمال الحاكم وهو يشغل منصبه هذا منذ حصل على الدكتوراه فى الهندسة من المانيا منذ ٢٣ سنه [١] وأشرف على مشروع النهضة الصناعية فى البلاد من خلال صلته بالرئيس سوهارتو وهى النهضة التى أدت الى عبور أندونيسيا حاجز التخلف وأنضمامها الى النمور الأسيوية التى هى القوة الأقتصادية الصاعدة فى العالم .

وتم توسيع قاعدة البحث العلمى وتحديث نظم الأنتاج والأدارة وأستطاع إقامة مدينة للبحوث على ستة آلاف فدان أصبحت بمثابة المختبر التى خرجت منه نهضة أندونيسيا ونجحت أندونيسيا فى أنتاج وتصدير طائرة نفاثه باسم (إن . ٢٥٠) فضلا عن إنتاج الغواصات وغيرها من الأسلحة الحديثة ومعروف أن

---

(١) كان بحر الدين حبيبى زميل دراسة مع نجم الدين أربكان رئيس حزب الرفاه الاسلامى فى تركيا الآن ورئيس الوزراء وصاحب الاتجاه الاسلامى المعروف فى تركيا .

الوصول الى تلك الدرجة من الانتاجية المتقدمة فى صناعة السلاح لا يتحقق إلا عبر اجتياز مراحل عديدة من البحث والتقدم الصناعى فى مختلف المجالات الأخرى .

وأصبح اتحاد المثقفين الأندونيسيين المسلمين الذى شكله الدكتور حبيبى [1] عام ١٩٩٠م أهم قوة فعاله فى الحياة السياسية بالبلاد على الرغم من أنه ليس تنظيماً سياسياً لكنه تجمع للمثقفين ذوى الانتماء الاسلامى من جميع التخصصات العلمية والثقافية وهذا الاتحاد يعرف الآن باسم (إيشمى) وهذا الاتحاد أشد التصاقاً بالهوية الاسلامية لأنه اعتبر الاسلام مشروعاً للنهضة وأخذ يمارس نشاطه خارج دائرة الصراع السياسى فلم يشكل حزباً سياسياً حتى يتجنب المشاكل مع القوى السياسية الأخرى فى البلاد وأعلن أعضاؤه أن معركتهم الأساسية هى ضد التخلف ومن أجل التقدم .

رد الفعل الغربى :

حين تطور موقف الرئيس سوهارتو مع نهاية الثمانينات وبدأ يعطى للتيار الاسلامى وضعه الحقيقى فى البلاد لتصحيح الوضع المختل هدد الغرب بقطع المعونه الاقتصادية التى كانت تقدمها أوروبا الغربية للبلاد ونقل اليه وزير

(١) ترجع صلة الدكتور حبيبى بسوهارتو الى سنوات بعيده حين كان سوهارتو مسئولا عن الأمن فى جزيرة (سولاقيس) التى تعيش فيها أسرة الدكتور حبيبى وكانت أسرة ميسورة الحال وكان الجنرال سوهارتو يقيم فى كنفها طيلة مدة خدمته فى الجزيرة ، وحين صار رئيساً للدولة رد الجميل للأسرة وأوفد ابنها بحر الدين حبيبى الى المانيا لنيل شهادة الدكتوراه على حساب الدولة وبعد أن عاد الابن حمله الرئيس مسئولية البحث العلمى فى الحكومة ولا يزال فى موقعة حتى الآن (١٩٩٧م) وقد أسهم فى النهضة الصناعية الحالية فى أندونيسيا ، وبدأ سوهارتو يعد الدكتور حبيبى لخلافته فى المستقبل وعينه نائباً له فى رئاسة الحزب الحاكم .

خارجية هولندا هذا التهديد لكنه لم يبال بالانذار الأوربى لأنه كان فى موقف أقتصادى أفضل مما كان عليه عندما تسلم الحكم وأقبل فى سنة ١٩٩٠م على تغيرات أعطت لكل طرف فى أندونيسيا حجمه الحقيقى فى الحكومة والجيش كما ذكرنا من قبل .

وحين أتجه سوهارتو الى الأقتراض من شعبه المسلم ثارت ثائرة كل العناصر التى كانت مستفيده من الوضع السابق الاحتكارى والمختل وبدأو يشنون ضده حملة قوية رفعت شعارات الحريات وحقوق الأنسان وهى الشعارات التى تجاهلوها وسكتوا عليها حين كانوا شركاء فى الحكم طيلة ربع قرن ثم أستدعوها وتمسحوا فيها حين أخرجوا من الحلبة !!؟

وبدأ الغرب يمنح المعارضين له جوائز عالمية فمنحوا جائزة نوبل لأثنين من دعاة أنفصال تيمور الشرقية إحدى الجزر الأندونيسية وشن الاعلام الغربى حملة قوية ضد حكومة أندونيسيا من جراء أتهامها بمصادرة الحريات وأنتهاكات حقوق الانسان وهى الأتهامات التى برزت فقط حين رفض الرئيس سوهارتو الأنصياع للأبتزاز الغربى وبدأ يتحدث عن الهوية الاسلامية لبلاده !!

وفى غمرة هذا التحول دفع الرئيس سوهارتو بكتلة جديدة من الكوادر المثقفة المسلمة الى الصف الأول من خطوط التأثير ، فى الواقع الأندونيسى ، وهى منظمة أو جمعية (المثقفين المسلمين) التى تأسست فى عام ١٩٩٠م وأصبحت تضم أوسع دائرة من الفنيين والخبراء الذين يشغلهم هم التنمية والنهضة وليسوا طرفا فى الصراع السياسى كما سبق أن ذكرنا وهو الصراع المحصور طبقا للدستور فى حدود ثلاثة أحزاب فقط .

هذه الكتلة الجديدة التى يشار اليها بأسم (أيشمى) ويرأسها الدكتور حبيبى أصبحت منافسا قويا لمنظمتين اسلاميتين تقليديتين هما :

(١) نهضة العلماء وهى تحت قيادة علمانية متبنية للموقف الغربى بالكامل .

(٢) جمعية المحمدية وهى قريبة من منظمة إيشمى فى اتجاهها الاسلامى وعلى تعاون معها .

وترتب على هذا التحول توتر فى العلاقة بين الاسلام والمسيحية فى أندونيسيا وهو توتر ناشئ عن أن المسيحية التى وفدت على الاسلام فى أندونيسيا أرتبطت بالاستعمار الهولندى والأختراق التبشيرى والابتزاز الغربى الأمر الذى جعلها فى الأدراك الاسلامى العام مرتبطة بالغلبة والهوان وهو ما آثار بين الناس شعورا بالنفور منها لأنهم أستقبلوها بحسبانها أداة قهر غربية وليست رسالة سماوية [١] .

لكن أصحاب التيار الاسلامى يدركون أهمية التعايش المبنى على الثقة والعدل بين المسلمين والمسيحين ويعتبرون أن التوتر الراهن مجزد سحابة عابرة سرعان ما تنقشع بعد أن تهدأ النفوس ويلتقى الطرفان على المصلحة العليا للبلاد . وأهم ما فى هذا التحول أن أندونيسيا أفلتت من مصير التغريب والتنصير الذى دبر لها .

---

(١) فهمى هويدى ، من مقال له فى الاهرام بعنوان (أندونيسيا : تحول مسكوت عليه) ، عدد ١٩٩٦/١٢/٣١ م .

ماليزيا:

ماليزيا من دول جنوب شرقى آسيا ، وهى مملكة إتحادية تتألف من شبه الجزيرة الماليزية أو شبه جزيرة الملايو ، وهذه تكون ماليزيا الغربية ، ثم ماليزيا الشرقية التى تشتمل على ولايتى صباح وسرواك ، ويفصل بين ماليزيا الشرقية والغربية بحر الصين الجنوبى وتبلغ المسافة بينهما عبر هذا البحر ٦٥٠ كم .

ويشترك اتحاد ماليزيا فى حدود برية وبحرية طويلة مع أندونيسيا ، وتبلغ طول الحدود البرية ١٣٠٠ كم ، وقد تكون اتحاد ماليزيا منذ سنة ١٩٦٥ .

وقد دخل الاسلام إلى ماليزيا فى وقت مبكر منذ دخل إلى إندونيسيا كما ذكرنا من قبل ، وأن التجار العرب الذين قدموا من اليمن والخليج العربى وذهبوا إلى الصين كانت لهم مراكز فى شبه جزيرة الملايو وعلى الأخص ملقا، وهذه المراكز هى التى ألقت بذور الاسلام فى جنوب شرقى آسيا بصفة عامة وفى ماليزيا بصفة خاصة ، وعلى ذلك فإن العرب المسلمين لم يأتوا إلى هذه البلاد غزاه كما فعل الأسبان والبرتغاليون بعدهم ، ولم يستخدموا السيف أداة لتحويل الناس إلى الاسلام ، وقد ذكر المؤرخ الصينى (سينج هو) أن حاكم (ملقا) فى سنة ١٤٠٤م كان مسلما وفى منتصف القرن الخامس عشر كان نفوذ الدولة الاسلامية بملقا قد وصل إلى معظم جزر الملايو ، وقد نافست الدولة الاسلامية فى (ملقا) مملكة (جاوة) بأندونيسيا التى ضعفت بسبب منافستها لها ، وانتهز مسلمو ملقا وقاموا بدعوة الجاويين إلى الاسلام بالحكمة والموعظة الحسنة ووصل إلى جزيرة جاوه أحد علماء الفرس وهو (مولانا ملك إبراهيم) الذى قام بالدعوة الاسلامية فى جزيرة جاوه وتوفى بها سنة ١٤٠٩م .

وفى مطلع القرن السادس عشر الميلادى نزل البرتغاليون فى ساحل ملقا وجعلوه محطة تجارية لهم ونشروا نفوذهم فى شبه جزيرة الملايو ، ولما نهضت هولندا فى مجال الاستعمار انتزعت ملقا من البرتغاليين سنة ١٦٤١م وكانت مصدر قوتهم فى جنوب شرقى آسيا ، ومنذ أن استولى الهولنديون على ملقا وكانت أقوى قاعدة استعمارية استطاعوا أن يوجهوا إلى البرتغاليين ضربة قاضية فى تلك النواحى ، وما لبثت الامبراطورية البرتغالية فى الشرق أن انهارت إنهيارا سريعا [١] .

واتبع الهولنديون نظام الاقراض الربوى مقدما على المحاصيل إلى المزارعين فتهيأ لهم بذلك إنتزاع الأملاك من أيدى ملاكها فى ملقا وغيرها كما سبق أن ذكرنا من قبل ، فلما قاوم السكان ذلك أخمدت مقاومتهم بالقوة ، وبذلك تحطم نظام ملقا الاقتصادى وذاق أهلها ذل الفاقة والمذلة [٢] .

وبدأ أهل الملايو فى صراعهم مع هولندا فهاجموا المراكز والمنشآت الهولندية ولكن هذه المقاومة كانت أقل من قوة المستعمر الذى يستعمل أحدث الأسلحة وعين الهولنديون حاكما على ملقا تابعا للحاكم العام فى جاكرتا بأندونيسيا .

الصراع الانجليزى الهولندى على ملقا :

بدأ الانجليز ينافسون هولندا فى السيطرة على مناطق جنوب شرقى آسيا وكان للأنجليز بحرية قوية تعتبر الأولى من نوعها فى العالم وأستطاع الانجليز بقوتهم البحرية أن يسيطروا على بعض المناطق فى سومطرة وأن يحصلوا على سلع المنطقة من البهارات وغيرها بسعر رخيص جعلهم يعرضون هذه

(١) بانيكار ، آسيا والسيطرة الغربية ، ص ٥٥ ـ ٥٧ .

(٢) المرجع السابق ص ٥٨ .

المنتجات فى أسواق أوربا بسعر أقل مما يعرضه الهولنديون فكسبت بذلك أنجلترا الأسواق من هولندا مما أضطر هولندا الى الغاء الشركة التجارية الهولندية سنة ١٨٠٠م وتحملت الديون التى كانت الشركة مدينة بها ونجحت بريطانيا فى الاستيلاء على بعض الجزر فى المنطقة مثل جزيرة سنغافورة سنة ١٨١٩م ودفعت لسلطانها مبلغا من المال ثم تمكنت من الأستيلاء على ملقا من هولندا وأستولت كذلك على جزيرة (بينانج) من سلطان (قدح) وكون الانجليز لهم من الموانى الثلاثة (سنغافورة ، ملقا ، بينانج) مستعمرة جديدة أطلقوا عليها مستعمرة المضايق[1] .

وفى سنة ١٨٢٤م عقدت معاهدة تسوية بين انجلترا وهولندا تسلمت انجلترا بموجبها مستعمرات هولندا فى الملايو وسلمت انجلترا الى هولندا مستعمراتها فى جاوة وجميع جزز أندونيسيا وركزت بريطانيا نشاطها البحرى والتجارى فى سنغافوره ثم أستولت بريطانيا على الجزء الشمالى لجزيرة (بورنيو) وقسمته إلى ثلاثة أقسام هى (سرواك ، صباح ، برونى) وهذه المناطق أصبحت مراكز تجارية وعسكرية هامة لبريطانيا وهذه المناطق الثلاث تكون منها فيما بعد الجزء الشرقى من ماليزيا .

يقظة شعب الملايو ضد الانجليز:

قامت ثورات فى كثير من الأماكن فى الملايو ضد الانجليز وكانت هذه الثورات أنذاراً لبريطانيا وأنضم بعض سلاطين الملايو الى الشعب فى هذه الثورات ولم ينعم الاستعمار البريطانى بالأستقرار فى الملايو وقد شهد مطلع

---

(١) د. أحمد شلبى ، موسوعة التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية الطبعة الأولى سنة ١٩٨٣م ، الجزء الثامن ص ٤٩٤ ، ص ٤٩٥ ، وأنظر أيضا د. محمد عبد الرءوف، الملايو ، وصف وأنطباعات ، ص ٨٩ .

القرن العشرين ثورة عارمة قام بها المجاهد المعروف بالشيخ الهادى وكان هذا الشيخ قد تتلمذ فى مصر على الشيخ محمد عبده وشهد النهضة المصرية فى مجال الفكر الاسلامى على يد الشيخ محمد عبده فى مصر وعند عودته الى الملايو أصدر مجلة سميت مجلة (الإمام) تيمنا بالأمام محمد عبده وكان لها أثر كبير فى ربط حركات الاستقلال بالملايو بالنهضة الإسلامية فى الشرق العربى [١] .

وكانت هذه الحركات الجهادية التى أتعبت الاستعمار الانجليزى هى التى مهدت لزحف اليابان على الملايو فى بداية الحرب العالمية الثانية .

استيلاء اليابان على الملايو:

قامت الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٣٩م وأنشغلت بريطانيا بصراعها مع ألمانيا فلم تستطع أن تدافع على الملايو وتركت لأهل ماليزيا الدفاع عن أنفسهم ولم يكن عندهم من السلاح والتدريب ما يقف أمام قوة اليابان وسرعان ما هجمت اليابان على (بيرل هاربر)[٢] فى ٧ ديسمبر سنة ١٩٤١م واستولت بعد هذة الضربة التى تشت على قوة أمريكا فى هذه النواحى أستولت على فرموزه والهند الصينية والملايو وأندونيسيا وجزيرة هاواى وهونج كونج والفلبين.وأستسلم المقيم العام الانجليزى ومقرة سنغافورة للأستعمار اليابانى فى ٨ فبراير سنة ١٩٤٢م .

ولكن أتضح لأهل ماليزيا وجنوب شرقى آسيا بصفة عامة أن الاستعمار اليابانى كان أقسى وأعنف من الاستعمار الانجليزى فقد أساء اليابانيون معاملة

---

(١) وان أحمد ، الأوضاع السياسية والحضارية للمسلمين فى ماليزيا وأندونيسيا فى القرن العشرين ص ٤٧١ ، أنظر أيضاً المرجع السابق ص ٤٩٨ ، ص ٤٩٩ .

(٢) بيرل هاربر قاعدة بحرية فى جزر هاواى تابعة للولايات المتحدة .

الأهالى على الرغم من أنهم أتخذوا شعارا براقا للأسيويين هو (آسيا للأسيويين) ولكن سرعان ما أتضح لشعوب جنوب شرقى آسيا أن اليابانيين يقصدون بهذا الشعار أن (آسيا لليابانيين) .

وحاول اليابانيون فرض لغتهم فى مناطق جنوب شرقى آسيا ولقد وقع شعب ماليزيا تحت وطأة التخريب المتبادل بين القوات البريطانية والقوات اليابانية لأن الانجليز حاولوا تخريب الملايو قبل الاستسلام فهدموا كثيرا من الكبارى ودمروا المبانى وأتلفوا ما تركوه من أسلحة ولم يكتفوا بذلك وانما أتلفوا مزارع المطاط والأرز وأحرقوا كميات هائلة من البترول .

وقامت ثورات قادها الشعب الماليزى ضد اليابانيين حققت أهدافها فى نهاية الحرب العالمية الثانية وخاصة أن الحلفاء تغلبوا على ألمانيا وعلى اليابان وأستسلمت اليابان فى ١٤ أغسطس سنة ١٩٤٥م عقب ألقاء القنبلتين الذريتين على (هيروشيما ونجازاكى) فى ٦ ، ٩ أغسطس سنة ١٩٤٥م وعادت بريطانيا الى الملايو بعد هذه الهزيمة وعلى الرغم من أنها وعدت أن تمنح البلاد الاستقلال إلا أنها تمسكت بها .

وتكونت الأحزاب وكان من أهمها :

(١) الحزب الوطنى الملايوى الذى قاده المناضل الماليزى تنكو عبد الرحمن وهو الحزب الذى ضم أكبر حزبين فى الملايو وهو الحزب الوطنى والحزب الصينى وحصل هذا الحزب على أغلبية ساحقة وفاز فى أنتخابات المجلس التشريعى فى يوليو سنة ١٩٥٥م وعلى إثرذلك شكل تنكو عبد الرحمن وزارته وأكد أن هدفه هو أستقلال الملايو التام عن طريق السلم وعلى ذلك جرت مفاوضات بينه بين الانجليز وحاولت بريطانيا أن تخيف سلاطين ماليزيا من الحركة التى قادها تنكو عبد الرحمن وأنهم سيفقدون مناصبهم

ولكن سرعان ما طمأنهم تنكو عبد الرحمن بسلامة عروشهم فى حالة استقلال ماليزيا وأنهم سيكونون ملوكا فى ولاياتهم كما كانوا من قبل .

تحقيق الاستقلال :

تمكن تنكو عبد الرحمن بعد أن ضمن ولاء السلاطين من إعلان الاستقلال التام فى ٣١ أغسطس ١٩٥٧م وتم وضع الدستور الذى كان من أهم ما ورد فيه أن الدين الاسلامى هو الدين الرسمى للدولة مع ضمان حرية الاديان الأخرى وأن اللغة الملايوية هى لغة الدولة ، مع جواز أستعمال لغات أخرى وتقرر كذلك أن يختار السلاطين واحدا منهم يكون ملكا على ماليزيا ويختارون اخر من السلاطين نائبا له وتكون مدة الرئاسة ٥ سنوات ويستمر باقى السلاطين كل فى ولايته يباشر سلطته عليها فى حدود دستورها المحلى والولايات التى شملتها الملايو المتحدة (ماليزيا) هى : (١) جوهر (٢)ملقا (٣) نجرى سمبلان (٤) سلانجور (وبها العاصمة كوالا لا مبور) (٥)بيراق (٦) قدح (٧) جزيرة بينانج (٨) باهانج (٩) ترينجانو (١٠)كلنتانج (١١) برليس .

اتحاد ماليزيا :

لكن بقى خارج هذا الأتحاد منطقة ماليزيا الشرقية التى تقع فى بورنيو الشمالية وهى (صباح) و (سرواك) و (برونى) فرأت بريطانيا أن تضم أثنين منها الى ماليزيا التى نالت أستقلالها حديثا لكن بريطانيا حرصت أن تبقى برونى تحت سيطرتها .

كان أسم أتحاد ماليزيا بعد الاستقلال دولة (الملايو المتحدة) ونشأ أتجاه جديد فى صباح وسرواك وسنغافورة على اقتراح بتسمية هذا الاتحاد

بأسم (أتحاد ماليزيا) وقد تبنى هذه الفكرة أيضا الانجليز ووافق عليها تنكو عبد الرحمن رئيس وزراء الملايو وبناء على ذلك أقيم أتحاد ماليزيا فى ١٦ سبتمبر سنة ١٩٦٣م وهو يضم الملايو المكونة من ١١ إقليما كما يضم سنغافورة أيضا لكن سنغافورة أنفصلت عنه سنة ١٩٦٥م .

وسبب أنفصال سنغافورة أن المسلمين بها أقلية تتراوح بين ١٥٪ و ١٧٪ أما بقية السكان فمنهم حوالى ٦٪ من الهندوس ٥٪ من المسيحين أما الباقون وهم الأغلبية الساحقة فيعتنقون الديانات الصينية الوثنية لأنهم ينحدرون من أصل صينى ، وسنغافورة بلاد مفتوحة نشاطها التجارى واسع وبها أيضا نشاط صناعى وبسبب أنها بلاد مفتوحة ينشط بها التبشير المسيحى الذى يتخذ منها مركزا مهما تنتشر فروعه فى جميع دول المنطقة (١) .

النظام السياسى فى ماليزيا :

سبق أن ذكرنا أن ماليزيا تتكون من ماليزيا الشرقية وماليزيا الغربية ، أما ماليزيا الشرقية فيها ولايتان يحكم كل منهما حاكم تعينه الحكومة المركزية وهما صباح وسرواك ، أما ماليزيا الغربية ففيها ١١ ولاية ٩ منها تحكم بواسطة السلاطين الذين يتولون السلطة بالوراثة وأثنان هما « جزيرة بينانج وملقا » تحكمان بواسطة حاكم وذلك مثل ماليزيا الشرقية ، ولكل ولاية حكومة محلية يرأسها السلطان أو الحاكم وبكل ولاية مجلس محلى له سلطات البرلمان فى حدود البلاد .

أما الحكومة المركزية فى العاصمة (كوالا لامبور) فلها سلطة على جميع ولايات البلاد ورأس هذه الحكومة هو الملك الذى ينتخب من بين السلاطين لمدة خمس سنوات كما ذكرنا من قبل ، ويكلف الملك الزعيم

(١) د. أحمد شلبى ، مرجع سبق ذكره ، جـ ص ٥٠٤ ـ ٥٠٦ .

الذى حصل على الأغلبية فى البرلمان بتأليف الحكومة المركزية .

وماليزيا هى أكبر بلد فى العالم ينتج المطاط الطبيعى فهى تنتج ٤٤٪ من مطاط العالم وتنتج أكثر من ثلث أنتاج القصدير العالمى كما أنها الدولة الأولى التى تصدر زيت النخيل وتصدر أيضا الأخشاب .

النفوذ الصينى فى ماليزيا :

ولكن مما يؤسف له أن هذا الاقتصاد العظيم يوجد أغلبه فى أيدى الصينيين وبعض الهنود والذى شجع على ذلك الاستعمار البريطانى الذى كان قد أجبر أهل البلاد على بيع أراضيهم للأجانب [(١)] .

ومن ثم حدثت ثورات ضد الهيمنة الصينية وأحك الصينيون بأهل البلاد لكى يستقلوا بالحكم فى البلاد لكن أهل البلاد ثاروا عليهم وكان شعارهم (الله أكبر) وبدأ أهل الملايويحرق متاجر الصينين وتدمير مصانعهم فأستسلم الصينيون أستسلاما تاما وأصبح الزمام السياسى فى أيدى أهل البلاد غير أن الاقتصاد ما زال فى يدى الصينين .

وقد أثبتت الثورات التى قامت ضد الهيمنة الصينية فى ماليزيا أن الاسلام فى الملايو له وضع خاص إنه هو والقومية تعبير واحد فالاسلام هو الذى ألتفت حوله الجماهير فى وجه الزحف الصينى الذى يهدد وجود أهل الملايو ويحاول أن يسلب ديارهم .

---

(١) د. وان أحمد ، الأوضاع السياسية والحضارية للمسلمين فى أندونيسيا وماليزيا فى القرن العشرين ، ص ٦٥٦ ، وأنظر أيضا د. أحمد شلبى ، المرجع السابق ، ص ٥١٣ .

المسلمون فى الهند

دخل الإسلام فى الهند من ناحيتين :

الأولى: الناحية الشمالية عن طريق البر حيث خرجت الحملات الأولى فى عصر الخلفاء الراشدين (٣٨ ـ ٣٩ هـ) أيام على بن أبى طالب ، خرج الحارث بن مرة العبدى غازياً لأرض السند واستشهد فى أرض السند سنة ٤٢هـ .

وفى العصر الأموى نشط المسلمون فى عملية فتح الهند ففى سنة ٩٣هـ أرسل الوليد بن عبد الملك محمد بن القاسم عن طريق الحجاج بن يوسف الثقفى فى العراق إلى الهند ، ففتح (محمد بن القاسم) بلدانا كثيرة فى ولاية السند وأرسى فيها قواعد دولة إسلامية عربية ظلت تنمو وتزدهر قروناً طويلة .

وتتابعت الحملات على الهند فى عهد الدولة الأموية ودخل الإسلام إقليم السند ، إلا أن التدفق الإسلامى على الهند حدث فى عهد السلطان (محمود الغزنوى) فى بداية القرن الحادى عشر بعد أن استطاع التعمق فى سهول الهند الشمالية وإقامة حكم إسلامى مستقر داخل الهند .

ثانيا: أما الناحية الثانية : التى دخل الإسلام منها الهند فهى الناحية الجنوبية فى شبه القارة الهندية وكان مصدرها البحر على يد البحاره العرب من جنوب الجزيرة العربية ، وهم أهل تجارة وملاحة ، وقد وصلوا إلى الساحل الغربى لشبه القارة الهندية وترجع الاتصالات الأولى بين التجار والملاحين العرب وبين جنوب الهند إلى القرن الثامن الهجرى وأخذ نشاط العرب يتزايد حتى احتكروا تجارة الهند الخارجية وصار لهم نفوذ ومركز محترم لدى ملوك جنوب الهند ، كما صارت لهم السيطرة وحدهم على النشاط الملاحى فى المحيط الهندى وتجارة التوابل من هذه المناطق .

وقد جلب الفتح الإسلامى للهند منافع كثيرة ومكاسب عظيمة ، فقد فتح أمام (طبقة المنبوذين) نافذة إلى التطلع والطموح والحرية لأن هذه الطبقة حرمت من الحقوق الإنسانية منذ أمد بعيد فدخلوا الإسلام أفواجا ، لأن الإسلام يسوى بين الطبقات ويعطى فرصة التقدم لكل فرد (١) .

وقد اعترف (جواهرلال نهرو) بفضل الإسلام على الهند فى كتاب له قائلا : « إن دخول الإسلام إلى الهند له أهمية كبرى فى تاريخ الهند إذ أنه قد فضح الفساد الذى كان قد انتشر فى المجتمع الهندوكى وأظهروا فروق الطبقات واحتقار المنبوذين وحب الاعتزال عن العالم الذى كانت تعيش فيه الهند ، ان نظرية الأخوة الإسلامية والمساواة التى كان يؤمن بها المسلمون أثرت فى أذهان الهندوس تأثيرا عميقا ، وكان أكثرهم خضوعا لهذا التأثير البؤساء الذين حرمهم المجتمع الهندى المساواه ، والتمتع بالحقوق الإنسانية [ص ٣٣٥ ، ٥٢٦ the Discovery Of India] (٢) .

ويذكر توماس أرنولد فى كتابه الدعوة إلى الإسلام عن طوائف المسلمين بالهند ما نصه :

« تتألف الجاليات الأجنبية (!) (٣) فى الهند من طوائف أصلية ثلاث : الأولى ، وهى أهمها من حيث العدد ، هى (طائفة المهاجرين الذين قدموا عبر حدود الهند الشمالية الغربية) ، والذين نجدهم فى إقليمى السند والبنجاب بوجه خاص ، الثانية : هم بقايا أعضاء الطبقة الاستقراطية أو

(١) محمد إسماعيل الندوى ، تاريخ الصلات بين الهند والبلاد العربية ، دار الفتح للطباعة والنشر ، بيروت ، لم تذكر سنة الطبع ص ٤٢ .

(٢) المرجع السابق ص ٤٠ .

(٣) يلاحظ أن توماس أرنولد يعتبر المسلمين فى الهند جاليات أجنبية وهذا خطأ فاحش حيث أنهم أضحوا أهل البلاد بل حكامها كما سيذكر هو فيما بعد ، ص ٢٨٦ .

جيوش الدول الأسلامية الذين أقاموا بكثرة فى أعالى الهند بدرجة أقل بكثير فى هضبة الدكن و الطبقة الثالثة والأخيرة ، هم هؤلاء الذين استوطنوا الساحل الغربى ، ولا يبعد أن يكونوا من أصل عربى ، وقد جاء الذين أسسوا هذه المستعمرات إلى بلاد الهند عن طريق البحر ولكن عدد الاسرات ، التى تنتمى إلى أصل أجنبى ، والتى استوطنت بلاد الهند فعلا ليس كبيرا ، فى أى مكان إلا فى البنجاب وما يجاورها وفى الحق أن أكثر من نصف مسلمى الهند قد تلقب بألقاب الشعوب الأجنبية المتميزة ، مثل شيخ وبك وخان ، بل بلقب سيد . بيد أن السواد الأعظم من هؤلاء المسلمين هم من سكان البلاد الأصليين أو من ذرياتهم الذين تحولوا إلى الاسلام ، وتلقبوا بلقب الشخص الذى بلغ أعلى مرتبة بين هؤلاء الذين أسلموا على أيديهم ، أو اندمجوا فى الطبقة الأرستقراطية الإسلامية ، حتى ولو كان صادرا عن بواعث أقل أهمية من ذلك أما هذا القسم الثانى من هذه الجماعة ـ وهم أهالى البلاد الأصليون الذين تحولوا إلى الإسلام فإن تغير دين فريق منهم ، كان بعضهم من غير شك راجعا إلى ما استخدم من وسائل العنف وضغط السلطات الرسمية ، على حين دخل السواد الأعظم منهم فى حظيرة الإسلام بمحض إرادتهم إلى حد بعيد»(١) .

وعندما تولى السلطان (محمود الغزنوى) بن سبكتكين التركى الأصل عرش الدولة الغزنوية سنة ٣٨٨ ونذر نفسه للجهاد ونشر الإسلام فى الهند وقاد نحو ١٧(سبع عشرة) حملة إلى الهند انتصر فيها على أعدائه المتحالفين ضده من راجوات الهند أى ملوك الهند فى كثير من المعارك . أهمها معركة باتنداه الذى فرق فيها شمل الراجاوات وحطم أصنامهم وفتح دهلى وأقام ولاة من قبله فى (لاهور) وأحكم توطيد الحكم الإسلامى فى جميع البنجاب فغدا

---

(١) توماس أرنولد ، الدعوة إلىالإسلام ، ص ٢٨٦ .

مستقرا ثابتا من ذلك الوقت .

وقد شملت الدولة الغزنوية أيام السلطان محمود الملتان وجزءا من السند كما امتدت إلى العراق غرباً وضمت كلا من خراسان وطخارستان وعاصمتها بلخ وجزءاً من بلاد ما وراء النهر فى الشمال وسجستان فى الجنوب .

وكان (بلاط محمود الغزنوى) موئل العلماء الأدباء ومنهم العتبى مؤرخ عصر السلطان محمود والبيرونى صاحب كتاب : « تحقيق ما للهند من مقوله مقبولة فى العقل أو مرزولة » والفردوسى الشاعر صاحب « الشاهنامه » .

وقد اقتفى آثار محمود الغزنوى من بعده (محمد الغورى) الذى ينتسب إلى أقليم الغور الذى يقع الآن فى افغانستان الحالية والغوريون ينحدرون من الأتراك وتغلب محمد الغورى على آخر سلاطين الغزنويين ٥٨٢هـ وأقام سلطانه فى أرضهم وغزا الهند وافتتح دهلى واستمر عهده إلى سنة ٦٠٢ هـ .

وبرز فى حياة ذلك السلطان المماليك الأتراك المعتقون الذين تولوا القيادة فى عهده وأصبحوا أصحاب القوة بعده فغدا قطب الدين أيبك سلطانا فى دهلى بعد وفاة محمد الغورى وكانت هذه الدولة الإسلامية التى أقيمت فى الهند والتى عرفت بدولة المماليك وانقرضت فى ٦٨٨هـ (١٢٩٠م)(١) .

وقد لعب أبناء أفغانستان دورا جهاديا ممتازا فى نشر الإسلام فى الهند على أيام الغزنويين والغوريين ، وانتشر الإسلام بفضل جهادهم ونضالهم فى هذه الأصقاع حيث كانوا عدة الحروب الطويلة التى خاضها كل من الغزنويين والغوريين .

(١) البلدان الإسلامية والأقليات المسلمة د. محمد السيد غلاب وآخرين ، دراسة تاريخية جغرافية أعدت بمناسبة المؤتمر الجغرافى الإسلامى الأول جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض سنة ١٣٩٩ هـ ص ٢٤٤ - ٢٤٩ .

ثم حكم الهند بعد المماليك دول ضعيفة (الخلجيون والتغلقيون واللوديون) حتى سنة ٩٣٣هـ (١٥٢٦م) وذلك عندما ظهرت الحاجة إلى حاكم قوى يوقف الصراعات ويوحدهم أمام الأطماع البرتغالية التى بدأت تبنى لها رؤوس جسور فى الهند منذ أن نزلت سنة ١٤٩٨م فى كاليكوت ، وتبغى توسيعها على حساب الاسلام فى كاليكوت وديووجوا وبومباى .

وقد وجدت هذه الشخصية فى (ظهير الدين محمد بن عمر شيخ) مرزا الملقب ببابر (أى النمر) صاحب غزنة الذى اندفع بقواته إلى سهول الهند واستولى على دهلى واسس امبراطورية المغول فى الهند لأنه من أصل مغولى سنة ٩٣٣هـ (١٥٢٦م) والتى استمرت حتى سنة ١٨٥٧م وكان بابر ينحدر من ناحية الأب من سلالة تيمورلنك .

• عندما ظهر بابر كان الأمراء الهندوس يسيطرون على وسط وجنوب الهند ونجح بابر فى استثارة الحماس الدينى لدى جنده حتى أحرز النصر فى كثير من المعارك وبعد أن استقر الوضع له فى الهند أخذ يعمل من أجل بناء دولة إسلامية قوية فى جميع أنحاء الهند وقد أدرك أنه لا يستطيع ذلك إلا إذا قام بتهدئة خواطر الهندوس بالتسامح الدينى ولذلك قطع فى هذه السياسة أشواطا كبيرة وأوصى بها ابنه وخليفته همايون قبل وفاته سنة ١٥٣٠م.

ومن أهم عصور المغول بالهند عصر (جلال الدين محمود) حفيد بابر الذى اشتهر بإسم (اكبر) وقد تولى الحكم بعد وفاة والده همايون سنة ١٥٥٦م وأمتد عهده نحو نصف قرن (١٥٥٦ ـ ١٦٠٥ م) وقد استطاع أكبر أن يقيم امبراطورية كبيرة سيطرت على شمال ووسط الهند ولم يبق خارج دولته إلا دولة (فيانا جار) الهندوكية فى جنوب الهند . ولم يحاول أكبر إذلال

البلاد المفتوحة فقرب إليه الأمراء الهندوك واشركهم فى إدارة البلاد وصاهرهم، وعلى الرغم من أن أكبر استمر فترة بعد اعتلائه العرش مسلما سنيا يؤدى الفرائض ويعمل على نشر الإسلام وإقامة المساجد إلا أنه لم يلبث أن شطح فى تفكيره الدينى فى محالة لجمع الهندوس والترك والمغول وغيرهم من أصحاب الديانات التى تنتشر فى الهند فى ديانة واحدة حتى يشكلوا شعبا واحدا متماسكا وكان فى هذا التفكير يسترشد بظهور اللغة الأردية التى نتجت من اختلاط الفارسية والعربية التركية ، والهندية ، ولذلك عمل أكبر من أجل البحث عن مذهب أو عقيدة يتبعها كل أهل الهند .

ومن أجل ذلك عقد العديد من الندوات الدينية وبنى دورا جديدة للعبادة تسمى (عباده خانة) فى عاصمته الجديدة (فتح بور) وفى هذه الندوات دعا إلى المذهب الإلهى الذى يقوم على عبادة رب واحد وأكبر هو ظله على الأرض ودعا الشعب إلى الحياة النباتية مع المساواة التامة بين أفراد الرعية ، ولذلك أصدر عددا من التشريعات لمنع ممارسة بعض العادات والتقاليد التى اعتبرها أكبر تتعارض مع مذهبه ومع الإنسانية مثل عادة انتحار الأرملة بعد وفاة زوجها ووضع شروطا للزواج وأباح زواج الأرامل الهندوكيات ودعا إلى الزواج من خارج الأسرة من أجل تحطيم العصبية القبلية ومنع تعدد الزوجات .

ولا شك أن أكبر ابتعد عن الإسلام وتسامح مع الهندوس والمبشرين المسيحيين وتوقف عن بناء المساجد فى فترة انحرافه الدينى وتفكيره فى المذهب الإلهى (١٥٨٧ ـ ١٦٠١م) حتى أنه عهد بتربية ابنه سليم إلى مبشر برتغالى فخرج ضعيف العقيدة مهزوز الشخصية حتى أنه ثار على والده أكبر نفسه ، فحاول سليم عندما بلغ الثلاثين من عمره أن يؤسس لنفسه ملكا بحد السيف ولو أدى ذلك إلى أسقاط أبيه ، وقد أدى ذلك إلى سخط البلاط على

سليم ؛ ولا شك أن أكبر حاد عن الصواب فى محاولة توحيد الهند .

وبعد وفاة أكبر سنة ١٠١٤هـ (١٦٠٥م) أخذ الكيان الإسلامى فى الهند يتفكك بسبب الصراعات الأسرية من ناحية وبسبب إنتشار الحركة الشيعية بين مسلمى الهندمن ناحية أخرى حيث بدأت تظهر حركات انفصالية شيعية فى عهد أورانجزيب [(١)] (١٩٦٩ ـ ١٧٠٧م) الذى كان شديد التمسك بالإسلام على المذهب السنى .

ومما يؤخذ على أكبر بل وعلى سلاطين المغول فى الهند أنه بعد أن أطلت امبراطوريتهم على المحيط الهندى أصبحوا يرون عن قرب جهود البرتغاليين الاستعمارية للسيطرة على المحيط الهندى وما يحيط به من يابس وبعد أن رأوا الأسطول البرتغالى يسيطر على تجارة الشرق وأصبحت الهند ذاتها معرضة للخطر الاستعمارى البرتغالى ، لم يفكروا ولم يحاولوا إقامة قوة بحرية بحيث تكون قادرة على منازلة البرتغاليين والدفاع عن الهند ضد الأطماع الاستعمارية للبرتغال التى كانت دولة بحرية وتكمن قوتها فى أسطولها .

وعندما ضعف النفوذ البرتغالى فى البحار الشرقية وفى الهند بدأ النفوذ الإنجليزى فى منافسة شديدة ومن أهم الوسائل التى استخدمها للسيطرة على الهند الشركات الاحتكارية وفى مقدمتها (شركة الهند الشرقية البريطانية) التى صدر الرسوم الملكى بتأليفها سنة ١٠٠٩هـ(١٦٠٠م) والتى بواسطتها سيطرت بريطانيا على مقدرات شبه القاره الهندية التى تدهورت أحوالها السياسية والادارية والإقتصادية والفكرية .

وفى البداية كانت الشركة تنشئ الوكالات على السواحل مقابل مبالغ

---

(١) أورنجزيب : معناه (زينة العرش (أورنج = العرش ، زيب = زينة) .

تدفعها للحكام المحليين فى بمباى ومدراس وكلكتا ، فقد كانوا يحتاجون إلى الأموال من أجل صراعهم مع بعضهم وتحالف الإنجليز فى صراع عسكرى مع الحكام المسلمين وسيطروا على الهند شيئا فشيئا بفضل معونة الهندوس وأعمال الخيانة التى حدثت فى صفوفهم ولكن لم يستسلم المسلمون وقاموا بثورة كبرى سنة ١٨٥٧م على أيام بهادر شاه آخر حكام المغول .

وبدأ واضحا اهتمام الإنجليز بتقويض دعائم الإسلام فى الهند فأصبحوا يؤيدون الهندوس ضد المسلمين وحرصوا على تعطيل التعليم الإسلامى واستولوا على الأوقاف التى كانت تموله وفتحوا مدارس إنجليزية للهندوس اعدوا لخريجيها الوظائف الأدارية المحترمة ورفعوا بها مستواهم الثقافى وبذلك أوجدوا منهم طبقة يستطيعون استخدامها فى الدواوين الحكومية ، وشجعوا التنصير بين الهندوس .

ولم يكن هناك تنظيم على أيام بهادر شاه وقضى الإنجليز على ثورة المسلمين بمعاونة الهندوس وقتلوا مئات الآلاف منهم وحلت حكومة بريطانيا محل شركة الهند وصارت الهند تابعة للتاج البريطانى مباشرة وغدت مستعمرة بريطانية حتى الاستقلال سنة ١٩٤٨ م .

وفى البداية أقام الإنجليز نظاما برلمانيا تمثيليا فى قبضتهم ومن هذه المؤسسات «المجلس التشريعى» ومنذ سنة ١٨٨٥م أقاموا «المؤتمر الهندى» يتبادل رئاسته مسلم وهندوسى وظهرت فيه زعامات مثقفة مثل محمد على جناح ومحمد إقبال من المسلمين .

إلى جانب غاندى وطاغور من الهندوس وفى البداية تعاون الهندوس مع المسلمين فى المؤتمر لتحقيق استقلال الهند .

وعندما أقام المسلمون جامعة إسلامية لهم فى (دكا) زاد سخط الهندوس فقويت حركة المقاومة الإسلامية لهم المتمثلة فى «الرابطة الإسلامية»، وانضم إليها محمد على جناح عضو المؤتمر الهندى سنة ١٩١٣م.

وازداد تعاون حزب المؤتمر مع الحاكم البريطانى الذى كان يعد لتسليم الهندوس الحكم دون المسلمين وبذلك يصبح المسلمون أقلية فى وسط محيط هندوسى كبير .

ونادى المسلمون أن يكون ربع المقاعد فى البرلمان لممثلى المسلمين ولكن زعماء المؤتمر الهندى قرروا السير فى الحركة الوطنية دون المسلمين ، وكان الهندوس يرون أن تكون انتخابات البرلمان عامة سنة ١٩٣٥ ويرى المسلمون أن الانتخابات تكون دينية ينتخب المسلمون ممثليهم فى البرلمان فلم يقبل الهندوس وساعدهم فى ذلك الإنجليز ، ولذلك فكر المسلمون بزعامة محمد على جناح فى تقسيم الهند .

ولم يلبث إن ظهرت الخلافات بين الهندوس والمسلمين حول (مصير الهند بعد جلاء الإنجليز عنها فبينما كان يرى زعماء الهندوس أنها يجب أن تظل موحدة وإلا تقسم طبقا للعقيدة الدينية كان زعماء المسلمين الذين أنشأوا حزب الرابطة الإسلامية بزعامة محمد على جناح الذى انضم إليهم فى سنة ١٩١٣م يرون ضرورة تقسيم الهند بين المسلمين والهندوس خوفا من أن يتحول المسلمون فى الهند الموحدة إلى أقلية .

واشتدت معارضة (محمد على جناح) لحزب المؤتمر بسبب تعاون حزب المؤتمر مع الإنجليز لأصدار دستور للهند يعطيها طابعا هندوسياً يؤدى

فى النهاية إلى القضاء على المسلمين وطالب بضرورة مراعاة حقوق الأقليات وحمايتهم من ضغط الأكثرية وأن يكون ربع المقاعد فى المجلس النيابى لممثلى المسلمين وأن يكون تمثيل الطوائف مستقلا وضمان الحرية الدينية فى الدستور الجديد ، وأن يمثل المسلمون فى وزارات وحكومات المقاطعات بنسبة الثلث .

وكانت فترة الحرب العالمية الثانية والسنوات التى أعقبتها هى فترة الصراع بين الفكرتين الهند الموحدة والهند المقسمة ، وفى سنة ١٩٤٦ أنزل الهندوس بالمسلمين مذابح مروعة لعلهم يعدلون عن فكرة الدولة الإسلامية فلم يزد هذا المسلمين إلا تمسكا برأيهم وفى أغسطس ١٩٤٧م حدث تقسيم الهند إلى باكستان وهندستان .

باكستان : وعاصمتها كراتشى فى باكستان الغربية وأخيرا استقر الوضع على أن تكون إسلام أباد هى عاصمة باكستان السياسية وتصبح كراتشى عاصمة اقتصادية وتعنى كلمة باكستان فى الأردية (البلاد الطاهرة) .

وهكذا برزت دولة مستقلة للمسلمين فى الهند إلا أن نقطة الضعف فى دولة باكستان هى انقسامها إلى باكستان الشرقية فى بلاد البنغال وباكستان الغربية فى بلاد السند وذلك بسبب التوزيع الجغرافى للمسلمين فى هذين الأقليمين من الهند وتفصل بين الأقليمين مسافة من الأرض تبلغ ألف ميل من أرض دولة الهند ، ولم يكن هناك طريق للإتصال سوى البحر عن طريق الإلتفاف حول شبه القارة الهندية وكان لهذا الأنقسام أثره على تماسك وحده دولة باكستان فقد ظهرت بين القسمين فروق وحساسيات ساعدت الهند على تعميقها .

وفى سنة ١٩٧١ م قامت حرب أهلية فى باكستان الشرقية بموازرة الهند وزحف جيش هندى يساعد البنغاليين الذين تزعمهم الشيخ مجيب الرحمن رئيس «رابطة عوامى» ونجحت الهند فى فصل باكستان الشرقية عن الغربية وأعلنت جمهورية مستقلة بإسم جمهورية (بنجلاديش ونسبة المسلمين فيها ٨٥٪ والباقى غالبيتهم من الهندوس وبنجلاويش تعانى ازدحام السكان فكان بها يومئذ حوالى ٨٠ مليون نسمة ، وتعانى من انخفاض مستوى المعيشة أما باكستان فنسبة المسلمين فيها نحو ٩٨٪ وكان تعدادها حوالى ٧٠ مليون نسمة فيهم أقلية من الشيعة والأغالبية من السنة وعاصمة بنجلاويش هى (داكا) .

وبقى فى الهند مسلمون موزعون فى شتى أقاليم الهند وعلى الأخص المدن الكبرى مثل دلهى وعددهم الآن ١٩٩٧م حوالى مائة مليون مسلم .

إحراق المساجد

وقد قامت القوات الهندية المحتلة لثلثى ولاية كشمير المسلمة بحرق وتدمير مسجد « نور الدين والى » فى مدينة الشريف بكشمير ، لردع الصحوة الإسلامية التى تشهدها كشمير منذ سنوات من أجل الأستقلال .

مشكلة كشمير :

وهناك مشكلة لا تزال تواجه باكستان وهى مشكلة كشمير التى تقع فى الشمال الغر من الهند ويعيش فيها قرابة عشرين مليون مسلم تعتبر باكستان وطنهم الطبيعى ، كما أن كشمير تضم منابع مياه الرى الحيوية لباكستان مما يجعل من يسيطر عليها يهدد باكستان .

وقد بدأت المشكلة مع قرار التقسيم سنة ١٩٤٧ م ذلك أن الإنجليز

وضعوا نظاماً لحكام الولايات للاختيار بين الانضمام إلى الهند أو باكستان وكانت كشمير المسلمة يحكمها فى ذلك الوقت هندوسى فقد قرر أن تنضم كشمير إلى الهند بينما كان الشعب الكشميرى يريد الانضمام إلى باكستان حيث يربطهما نهر السند إلى جانب روابط الدم واللغة والثقافة والتقاليد والتاريخ فالهند متمسكة بها استناداً إلى قانون التقسيم وباكستان تطالب بها استناداً إلى الحق وتعتبرها أرضاً باكستانية سليبة وما زالت المشكلة قائمة حتى الآن (١٩٩٧م) .

الآثار الإسلامية بالهند

تركت لنا العصور الإسلامية المزدهرة بالهند آثاراً إسلامية عظيمة تعد من أعظم الآثار الإسلامية فى العالم .

وتتمثل هذه الآثار فى عدة عمائر رائعة من روائع فن العمارة الإسلامية أولها : القلعة الحمراء فى دلهى ، ومسجد اللؤلؤة بداخل هذه القلعة التى تقع على نهر جمنا الذى بناه شاه جهان ابن أكبر فى سنة ١٠٦٠ هـ .

ومنها مقبرة تاج محل فى مدينة أكبر فى ضواحى أجرا التى بناها شاه جهان أيضاً تخليداً لزوجته تاج محل (أرجمند بانو) التى توفيت سنة ١٠٤٠هـ وهذا الأثر يعتبر إحدى عجائب الدنيا ، وهو مبنى من الرخام والمرمر الخالص وبذلك يعتبر تحفة إسلامية هندية رائعة .

وغير ذلك من الآثار التى تدل على عظمة الإسلام فى الهند ، وما زالت حتى يومنا هذا محل جذب للسياح فى الهند .

الاسلام فى الصين :

من الأحاديث المروية عن الرسول عليه الصلاة والسلام قوله : « أطلبوا العلم ولو فى الصين » ، وبلاد الصين كانت معروفة للعرب قبل الأسلام وذلك لأن صلات العرب التجارية بالصين كانت معروفة قبل الأسلام فكانت حاصلات الشرق تأتى الى مصر والشام عن طريق بلاد العرب ويذكر (توماس أرنولد) أنه فى القرن السادس الميلادى كانت بين الصين وبلاد العرب تجارة هامة عن طريق سيلان ، وفى بداية القرن السابع كانت التجارة بين الصين وبين فارس وبلاد العرب لا تزال واسعة الانتشار حيث كانت مدينة (سيراف) الواقعة على الخليج الفارسى هى السوق الرئيسية لتجارة الصين .

وتذكر كتب التاريخ الصينية أول من جاء من المسلمين الى الصين على النحو التالى : « فى عهد دولة تانج وفد على (كنتين) عدد كبير من الغرباء من مملكة (أنام) و (كمبوديا) و (مدينا) وبعض بلاد أخرى وكان هؤلاء الغرباء يعبدون الله ، وليس لهم فى معابدهم تمثال ولا صنم ولا صورة ، وكانت مملكة (مدينا) قريبة من مملكة (الهند) وفيها نشأت ديانة هؤلاء الغرباء التى تختلف عن ديانة بوذا وكانوا لا يطعمون لحم الخنزير ولا يشربون الخمر ويعتبرون الذبائح التى لا يذبحونها بأيديهم طعاما نجسا ، ويطلق عليهم الآن أسم (هوى هوى) ولما أستأذنوا الأمبراطور وحصلوا منه على أذن بالأقامة فى (كنتن) بنوا دورا جملية من طراز يختلف عن ذلك الذى كان فى بلادنا وكانت لهم ثروة عظيمة ودانوا بالطاعة لرئيس أنتخبوه بأنفسهم » [1].

ويذكر أيضا أنه عندما توفى (يزد جرد) آخر ملوك آل ساسان فى فارسى أستنجد أبنه (فيروز) بالصين لتنصره على العرب فبعث ملك الصين

---

(١) توماس أرنولد ، الدعوة إلى الإسلام ، ص ٣٣١ - ٣٣٢ .

سفيرا الى الدولة الاسلامية أيام خلافة عثمان ابن عفان ، وقيل أن الخليفة عثمان أرسل أحد القواد العرب ليرافق السفير الصينى فى عودته سنة ٦٥١م .

فاكرم الامبراطور وفادة أول سفير من المسلمين ، وفى عهد الوليد ابن عبد الملك سنة ٨٦ - ٩٦هـ يقوم (قتيبة بن مسلم) والى خرسان بأرسال رسله أولا الى امبراطر الصين فعادوا ومعهم هدايا ثمينة ومن هنا بدأت العلاقات الودية بين الدولتين .

وتذكر التواريخ الصينية أن الخليفة هشام بن عبد الملك أرسل سفيرا يدعى سليمان إلى الامبراطور الصينى (هزوان تسنج) سنة ٧٢٦م (١٠٨هـ) واكتسبت هذه العلاقات السياسية التى قامت بين الدولتين الاسلامية والصينية أهمية جديدة فى أواخر عهد هذا الامبراطور حين طرده أحد الغاصبين من عرشه فتنحى عنه لابنه سنة ٧٥٦م وطلب الامبراطور النجلة من الخليفة العباسى المنصور ، وأجابه الخليفة إلى هذا الطلب بأن أرسل إليه قوة من الجيوش الاسلامية نجح بمساعدتها فى استرجاع عاصمته من أيدى الثوار ، وفى نهاية الحرب لم ترجع هذه القوات الى بلادها بل تزوجت واستقرت فى الصين ، وخصصوا لهم أراضى ، ودورا فى مدن مختلفة حيث استقروا نهائيا فى الصين [١] .

وزاد الاسلام فى الصين فى أعقاب الفتح المغولى للصين ، فقد حدثت حركة هجرة واسعة النطاق من قوميات مختلفة من عرب وفرس وأتراك وغيرهم إلى الصين ، فجاء بعضهم إلى الصين على هيئة تجار وصناع وجنود واستقر عدد منهم فى هذه البلاد بصفة دائمة ، وتطور وضعهم إلى أن أصبحوا طائفة مزدهرة ، وقد تقلد بعضهم مناصب رفيعة تحت إمرة حكام المغول .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣٣٢ - ٣٣٣ .

وقد لاحظ ابن بطوطة الذى زارعدة مدن ساحلية فى الصين حول منتصف القرن الرابع عشر الميلادى أن إخوانه المسلمين يرحبون به كثيرا ، ويقرر أن « فى كل مدينة من مدن الصين مدينة للمسلمين ينفردون بسكناهم، ولهم فيها المساجد لإقامة الجمع والصلوات الخمس وهم معظمون محترمون[1] .

وبعد زوال دولة المغول فى النصف الثانى من القرن الرابع عشر الميلادى ، بدأت العزلة حول الصين وانقطعت الصلة بينهم وبين إخوانهم خارج الصين ، وخلال دولة منج (١٣٦٨ ـ ١٦٤٤م) اتيحت لهم فرصة بناء كثير من المساجد وأصبح لهم كثير من الامتيازات ، وأصبح لأمراء هذه الدولة كثير من الصلات بأمراء المسلمين خارج الصين وكثر تبادل السفراء بينهما وعلى الأخص الأمراء التيموريين .

وفيما يلى رسالة من الشاه (رخ بهادر) فى سنة ١٤١٢م أرسلها مع سفير صينى وصل إلى سمر قند ، وضمن رده على إمبراطور الصين دعوته إلى الاسلام وهذا نصها :

« بسم الله الرحمن الرحيم لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، قال رسول الله محمد عليه السلام : لا يزال من أمتى أمة قائمة بأمر الله ، لا ينصر من خذلهم ولا يطاع من خالفهم ، حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك . لما أراد الله تعالى أن يخلق آدم وذريته ، قال : كنت كنزا مخفياً فأحببت أن أعرف ، فخلقت الخلق لأعرف ، فعلم أن حكمته جلت قدرته ، وعلت كلمته ، من خلق نوع الإنسان ، إيثار العرفان ، وإعلاء أعلام الهدى والإيمان. أرسله رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، ولو كره

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣٣٦ .

المشركون، ليعلم الشرائع والاحكام ، وسنن الحلال والحرام . وأعطاه القرآن المجيد معجزة ، ليفحم به المنكرين ، ويقطع لسانهم عند المنازعة والخصام، وأبقى بعنايته الكاملة ، وهدايته الشاملة ، آثاره إلى يوم القيامه ، ونصب بقدرته فى كل حين وزمان ، وفرصة وأوان ، فى أقطار العالمين ، من الشرق والغرب والصين ، ذا قدرة وإمكان ، وصاحب جنود مجندة وسلطان ، ليروج أسواق العدل والإحسان ، ويبسط على رءوس الخلائق أجنحة الأمن والأمان ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر والطغيان . ويرفع بينهم أعلام الشريعة الغراء ، وأزاح من بينهم الشرك والكفر بالتوحيد فى الملة الزهراء . فوفقنا الله تعالى بسوابق لطفه ، ولواحق فضله ، أن نسعى فى إقامة قوانين الشريعة الطاهرة ، وإدامة قواعد الطريقة الزاهرة ، وأمرنا بحمد الله أن نفصل بين الخلائق والرعايا ، فى الوقائع والقضايا ، بالشريعة النبوية ، والأحكام المصطفوية ، ونبنى فى كل ناحية ، المساجد والمدارس ، ونعمر الخوانق والصوامع والمعابد ، كى لا يندرس أعلام العلوم ومعالمها ، ينطمس آثار الشريعة ومراسمها ، ولأن بقاء الدنيا الدنية وسلطتها ، واستدامة آثار الحكومة وإيالتها بإعانة الحق والصواب ، وإماطة أذى الشرك والكفر عن وجه الأرض ، لتوقع الخير والثواب .فالمرجو والمأمور من ذلك الجانب وأركان دولته ، أن يوافقونا فى الأمور المذكوره ويشاركونا فى تشييد قواعد الشريعة المعمورة»[1].

وفى رسالة أخرى التى كتبت بالفارسية فالدعوة فيها إلى أعتقاد الاسلام أكثر صراحة ، وليس فيها التنميق البلاغى الذى رأيناه فى الرسالة العربية : «لما خلق الله الأعظم ، بحكمته البالغة وقدرته الكاملة ، آدم (عليه السلام) جعل بعض أبنائه أنبياء ورسلا. وأرسلهم الى الخلق يدعونهم الى الحق .

(١) المرجع السابق ذكره ص ٢٣٧ .

وأنزل على بعض هؤلاء الأنبياء كإبراهيم وموسى وداود ومحمد (عليهم السلام) كتابا وعلمهم شريعة ، وأمر أهل زمانهم أن يتبعوا شريعة كل منهم ودينه ، ودعا هؤلاء الرسل جميعا الناس الى دين التوحيد وعبادة الله ، ونهوا عن عبادة الشمس والقمر والنجوم ، والملوك والأصنام ، ومع أن كلا من هؤلاء الرسل كانت له شريعة خاصة ، فإنهم كانوا جميعا متفقين على توحيد الله الأعظم . ولما صار أمر الرسالة والنبوة الى محمد المصطفى (صلى الله عليه وسلم) نسخت كل الشرائع الأخرى . وهو نبى آخر الزمان ورسوله ، وواجب على العالم بأسره ـ أمراء وسلاطين ووزراء وأغنياء وفقراء وصغارا وكبارا ـ أن يعلموا بشريعته ، وأن يتركوا كل الملل والشرائع السابقة . هذه العقيدة الصادقة الصحيحة تسمى الاسلام . ومنذ سنوات خلت ، تهيأ جنكيز خان للقتال ، وأرسل أبناءه الى بلاد وممالك مختلفة . فأرسل جوجى خان الى حدود سراى ، وقرم ودشت قفجاق ، حيث أسلم بعض الشاهات ، من أمثال أوزبك وجانى خان وأرس خان ، وعملوا بشريعة محمد (عليه السلام)، وأصبحوا بذلك مسلمين ، وانتقلوا الى الدار الآخرة سعداء بشرف الإسلام ، ومن هؤلاء الملك الصادق غازان وألجايتوا سلطان والشاه سعيد الحظ أبو سعيد بهادر ـ وغيرهم بعدهم حتى ولى العرش والدى المكرم أمير تيمور كوركان . قد عمل والدى كذلك بشريعة محمد (عليه السلام) فى كل البلاد التى حكمها ، ونعم المسلمون ، طوال عهده ، برخاء شامل . والآن وقد انتقلت الى يدى ، بلطف الله وفضله ، ممالك خراسان وما وراء النهر والعراق وغيرها ، فإن حكم البلاد فى كافة أرجاء المملكة بموجب الشريعة المطهرة النبوية ، أمر بالمعروف ونهى عن المنكر . وأبطل يرغو وزالت قواعد جنكيز خان . ومنذ ذلك الحين صار يقينا ومحققا أن الخلاص والنجاة فى يوم القيامة ، والسلطان والدولة فى الدنيا ، سببها إيمان الفرد وإسلامه وعناية الله

تعالى ، ومن الواجب علينا أن نعامل رعيتنا بعدل وأنصاف . وإنى لأرجو بفضل الله تعالى وكرمه أن تعملوا أنتم أيضا بشريعة محمد رسول الله (عليه السلام) ، وأن تقووا الإسلام فتنالوا بدلا من سلطان الدنيا سلطان الآخرة»(١).

وهناك قصة نشأت فى عصر متأخر ذكرت أن أحد أباطرة الصين قد تحول الى الاسلام وقد روى هذه القصة تاجر مسلم يدعى « سيد على أكبر » قضى سنوات قليلة فى بكين فى نهاية القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر ويتحدث عن عدد كبير من المسلمين الذين كانوا قد أستقروا فى الصين فكان فى مدينة كنجنوف Kenjenuf عدد كبير يبلغ ثلاثين ألف أسرة من المسلمين الذين لم يؤدوا الضرائب وتمتعوا بكرم الأمبراطور الذى منحهم هبات من الأرض ونعموا بالحرية المطلقة فى إقامة شعائر دينهم الذى كان الصينيون ينظرون اليه نظرة إحترام وتقدير وترك الامبراطور الشعب الصينى يتحول الى الاسلام بحرية وكان فى العاصمة نفسها أربعة مساجد كبيرة وما يقرب من تسعين مسجدا غيرها فى الولايات الأخرى من الامبراطورية وقد بنيت كلها على نفقة الامبراطور .

ثورات المسلمين فى الصين:

منذ وقعت تركستان الشرقية تحت الاحتلال فى عام ١٧٦٠م واجه المسلمون صعوبات شتى فقد صودرت أملاكهم مما جعل الثورات الاسلامية تندلع فى كل مكان فقامت ثورة فى حميد الله فى ١٧٦٣م وثورة جهانكيز فى ١٨٢٦، وثورة يعقوب بك ١٨٦٣ ـ ١٨٧٧م (٢) .

وفى سنة ١٦٤٨م ثار المسلمون عندما قامت سلطة حاكمة جديدة فى

(١) المرجع السابق ، ص ٣٣٧ ، ص ٣٣٨ ، ص ٣٣٩ .

(٢) د. سعيد حجاج ، المسلمون فى الصين فى العصر الحديث ، ص ٨٢ ـ ٨٥ .

الصين وكانت ثورتهم فى ولاية كنسوا وكانت هذه هى أول مرة تسلح فيها المسلمون وثاروا على الحكومة الصينية وفى القرن التاسع عشر أصبحت أية ثورة للمسلمين فى الصين تجر عليهم عواقب وخيمة وتقطع العلاقات الودية التى قامت منذ البداية بين مسلمى الصين وحكامهم .

كان للمسلمين فى الصين وسائل عديدة لزيادة أعدادهم من الذين يدخلون الدين الاسلامى من الصينيين وأهم هذه الوسائل ما أعتاده المسلمون من شراء الأطفال أيام المجاعات وكانت لهم ثروة تمكنهم من شراء الأطفال الوثنيين حيثما كانوا ولا يجد آباء هؤلاء الأطفال غضاضة فى بيعهم لعجزهم دائما عن توفير القوت لهم وفى أثناء المجاعة التى خربت ولاية تشتنج أشترى المسلمون ما يربوا على عشرة آلاف من هؤلاء الأطفال ، ويتزوج المسلمون بالصينيات ويشترون لهم الدور أو يبنون لهم فى المدينة أحياء مستقلة بل قرى بأكملها وحصلوا على مثل هذا النفوذ فى جهات عدة من الصين وكانوا لا يتيحون لأى شخص لا يذهب الى المسجد أن يعيش بينهم وبذلك تضاعف عدد المسلمين فى القرن التاسع عشر .

ويذكر توماس أرنولد أنه فى سنة ١٧٩٠م أثناء المجاعة التى أجتاحت إحدى الولايات فى الصين أشترى المسلمون عدداً كبيراً يبلغ عشرة آلاف طفل كان آباؤهم لا يستطيعون الأنفاق عليهم بسبب الفقر فرغبوا فى التخلص منهم إنقاذاً لأبنائهم من الهلاك جوعاً وقد تربى كل هؤلاء على دين الاسلام .

وقد زار القاهرة فى سنة ١٨٩٤م رجل صينى مسلم من ولاية يونان يسمى سيد سليمان فذكر لمندوب إحدى الصحف العربية وهى صحيفة ثمرات الفنون » : أن عدد الذين يدخلون فى الاسلام كل عام بهذه الطريقة يفوق الحصر والعد .

عادات المسلمين فى الصين :

من العادات التى يسير عليها المسلمون فى الصين أنهم يعيشون جماعة فى مدن وقرى مستقلة وأحيانا يكونون لأنفسهم فى المدن أحياء إسلامية منفصلة ولا يبيحون لغير المسلم أن يقيم بينهم مع أنهم يعيشون على هذا النحو من العزلة الى حد ما نراهم حريصين على أن يتجنبوا الظهور العلنى بأى مظهر خاص من مظاهر الشعائر الدينية الاسلامية التى قد تضايق جيرانهم كما أنهم حريصون على ألا يثيروا تعصب مواطنيهم من الصينيين .

والمسلمون فى الصين يلتزمون فى حياتهم العادية ما هو شائع حولهم من عادات وطبائع فهم يتخذون ظفائر الرأس والملابس الصينية المعروفة أثناء حياتهم العامة ، لكن عندما يدخلون المسجد يلبسون العمامة العربية فى المسجد فقط . وكذلك يتجنب المسلمون فى الصين بناء مآذن عالية فى أى مكان يبنون فيه تفادياً من إثارة تعصب الصينيين بل إن مساجدهم كانت فى معظم الأحيان تتفق مع المعمار الصينى ، فكانت فى الغالب لا تتميز بشىء عن معابد الصينيين أو منازلهم العادية ،مع أن القانون الصينى قد فرض أن يكون فى كل مسجد لوح للأمبراطور منقوش عليه « عاش الامبراطور الخالد إلى الأبد » وكانت لهم حيل عديدة فى التخلص من السجود أمام هذا اللوح أرضاء لضمائرهم وتفادياً من الأتهام بالوثنية . الواقع أن المسلمين قد أحتاطوا كل الحيطة كى لا يظهر دينهم بالمظهر المعارض لدين الدولة وقد نجحوا من أجل هذا فى تجنب الكراهية التى كان الصينيون ينظرون بها الى أصحاب الديانات الأجنبية كاليهودية والمسيحية ، بل كان المسلمون يصورون ديانتهم لمواطنيهم من الصينيين على أنها متفقة مع تعاليم كنفشيوس مع فارق واحد هو أن المسلمين يسيرون وفق تعاليم أجدادهم فى الزواج والجنازات وغسل الأيدى قبل وجبات الطعام وتحريم لحم الختزير والخمر والدخان ولعب الميسر ،

وكذلك كانت مؤلفات المسلمين الصينيين تمجد كتب كنفشيوس وغيرها من الكتب الصينية وتشير ما أستطاعت الى ما هنالك من الاتساق بين ما فى هذه الكتب الصينية وبين تعاليم الاسلام .

ومن أجل ذلك كانت الحكومة الصينية تعطى المسلمين من رعاياها دائما (عدا أوقات الثورة) نفس الحقوق والأمتيازات التى كان ينعم بها سائر أفراد الشعب لا يحرمون من أى وظيفة من وظائف الدولة فلهم الحق فى التعيين حكاماً للولايات وقواداً للجيش وفى مناصب القضاه والوزراء وأشتهر منهم فى مجال الفنون والعلوم كالرياضيات والفلك .

ومنهم أى ومن المسلمين رجال أعمال أذكياء وتجار ناجحون فهم يحتكرون تجارة لحوم البقر ويزاولون تجارات أخرى بنجاح عظيم [(١)] وعلى العموم فإنهم لا يتركون ناحية من نواحى الحياة القومية إلا ولهم نشاط بها ولديهم فرصة كاملة للقيام بالدعوة إلى الاسلام غير أنه لم يكن مباحاً لهم أن يدعوا الى لاسلام فى الطرقات كما يفعل البروتستانت ولكنهم كانوا يغتنمون الفرصة اذا ما سنحت لهم .

ومن أهم كتبهم التى نشروها فى مجال الدعوة فى الصين كتاب :

« الهداية الى قواعد الدين الصحيح » [(٢)] وهو كتاب يثنى على نشاط الدعوة الى الاسلام ويشير الى الذين دخلوا الاسلام حديثاً بين الوثنيين ، وبعض ضباط المسلمين يجعلون كثيراً من الجنود الذين يعملون تحت رئاستهم يعتنقون الاسلام وكذلك أصحاب المناصب من المسلمين يدعون مرءوسيهم الى الاسلام .

---

(١) صحيفة ثمرات الفنون ، ص ٢ طبعة بيروت سنة ١٣١١هـ .

(٢) نشر هذا الكتاب فى الصين سنة ١٦٦٨ م .

المسلمون وحكومة الجمهورية الصينية:

تأسست الجمهورية الصينية فى سنة ١٩١١م ومنذ ذلك التاريخ كانت تعترف بأن المسلمين يشكلون عنصراً من العناصر الخمسة التى تتكون منها الأمة الصينية وهذه العناصر هى :

١ ـ الهانيون (الصينيون الخلص) ٢ ـ المغول ٣ ـ المانشوريون .

٤ ـ الهوى (اى المسلمون بما فيهم الغوريون وغيرهم فى سنكيانج) .

٥ ـ التيبتيون .

وعلى هذا الأساس كان العلم الصينى الجمهورى يظهر فى خمسة ألوان متساوية هى الأحمر والأصفر والأبيض والأسود والأخضر وكان اللون الأبيض فى العلم يمثل العنصر الأسلامى فى الأمة الصينية .

كان ابو الجمهورية الصينية الدكتور (صويات سين) يوافق على هذا الترتيب فى الدستور الجمهورى واكد هذا الوضع فى احد بياناته التى القاها عن الثورة الوطنية فى الصين بالعبارات التالية :

« .. ان هدف (المبادىء الثلاثة للشعب) هو تحرير جميع الطبقات من الناس فى الصين على قدم المساواة بدون اى تمييز بين جنس واخر . ومن المعلوم ان ـ الهوى ـ كما يبدو من تاريخ الصين قد قاسوا اضطهادا اشد من الناس الاخرين (وهو يشير بهذه الكلمات الى الاضطهادات التى قاساها المسلمون الصينيون على ايدى الحكام المانشوريين) . ولأنهم قد قاسوا اكبر واوجع المصائب فى القرون الأخيرة فمن الطبيعى ان تكون روح نضالهم اقوى واشد . وعلى هذا لاساس ندعو المسلمين الى ان يستيقظوا الى هذه الحقيقة من الان فصاعدا . ان مساهمتهم فى الحركة الثورية الوطنية لازمة وذلك

لتحرير جميع القاطنين فى الصين من المظالم وعدم المساواة »[1] .

لقد رفع ابو الجمهورية المسلمين الى هذا المركز من الثقل فيما يتعلق بحركة الثورة الوطنية لانه كان يدرك ادراكا تاما الصفات العسكرية التى يتميز بها المسلمون والاهمية الجغرافية التى يحتلها شمال الصين الغربى الذى يقطن فيه اكثر المسلمين الصينيين ، فضلا عن وجود حاجة ملحة تدعو الى توحيد الصفوف بين جميع القوميات داخل الصين والى تحقيق تعاون اوسع يشمل المواطنين الصينيين تحت زعامة الدكتور (صون يات سين) وجميع الشعوب الاسلامية فى قارة اسيا كلها .

ولكن بعد توحيد الصين سياسياً وإدارياً قامت حكومة الجمهورية الصينية بالغاء العلم الصينى السابق من ذوات الالوان الخمسة الأحمر الأصفر والأخضر والابيضْ والاسود ، التى كانت ترمز الى خمسة عناصر قومية فى الصين وبدلته بعلم وطنى جديد برسم مكون من شمس بيضاء فى سماء زرقاء تسطع على ارض حمراء . والالوان الثلاثة فى هذا الرسم تشير الى « المساواة والعدالة والديمقراطية » يعنى الاخاء والوطنية والرفاهية أو الحرية والتضحية والقومية .

يقظة المسلمين فى الصين فى العهد الجمهورى :

لم تنفرج مأساة المسلمين إلا مع الثورة الوطنية الصينية التى قضت على الحكم المنشورى سنة ١٣٢٩هـ والتى ساندتها الجماهير الأسلامية وعاش المسلمون أنبعاثا إسلاميا ويقظة إسلامية أيام الحكم الوطنى من سنة ١٣٢٩ الى سنة ١٣٦٩هـ (١٩١١ ـ ١٩٤٩هـ) وأسترجعوا بعضاً من نفوذهم الذى أضاعه

---

(١) بدر الدين و.ل.جى ، مستشار السفارة الصينية فى جدة ، تاريخ المسلمين فى الصين فى الماضى والحاضر ، ص ١٣١، ١٣٢ .

الحكم المنشورى وأعادوا صلتهم بالعالم الأسلامى وأسسوا سنة ١٣٣١هـ (المنظمة الاسلامية الصينية التقدمية) فى بكين برئاسة الحاج (أهوند وانك) والتى ركزت نشاطها على تعميم التعليم الاسلامى واللغة العربية وبناء المدارس والمساجد وفى سنة ١٣٥٧هـ أسست المنظمة الاسلامية لعموم الصين والتى تراسها لواء مسلم عمل على إنشاء مجموعة صينية إسلامية لمواجهة الغزو اليابانى[1] .

عدد المسلمين وأماكن وجودهم:

لقد أجرى أول احصاء للمسلمين فى الصين ابان الحكم الوطنى سنة ١٣٥٥هـ وقد وجد حينذاك أن عددهم ٤٧,٤٣٧,٠٠٠ مسلم أى ما يعادل ١٠,٥٪ ولقد ادعى الحكم الشيوعى فى احصائه عام ١٣٧٢هـ ان عدد المسلمين لا يتعدى عشرة ملايين ولكن هذا الرقم لا يمثل فى الحقيقة سوى المسلمين الذين هم من عنصر غير صينى فى البلاد بينما لا يعطى الاحصاء عدد المسلمين الذين يشتركون مع البوذيين فى العرق واللغة .

فإذا فرضنا ان نسبة المسلمين اليوم لم تتغير منذ الاحصاء الوطنى قبل ما يزيد على نصف قرن ، يكون عدد المسلمين اليوم من الصين أكثر من مائة مليون مسلم . وينقسم المسلمون فى الصين الى ثلاثة أصول عرقية وهى :

(١) المسلمون الاتراك : وهم فى الصين الويفر والكازاخ والكرغيس والازبك والتتار والتراتش والسلار والسيبو والهيتشو . وتعيش أكثر هذه الشعوب فى تركستان الشرقية والمقاطعات المجاورة ولا يزيد عددهم جميعاً

---

(١) أنظر جريدة العالم الأسلامى التى تصدرها رابطة العالم الاسلامى بمكة المكرمة ، عدد الاثنين الموافق ٢٧ من مايو ١٩٩٦م ، من مقال للكاتب أحمد محمد عبد العظيم بعنوان (المسلمون فى الصين) .

على ١٥ مليون مسلم .

(٢) المسلمون الصينيون : ويسمون (هوى هوى) ويشتركون مع الصينيين فى اللغة والعرق ويوجدون فى جميع مقاطعاتهما خاصة المقاطعات الشمالية وتعد العاصمة بكين من أهم مراكزهم .

(٣) المسلمون الآخرون : وهم التاجيك . الذين يتكلمون اللغة الفارسية والمغول واللولو والسيهيا والتبتيون والطاوسان .

أما من حيث وجودهم فى المقاطعات فيكثر المسلمون فى الولايات الشمالية والغربية أكثر من الولايات الجنوبية فهم يكونون أكثرية السكان فى ولاية وشيانجن ٧١ وتزيد نسبة المسلمين على ١٠٪ ويمكن أن نقول بتلخيص ان عشر المسلمين يعيشون فى الولايتين اللتين يكونون فيهما أكثرية التركستان الشرقية وشنغهاى ، بينما يعيش عشر آخر فى الولايات التى توجد شمال شرق البلاد.. ويعيش ثلاثة أخماس المسلمين فى ولايات يكونون فيها أكثر من عشر السكان وأقل من ربعهم ، بينما ينتشر الخمس الأخير فى ولايات يكونون فيها اقل من عشر السكان [١] .

الثورة الشيوعية فى الصين سنة ١٩٤٩م:

نشبت الحرب بين الصين واليابان فى فترة الحكومة الوطنية وخلال هذه الحرب لم تستطيع الحكومة السيطرة على الولايات الشمالية وتركت أمورها فى يد القواد المسلمين ايماناً بأخلاصهم وولائهم للقضية الوطنية وأنهم يكرهون النفوذ الشيوعى الآتى من الاتحاد السوفيتى غير أن الحكومة الوطنية فى الصين

(١) جريدة العالم الاسلامى التى تصدرها رابطة العالم الاسلامى بمكة المكرمة عدد الأثنين الموافق ٢٧ مايو ١٩٩٦م من مقال للكاتب :
أحمد محمد عبد العظيم بعنوان (المسلمون فى الصين) .

بدأت تتعاون مع الاتحاد السوفيتى فى وقت الحرب وقد مهد هذا التعاون السبيل للشيوعيين لتثبيت أقدامهم فى هذه المناطق ولذلك فإن الولايات الشمالية النائبة من الصين قد سقطت فى أيدى الشيوعيين فى شتاء ١٩٤٩م[١].

وبعد تأسيس النظام الشيوعى فى بكين فى أواخر سنة ١٩٤٩م وسيطرته على الصين بأكملها ، أضطر المسلمون جميعاً الى البقاء فى الصين الام يعيشون مع جميع الصينيين تحت الحكم الشيوعى الغاشم فيها باستثناء بعض الافراد من ذوى الحظوظ الحسنة من الاغنياء نسبيا الذين تمكنوا من ايجاد التدابير للفرار من البر الصينى قبل فوات الاوان . وكان من بين هؤلاء الذين نجحوا فى الفرار من تقتيل الشيوعيين عدد صغير من الزعماء المسلمين العسكريين والسياسيين الذين لم يقبلوا غير زعامة الرئيس (تشيانج كاى شيك) ووقفوا بجانبه فى السراء والضراء وحاربوا فى سبيل الوطن وبقوا مخلصين للقضية الوطنية الكبرى تحت زعامة الرئيس (تشيانج كاى شيك) . وقد انتقلوا الى (تايوان) فى حين انتقلت اليها حكومة الصين الوطنية برجالها وعتادها ودواوينها . فاستقر بعضهم فى (هونج كونج) وسافر الجنرال عماد الدين ماهونج كوى الى (كاليفورنيا بالولايات المتحدة الامريكية) وحصل على الاقامة فيها كما لجأ الجنرال حسين ما بوفانج مع عائلته الى القاهرة واقام فيها سنوات عديدة ثم انتقل الى المملكة العربية السعودية بعد اعتراف الحكومة المصرية ـ الناصرية بالنظام الشيوعى فى بكين عقب الاطاحة بالملك فاروق من الحكم . وأما الذين هربوا من سنكيانج فقد لجأوا الى الهند اولا . ثم لجأ بعضهم الى تركيا والبعض الآخر الى المملكة العربية السعودية وبقى بعضهم فى الهند والباكستان . وكل هؤلاء يقضون حياتهم فى الخمول فى المنفى والغربة[٢] .

---

(١) أنظر بدر الدين و.ل.حى ، مرجع سبق ذكره ، صص ١٥١ ، ١٥٢ .

(٢) بدر الدين و.ل.حى ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٥٥ .

أوضاع المسلمين اليوم:

انتهى عصر الانفتاح الاسلامى فى الصين بقدوم الثورة الشيوعية التى لاحقت المسلمين فى كل ارجاء البلاد وعملت على القضاء عليهم وعلى مؤسساتهم ويمكن تقسيم الحكم الشيوعى للصين بالنسبة للمسلمين الى حقبتين :

* حقبة حكم (ماوتس تونج) التى امتازت بمحاولة القضاء على الاسلام وأهله ، وحقبة ما بعده حيث نلاحظ الان فيها انفتاحاً جزئياً نحو الاسلام .

* أما حقبة (ماو) فيمكن تقسيمها الى ٣ فترات مختلفة فيما يخص معاملة الدولة للمسلمين .

(أ) الفترة الاولى : التى ابتدأت بسيطرة الشيوعيين على البلاد عام ١٩٤٩ والتى انتهت ببداية الثورة الثقافية عام ١٩٦٦م .

(ب) الفترة الثانية : وهى حقبة الثورة الثقافية التى دامت من عام ١٩٦٦م الى عام ١٩٦٩ إلى موت (ماو) عام ١٩٧٦م .

أما الفترة الاولى فكانت متميزة بمجاملة المسلمين وتقبل وجودهم فى المظهر مع العمل على تقليص المؤسسات الاسلامية والسيطرة على جمعيات وعلماء المسلمين وقد اضطر فى هذه الحقبة كثير من الزعماء المسلمين الى الهجرة خارج البلاد كما عملت الدولة على حل الجمعيات الاسلامية الواحدة تلو الأخرى وحدت من حرية المسلمين الثقافية والدينية ثم قضت الدولة على جميع الجمعيات الاسلامية وحلت محلها عام ١٩٥٣م فى بكين ومنظمة مسلمى الصين وجمعية هوى الثقافية .

وكان رئيس المنظمة الاولى حاكم ولاية تركستان الشرقيه ورئيس المنظمة الثانية (الحاج برهان شيدى) احد كبار زعماء المسلمين وبقيت المؤسسات الاسلامية تعمل بما فيها الأوقاف كما بقيت المدارس الاسلامية مفتوحة فى جميع انحاء البلاد وأوقف الحج الى مكة المكرمة بين عام ١٩٤٤ و ١٩٥٣ ثم أوقف عام ١٩٥٨ ولم يفتح الاعام ١٩٨٠م وأسست عام ١٩٥٨م كلية للدراسات الشرقية . لكن ومع بداية عام ١٩٥٧ قامت الدولة بحملة منظمة ضد العقيدة الاسلامية والمسلمين واقفلت معظم المساجد ومنع الأذان لاول مرة ، كما سجن الائمة ومنع التعليم الاسلامى ثم بدأت الدولة عام ١٩٥٨م سياسة منظمة لاستعمار المناطق الاسلامية واعمارها بغير المسلمين خاصة فى تركستان الشرقية وخانوا ومنغولية .

أما الوضع فى تركستان الشرقية فقد ثار المسلمون عام ١٩٤٩م بزعامة (يول فارس خان ـ رعشمان باطور وكالين خان) كما ثاروا فى خانو عام ١٩٥٢م تحت زعامة (كاهين تاو ـ ريانج جين يون) لكنهم لم ينجحوا حيث وصل اضطهاد المسلمين اوجه فى الحقبة الثانية ابان الثورة الثقافية حيث احرقت المساجد وقتل الائمة بالمئات وبزقت الكتب وشتت زعماء المسلمين فى انحاء البلاد واقفل ما تبقى من المؤسسات الاسلامية من مدارس ومساجد وقد حاول المسلمون المقاومة وقاموا بمظاهرات فى جميع المناطق بما فيها بكين حيث كان شعارهم (يا مسلمى العالم اتحدوا) .

ولقد تحسنت هذه المعاملة شيئا ما بعد انتهاء الثورة الثقافية غير أن ذلك التحسن لم يؤد الى فتح المساجد التى اقفلت وحتى فى بكين لم يفتح إلا مسجد واحد لموظفى السفارات الاجنبية من بين عشرات المساجد التى كانت تزخر بها المدينة .

ولقد انفجرت كربة المسلمين بعد موت (ماوتس تونج) وتعمل الدولة اليوم على ارجاع بعض حقوق المسلمين .

ومنذ عام ١٩٧٧ أوقفت الدولة دعايتها ضد الاسلام وأخذت تفتح المؤسسات الاسلامية التى اقفلت من قبل فى جميع المناطق وذلك بمئات المدارس والمساجد . كما عينت عدة مسلمين فى اهم مراكز الدولة .

وشجعت المسلمين على ربط صلاتهم بالمسلمين خارج الصين ونلاحظ الآن بداية انتعاش للمسلمين فى الصين ورجعة للتعليم الاسلامى وتعليم اللغة العربية بعد اعادة فتح كثير من المدارس الاسلامية وهناك مجال جديد حقيقى للدعوة الاسلامية بين مسلمى الصين لم يستفد منه بعد مسلمو العالم [١] .

المسلمون فى بورما ، منطقة أراكان الاسلامية ،

كانت (اراكان) دولة اسلامية مستقلة فى جنوب شرق آسيا خلال الفترة من عام (١٤٣٠م) إلى (١٧٨٤م) وهى الآن تحت احتلال بورما البوذية المتحدة وواحدة من أربع عشرة ولاية ومقاطعة . يبلغ مجموع عدد سكان بورما البوذية اثنين واربعين مليونا منهم سبعة ملايين ونصف المليون مسلم ، منهم من يعرف بالروهنجيا يتمركزون فى أراكان وترجع اصولهم الى العرب والمور والترك والمغول والبشتون البنغاليين ويتكلمون لغة عامية تقال (روهنجية) مع خليط من الفارسية والعربية والأردية والبنغالية ويتوزع باقى المسلمين فى ولايات ومقاطعات اخرى فى بورما الأم .

وتبلغ مساحة اراكان عشرين الف ميل مربع ، تحدها بنغلاديش من

---

(١) جريدة العالم الاسلامى تصدرها رابطة العالم الاسلامى بمكة المكرمة عدد الاثنين الموافق ٢٧ مايو ١٩٩٦م مقال للكاتب: أحمد محمد عبد العظيم بعنوان : (المسلمون فى الصين) .

الشمال الغربى وخليج البنغال من الجنوب الغربى وامتداد سواحلها عليه ثلاثمائة وستون ميلا ، وهى مفصولة تماما عن باقى بورما بسلسلة جبال أراكان وبها غابات تنتج خشب التاك وبها ثلاثة أرباع انتاج العالم (١) من هذا الخشب الهام .

وقد تعرف أهل (أراكان) على الاسلام منذ القرون الأولى من الهجرة النبوية على صاحبها الصلوات والسلام عن طريق التجار او البحارة العرب الذين اعتادوا زيارة (اكياب) عاصمة أراكان عن طريق البحر بهدف التجارة او الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى . ومع مرور الزمن كان الاسلام قد تمركز فى قلوب الناس وارواحها فيما بين افريقيا وبعض مناطق سواحل المحيط الاطلنطى إلى البنغال وبذر فيها مجموعات القيم الاسلامية القوية وازداد عدد المسلمين وقوتهم الى ان استطاعوا اقامة اول دولة اسلامية فى اراكان بقيادة السلطان (سليمان شاه) فى عام ١٤٣٠م . وامتد الحكم الاسلامى فى هذا البلد أكثر من ٣٥٠ عاما . وتعاقب عليها نحو ثمانية واربعين سلطانا مسلما . وكانت شعارات الدولة ونياشينها تضمنت نقوشا عليها عبارات اسلامية ، كما نقشت على العملات المتداولة فى زمانهم كلمة التوحيد (لا إله الا الله محمد رسول الله) والآية القرآنية (وان اقيموا الدين) .

وفى عام ١٧٨٤م احتلتها بورما البوذية بعد ما ضعفت سيطرة المسلمين على السلطة وامتد احتلالها الى ان استعمرها البريطانيون فى عام ١٨٢٢م ، وعند رحيل البريطانيين فى عام ١٩٤٨م ومنحهم بورما الاستقلال التام الحقوا اراكان بها ضد رغبات أهلها الشعب المسلم الروهنجيا . ومنذ ذلك اليوم يقوم البورميون بتنفيذ حملات تطهير عرقى ضد المسلمين الروهنجيا شبيهة بتلك

---

(١) جريدة المسلمون ، عدد ٩٧ ، ٩٨ ، وانظر : د.جميل المصرى حاضر العالم الاسلامى ، ص ٥٨٩ .

التى تنفذ فى البوسنة وكشمير والشيشان والاماكن الأخرى من العالم ، من اجل تفريغ الارض من سكانها المسلمين وخلق ولاية بوذية تخلو من المسلمين تماما ليمنعوا اى خطر منهم فى المستقبل .

ولمتابعة هذه القضية قاموا منذ حصولهم على الحكم الذاتى فى عام ١٩٣٧م والاستقلال التام فى عام ١٩٤٨م بذبح ما لايقل عن ٣٠٠ ألف مسلم ونفى اكثر من مليون ونصف خارج اراكان وهم يعيشون الآن فى اجزاء مختلفة من العالم بما فيها بنجلاديش وباكستان والمملكة العربية السعودية وماليزيا وتايلاند ودولة الامارات العربية المتحدة .

وعملية التطهير العرقى ضد المسلمين الروهنجيا اصبحت خطيرة منذ قيام الاشتراكية الديكتاتورية بزعامة الجنرال (نى وين) فى عام ١٩٦٢م التى لم تترك سبيلا الاواتبعته لسحق المسلمين سياسيا واجتماعيا واقتصاديا وثقافيا بالاضافة الى خلق ظروف خانقة من خلال التعذيب الجسدى والارهاب الذى يدفع المسلمين الى هجر وطنهم اراكان . ففى عام ١٩٧٨م طرد اكثر من ٣٠٠ الف مواطن روهجنى بالقوة الى بنجلاديش اثر عملية شنتها الطغمة الحاكمة الاشتراكية العسكرية ضد المسلمين فى اراكان . وبعد عودتهم فى عام ١٩٧٩م اصدرت الحكومة البوذية قانونا جديدا للجنسية البورمية فى عام ١٩٨٢م حيث اصبح الروهجيا بموجب هذا القانون المزعوم شعبا بلا هوية وبلا مواطنة .

وبعد القلاقل التى عمت البلاد من اقصاها إلى اقصاها ضد الديكتاتورية الاشتراكية فى عام ١٩٨٨م استلم الجيش الحكم الذى قاد الحملة من الرعب ضد المسلمين فى اراكان من جديد ، ونتيجة لذلك اضطر اكثر من ثلاثمائة الف مواطن مسلم على مغادرة بيوتهم وبلدهم مرة اخرى الى بنجلاديش حيث

يعيش معظمهم فى مخيمات اقامتها الحكومة البنجلاديشية ، وخارجها فى الغابات والقرى المترامية على الحدود حيث يعانون انواعا من المشاكل الاجتماعية والسكنية والمعيشة والصحية والتعليمية .

ورغم توقيع اتفاقية العودة بين بورما وبنجلاديش التى تنص على عودة المهاجرين طواعية وتلزم الحكومة البورمية بتعويض المسلمين عن ما فقدوه والسماح لهم بحرية التنقل واعتبارهم مواطنين اصليين ، الا ان بنود الاتفاقية لم ينفذ منها شئ ، وبالعكس فقد ارسلت الحكومة جيشا ضخما الى المنطقة وأعطت لهم حرية مطلقة لممارسة اعمال الشغب والاضطهاد والابادة والاغتصاب ضد المواطنين المسلمين .

وعلى الرغم من ان الاتفاقية الثنائية بين البلدين كانت مشتملة على بند يعطى المهاجرين الحق فى العودة الطوعية وليس الاجبارية الا ان الحكومة البنجلاديشية مع الاسف لجأت الى اعادة التوطين القسرية وقتلت مئات المهاجرين بالرصاص كما اودعت آخرين مثلهم فى السجون لاحتجاجهم ضد هذا السلوك اللاانسانى .

وقد ادى موقف الحكومة فى بنجلاديش الذى يوصف بأنه بارد مع اخوتهم فى العقيدة فى اركان الى تشجيع الحكومة البورمية لتكثف عمليات التطهير العرقى ضد المسلمين ، فلجأت هى هذه المرة الى انتزاع المسلمين بالقوة من المناطق الداخلية وقلب التاريخ القديم من اراكان وزرعهم فى مدن على حدودها مع بنجلاديش . والمسلمون هناك يفقدون كل شئ الارض والممتلكات العامة والخاصة ـ فى عملية تراكمية منذ عقود ، وهم يقضون ايامهم وكأنهم فى سجن كبير بدون حرية فى التنقل داخل البلاد فهم محرومون من التنقل حتى من قرية الى اخرى بدون تصريح ، فضلا عن سفرهم الى

رانجون (العاصمة البورمية) وغيرها من المدن البورمية او الى خارج البلاد .

وبقيت (اراكان) مغلقة عن العالم الخارجى فى الوقت الذى نفذ فيه الجيش البورمى حملات بشعة من التقتيل والتعذيب خاصة ضد الشبان المسلمين ، ويجرى كل ذلك دون محاكمة . وقد بلغ عدد القتلى من الشباب فقط خلال عام ١٩٩٤ اكثر من ١٠٠٠ شخص فى أجزاء مختلفة من اراكان بالاضافة الى آلاف آخرين اقتيدوا إلى السجون والمعتقلات ليذوقوا العذاب الذى لا يتحمله بشر ، كما يجرى استخدامهم كدروع بشرية ويجبرون على القيام بنقاط مراقبة للمدفعية ضد الهجمات المحتملة للمجاهدين ، فتد خلت رابطة العالم الاسلامى وعدد من الحكومات العربية وطالبوا بورما بحل مشكلتهم بإعطائهم الحكم الذاتى وتكونت فى أركان جبهة تحرير مسلمة تجاهد من أجل الحصول على الحكم الذاتى فى شمال أراكان ضمن دولة بورما .

والى جانب هذا فقد اقيم المزيد من المستوطنات البوذية على الاراضى التى اجلى عنها المسلمون فى الآونة الاخيرة ويتم تشجيعهم على مضايقة المسلمين ، ففى الثانى من شهر تشرين الثانى (نوفمبر) فى العام ١٩٩٤ دمرت اربعة مساجد وعدة منازل ومحال تجارية فى (اكياب) ، عاصمة اراكان فى عمليات شغب قادها رهبان بوذيون وتلاميذ مدارس حكومية . وكذلك تفرض اعمال السخرة اللاانسانية على المسلمين ، والمسلمون يعاملون اسوأ من معاملة العبيد ويعرضون للضرب والقتل العشوائى خلال اعمال السخرة . واما النساء المسلمات فيتعرض للاغتصاب والاساءة والمس بكرامتهن على يد قوات الامن ، ولا يسمح لهن بارتداء الحجاب ، ويحدد سن الزواج ، ويجبرن على تعاطى حبوب منع الحمل ، وكثير منهن اجبرن على الزواج من

افراد قوات الامن البوذيين ، كما تجبر النساء المسلمات على العيش فى مخيمات اقيمت بواسطة قوات الامن تحت زعم التدريب المهنى كالخياطة والتمريض ، وهنالك يتعرضن للاغتصاب والاهانة ويتم مضايقة علماء الدين وتعذيبهم وكثيرا ما يحلقون لحاهم ، ويجبرون على اصدار فتاوى مخالفة للدين .

هذه هى صورة من الحالة الواقعية التى يعيشها المسلمون فى اراكان فى (بورما) فالنظام البورمى الحاكم مصمم على ازالتهم حتى تتحول اراكان للابد الى جزء بورمى يخلو من المسلمين تماما . فقد اصبح وضع المسلمين فى خطر حقيقى حيث لا أمان على الحياة او الممتلكات او الشرف والكرامة . وبالرغم من ذلك كله فقد تبقى المشكلة شبه منسية على مستوى العالم ، وتبقى مأساة امة يدفعها الاعداء الى حافة العذاب والفناء مشكلة لا يعرف عنها العالم كثيرا ولا يفهمها ، بل ويحاول ان يتناساها ؟ مع الاسف حتى العالم الاسلامى لا يعطيهما حقها من الاشهار والفهم [1] .

---

(١) عن تقرير لمجلة العالم التى تصدر فى لندن ، كتبه من بورما : دين محمد أبو البشر ، ممثل منظمة تضامن الروهنجيا بأراكان .

العالم الاسلامى بعد حرب الخليج:

بعد حرب الخليج سنة ١٩٩١ سقط الاتحاد السوفيتى دون حرب ، وسقطت النظرية الشيوعية بعد فشلها الاقتصادى ، وتربصت الدول الاستعمارية ليقظة العالم الاسلام ، وحاول كتاب الدول الاستعمارية استعداء ساسة بلادهم عليها ، وأصبح الطريق مهيئا لذلك بعد انفراد الولايات المتحدة الأمريكية بالزعامة فى العالم وأطلقت على هذه الزعامة الجديدة « النظام العالمى الجديد» وهو نظام أحادى القطبية تتحكم فيه الولايات المتحدة الأمريكية على الأمم المتحدة وتحاول أن تنفرد بحل المنازعات فيه ليس على حسابها وإنما على حساب غيرها كما حدث فى حرب الخليج التى كانت مدفوعة التكاليف من جيوب الدول العربية البترولية ، وفى النهاية جلبت هذه الحرب تواجدا عسكريا استعماريا مستمرا ومدفوع الأجر على حساب الدول البترولية وخاصة للقوات العسكرية الأمريكية .

فقد أقامت أمريكا القواعد الأرضية ونشرت الأساطيل فى مياة الخليج العربى فتوجد حوالى ٤٠سفينة حربية وتوجد حوالى ٢٥٠ طائرة حربية فى قواعد وعلى متن حاملات الطائرات (وهى كما تقول مصادر وزارة الدفاع الأمريكية تمثل أكبر قوة جوية ضاربة فى العالم هذا بجانب ٢٠ ألف من القوات البرية والبحرية المرابطة فى الكويت وبعض دول الخليج .

وبدأت الولايات المتحدة تحاول الهيمنة على المنطقة العربية بأسرها ، وإذا لم تتمكن من الانفراد بالأمر فإنها تتعاون فى كل منطقة مع دول الاحتلال القديم لهذه المنطقة ففى العراق والسودان مثلا تتعاون مع بريطانيا ، وفى الجزائر تتفاهم مع فرنسا ، وفى كل المجالات تتعاون مع اسرائيل التى تم زرعها وتقويتها فى المنطقة العربية لإرهاب العرب .

واصبحت هذه القوى المتحالفة تحاول ادارة مؤامرات معقدة تشعل الفتن فى داخل الوطن العربى وتطيل أمدها حتى تغنيها عن التدخل العسكرى المباشر لاضعاف البلاد المعنية وإخضاعها .

وهذا ما حدث فى الصومال بعد سقوط حكومة زياد برى بدأت سياسة تفتيت الصومال بين قوتى على مهدى وعيديد حتى العاصمة (مقديشيو) تم انقسامها بينهما ، وقتل عيديد فى أواخر عام ١٩٩٦ وتولى مكانة إبنه حسين عيديد واستمر الانقسام واستمر القتال .

وفى لبنان امتدت الحرب الأهلية حوال ١٥ سنة والاستعمار يمد كل الأطراف بالسلاح والمال لتخريب البلاد ونفس الأسلوب مع الأفغان بعد تحرير بلادهم من الروس توجد فى افغانستان عدة جبهات ، وما زالت الحرب مستمرة وفى شمال العراق فى أراضى كردستان الحرب مستمرة بين طوائف الأكراد وهى ليست لصالح الأكراد ولا لصالح العراق ، وإنما لصالح التفتيت والتقسيم .

ويجرى الآن فى أواخر سنة ١٩٩٦ واوائل ١٩٩٧ تدبير خطط لتقسيم السودان ، ومن روائها أمريكا وبريطانيا وإسرائيل بمساعدة أرتيريا وأثيوبيا وأوغندا .

وحرب استنزاف جارية فى الجزائر منذ عام ١٩٩٢ عقب إلغاء نتائج الانتخابات التى فازت فيها جبهة الانقاذ الاسلامية وعشرات الألوف من القتلى من الحكومة ومن التيار الاسلامى جعلت الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية تنهار فى الجزائر حتى وصل معدل البطالة فى مطلع عام ١٩٩٧ ٣٠٪ وتدنى مستوى المعيشة ، وذلك بقصد ضرب اليقظة الاسلامية فى الجزائر لأن الجزائر دولة محورية لها أثر قيادى ومباشر فى المغرب العربى وفى غرب

أفريقيا ، وإضعاف هذا البلد الكبير أو تفتيت وحدته (إن أمكن) هدف استراتيجى لدول الاستعمار ، وبذلك فقدت الجزائر قوتها بسبب هذه الحرب الأهلية المدمرة ، والجامعة العربية تتفرج وغير قادرة على التدخل فى كل هذه المشاكل بسبب قيادة عصمت عبد المجيد الذى لا يحرك ساكنا وسنه لاتساعده على ذلك (٧٥ عاما فى مطلع ١٩٩٧) .

وصاغ كتاب الغرب نظريات لتبرير الهيمنه على العالم الاسلامى من بينها نظرية العدو البديل الذى يحل محل الشيوعية ، وقالوا بأن هذا العدو وهو الاسلام فيجب محاصرة دوله وإخضاعها بالقوة وخاصة الدول التى تطبق الشريعة الاسلامية فى نظامها القانونى والاجتماعى فمثل هذه الدول تتهم بالارهاب ويعمل الغرب وأعوانه عليها حصارا إقتصاديا لكى تترك هذه القوانين وتعود إلى بيت الطاعة الغربى وإذا لم يجد معها هذا الحصار فإن هذه الدول يفرض عليها الحذر فى مجال الطيران وهكذا يضيقون عليها الخناق ويسلطون عليها المعارضة ويمدونها بالسلاح إلى أن تخضع وهذه الصورة واضحة فى حالة السودانى .

وبعض الدول الاسلامية يسيطر الغرب على جيوشها مثل الجزائر وتركيا وفى هذه الحالة يترك الأمر للجيش يتدخل فى الوقت المناسب كما تدخل عدة مرات فى تركيا لاعادتها إلى العلمانية وإلى معسكر الغرب ويتدخل الآن بقوة عندما وصل التيار الاسلامى إلى الحكم فى ظل « حزب الرفاة » بزعامة (نجم الدين أربكان) ونجح فى اقصائه عن الحكم .

أما فى حالة الجزائر فإن الجيش تدخل سنة ١٩٩٢ وألغى الانتخابات التى فازت فيها جبهة الانقاذ الاسلامى وكذلك تدخل الجيش فى نيجيريا وألغى فوز مرشح لرئاسة الجمهورية هو (مسعود أبيولا) وبعض الدول

الأخرى تقوم السلطات العسكرية القائمة بتزوير الانتخابات كما يحدث عندنا في العالم العربي ، ويفوز مرشحو الحكومة .

وفي هذا الجو تقوم القوى العسكرية المسيطرة على الأوضاع في العالم الاسلامي بتنحيه القوى الوطنية الاسلامية وإبعادها عن السلطة وتقديم القوى العلمانية في الصحافة والحكم وأحيانا القوى الشيوعية التي ارتدت مؤخرا ثوب العلمانية ، ويتحالف هؤلاء مع الغرب المسيطر ويكفونه مؤنة استعمار أي بلد إسلامي ويحكمون هذه الدول بالنصائح الملزمة من الدول الاستعمارية ، ومع ذلك ومع سياسة تكميم الأفواه فإن اليقظة الاسلامية واضحة الظهور في العالم الاسلامي .

ثورة الاتصالات لاختراق العالم الاسلامي :

على الرغم من فوائد ثورة الاتصالات في مجال المعلومات إلا أن لها وجه سلبي حيث أصبح التليفزيون أداة خطيرة للاختراق والتغيير في نمط الحياة والسلوك ، وهذا ما تؤكده وتعول عليه المصادر الغربية ذاتها . فقد أعلنت صحيفة الصنداي تايمز البريطانية في عددها الصادر بتاريخ ١٩٩٥/١/١ عن سعادتها في تقرير مفصل كان عنوانه : « سلاح الغرب السري ضد الاسلام » والتقرير كله عن الأطباق الهوائية اللاقطة للإرسال التليفزيوني الغربي (الدش) وفيه ذكرت بسعادة أنه يتم تهريب عشرة آلاف طبق لاقط إلى إيران كل عام ، وأن في الجزائر مائة ألف طبق وهذه الأطباق هي جسر التغيير المنشود لصالح الثقافة الغربية ، ومن ثم عملية التغريب المنشودة[1] .

---

(١) فهمي هو يدي ، من مقال له في الأهرام بعنوان « للكل تدق الأجراس » بتاريخ ١٩٩٧/٢/٤ .

ولذلك ظهر فى مصر طائفة من الشباب (فى عام ١٩٩٦ وأوائل ، عام ١٩٩٧) تعبد الشيطان أو ما يطلق عليه « الديانة الابليسية » وتلقى هؤلاء الشبان معارفهم عن هذه الديانة عن طريق شبكة « الإنترنت » واضطرت الحكومة إلى القبض على زعمائهم مؤخرا (يناير ١٩٩٧) وكانت هذه الأنشطة الابليسية معروفة ، وبعضها ثابت فى محاضر الشرطة منذ أكثر من عام فضلا عن أن حفلاتهم وأنشطتهم كانت تتم فى أماكن عامة فى قلب العاصمة، ومع ذلك لم يتم التحرك الأمنى إلا بعد أن ضج الناس بالشكوى .

وسبب إنتشار هذه الديانة فى نظر البعض [١] غياب المشروع القومى الذى يستثير حماس الشباب ويجذبهم ويجسد لهم الحلم الذى يضئ وجدانهم ويلهب خيالهم ، الأمر الذى أصابهم بالاحباط والحيرة ، خصوصا فى ظل التخبط الراهن ، بالاضافة إلى الفراغ الشديد الذى يعانى منه الشباب ، فالجذب السياسى يصدهم ولا يغريهم ، والعمل الطلابى إذا أخذ مأخذ الجد فإنه لا يخلو من مخاطر باهظة التكلفة تهدد مستقبل الطلاب أحيانا وتؤدى بهم إلى السجون ، وانعدام التربية فى المدارس .

ومن ناحية أخرى تدهورت الثقافة الدينية لدى الطلاب وهى التى تمثل أحد خطوط الدفاع التى تحصن الشباب ضد الانحراف ومن أسف أن المواجهات الأمنية التى تحدث مع التطرف والإرهاب أثرت بشكل سلبى ليس فقط على النشاط الدينى ولكن إيضا على موقف السياسة التعليمية من هذه الناحية ، وهو الموقف الذى انحار بدرجة أو أخرى إلى سياسة تجفيف الينابيع. مع اشتداد حمله التغريب وهتك الهوية واقتلاع الجذور والانقطاع عن الأصول ، وهو ما يتم باسم اللحاق بركب التقدم تارة ، وباسم التحلل من

---

(١) فهمى هويدى الكاتب الصحفى والمفكر الاسلامى .

عبء التراث تارة أخرى . الأمر الذى أدى إلى تخبط الخطاب الاعلامى ، وعدم وضوح النموذج الذى يتطلع إليه مما أدى إلى تكريس الحيرة والضياع ، واجتراء البعض على المقدسات ، وهو الاجراء الذى نلمسه فى كتابات وأدبيات عديدة نالت من المرجعيات الايمانية والاعتبارات الأخلاقية ، وقد برر ذلك مؤخرا مسؤل إحدى مطبوعات الاثارة فى مصر ، حين لفتت نظره قارئه إلى الفواحش التى ينشروها ، فكان رده : إنهم يريدون كسر « التابو » وكلمة التابو تعنى المحرمات والمقدسات ، ومن شأن هذا المنطق تسويغ الانفلات بغير ضوابط[1] .

وأخيرا فإن تركيز الدولة على الأمن السياسى دون الأمن الاجتماعى كان سببا دافعا للشباب فى هذا الاتجاه .

(١) فهمى هويدى المرجع السابق ، ذات المكان .

المسلمون في تايلاند

منطقة فطاني الإسلامية

منطقة فطاني الإسلامية تتبع دولة تايلاند في جنوب شرقي آسيا ، وتقع بين ماليزيا وتايلاند في جنوب تايلاند ، وهي جزء من شبه جزيرة الملايو ، وتنتمي فطاني إلى المجموعة الملاوية ، ويتكلمون اللغة الملاوية ، ويكتبونها بأحرف عربية ، وتضم لغتهم الكثير من الكلمات العربية .

واللغة هي إحدى المشكلات الرئيسية لأهل فطاني ، إذ تصر تايلاند على أن تكون اللغة التايلاندية هي لغة السكان جميعا باعتبارها اللغة الرسمية ، ويصر الفطانيون على المحافظة على لغتهم وعلى كتابتها بالحروف العربية ، ويعدون ذلك جزءا من كيانهم الذي لا يمكنهم التنازل عنه .

وتضم فطاني أربعة أقسام إدارية ، هي :

١ . **فطاني** : وهي أصغر الأقسام وعاصمتها مدينة فطاني التي تعد أكبر ميناء بحري وجوي في البلاد ، وقد حملت المنطقة كلها اسم المدينة .

٢ . **بنجارا** : وهي على ساحل بحر الصين الجنوبي ، ومركزها مدينة بنجارا ، وتلي القسم السابق من حيث المساحة .

٣ . **جالا** : وهي منطقة داخلية تحيط بها ماليزيا من الجنوب والغرب .

٤ . **ساتول** : وهي أكبر المقاطعات وأوسعها ، وتشمل جزءاً يشرف على بحر الصين من الشرق وبحر اندمان من الغرب .

ويتبع فطاني أراضي أخرى غير المقاطعات الأربعة التي سبق ذكرها .

ويبلغ عدد سكان فطاني أكثر من ثلاثة ملايين ، ونسبة المسلمين أكثر من ٨٠ ٪ أي حوالي ثلاثة ملايين ، بالإضافة إلى مليونين من المسلمين نقلوا حول بانكوك عاصمة تايلاند ، وحوالي مليون أخرى في المناطق الأخرى من تايلاند [١] .

ودخل الإسلام إلى فطاني عن طريق التجارة في فترة النشاط التجاري الإسلامي مثلها مثل غيرها من مناطق جنوب شرقي آسيا ، عن طريق الدعاة من شبه جزيرة العرب من الحضارمة ، وأسسوا المواني على شواطئ فطاني وعن طريق (ملقا) وذلك في حوالي القرن الخامس الهجري ، وزاد انتشاره في القرن التاسع الهجري .

وكانت فطاني مستقلة في البداية ولها علاقات تجارية مع كثير من الدول الأوربية ، فقد أقامت علاقات مع البرتغال عام ٩١٩هـ ، وكانت قد دخلت ملقا عام ٩١٧هـ ، وأقامت فطاني علاقات مع اليابان عام ١٠٠٩هـ (١٦٠٠م) ومع هولندا عام ١٠١٨هـ (١٦٠٩م) ومع انجلترا عام ١٠٢١هـ (١٦١٢م) ، وكان لهؤلاء جميعا مراكز تجارية في عاصمة فطاني [٢] .

وحاولت تايلاند احتلال فطاني عام ٩١٧هـ (١٥١١م) ، ولكنها انسحبت منها ، وعاودت الاعتداء عليها من الشمال سنة ١١١٢هـ (١٧٠٠م) ودخلت فطاني العاصمة في عام ١٢٠١هـ .

وبدأت ثورة المسلمين ضد تايلاند عام ١٢٠٢هـ ، وكانت تايلاند تحاول

---

(١) دكتور محمد السيد غلاب وآخرون ، البلدان الإسلامية ، مرجع سبق ذكره ، ص ٦٠١ - ٦٠٢ .

(٢) المرجع السابق ص ٦٠٢ .

تهجير المسلمين جبراً من مناطقهم إلى مناطق أخرى حول بانكوك وغيرها لإذابتهم في المجتمع البوذي ، ولم يستسلم المسلمون ، وإنما ثاروا .

الإنجليز يسلمون فطاني لتايلاند:

كانت بريطانيا قد فرضت نفوذها على فطاني ، ولكنها في عام ١٩٠٩م سمحت رسميا لتايلاند أن تستولي على فطاني ، وكان مسلمو فطاني يفضلون أن يكونوا تحت السيطرة الإنجليزية خير لهم من السيطرة البوذية ، وكان من الطبيعي إضافة فطاني إلى ماليزيا لأنها مسلمة وهم مسلمون ، ولأن الشعب الماليزي مالوي وهم مالويون ، لكن بريطانيا تفضل أن تذيق المسلمين الويلات ، وأن تكون الضربات بأيد غير نصرانية خوفا من ردود الفعل في العالم الإسلامي ضدها مما يكون له آثار سلبية على نفوذها ومصالحها .

لكن الشعب الفطاني المسلم استمر في نضاله وأضرب الفطانيون عن دفع الضرائب عام ١٩٢٣م فأخمدت الحركة ، وفي عام ١٩٣٢م تغير نظام الحكم في تايلاند إلى ملكي دستوري ، فانتهز الفطانيون الفرصة وتقدموا للحكومة الجديدة بمطالبهم على يد الزعيم **محمد سولنج** ، ومنها :

- تعيين حاكم واحد على المقاطعات الأربع الإسلامية يكون من أهل البلاد .
- تعيين ٨٠ ٪ من الموظفين من المسلمين في فطاني .
- الاعتراف باللغة المالوية في الولايات الفطانية .
- الاعتراف بالشريعة الإسلامية في الولايات الفطانية .
- تكوين مجلس إسلامي في الولايات الفطانية له صلاحيات واسعة .

فرفضت الحكومة التايلاندية مطالب الفطانيين ، فقامت على أثر ذلك ثورة عارمة سنة ١٩٣٣م ، نقضى عليها التايلانديون [1] .

فطاني إبان الحرب الثانية :

وإبان الحرب العالمية الثانية اكتسحت اليابان جميع الشواطئ الشرقية لتايلاند وفطاني وماليزيا ، في سنة ١٩٤١م ، وسمح التايلانديون لليابان بالمرور لقوات اليابان في أراضي تايلاند للزحف على بورما وبقية بلاد الملايو ، وشجعت اليابان الحركات القومية ، وأثارتها ، فوجدت القومية الملاوية الفرصة ، وأعد رئيس الوزراء التايلاندي قوة من الجيش لترسيخ السيطرة على فطاني ، وأخذ يشجع الشعب الملاوي لإعادة دولة تايلاند العظمى ، فأمر عام ١٩٤٤ بإلغاء إدارة القضاء الإسلامي المعمول بها لدى المسلمين في الأحوال الشخصية ، وفرض الأخذ بالنظم الخاصة بالشئون المدنية للدولة طبقا لقرارات المحاكم السياسية التايلاندية [2] .

فقامت حركة مقاومة شديدة بزعامة الحاج **محمد سولونج** بن عبد القادر ضد حركة الهيمنة على فطاني وجعلها سيامية والاعتداء على الدين الإسلامي وإزالته ، وتشكلت هيئة إسلامية في عام ١٩٤٤م سميت « **هيئة تنفيذ الأحكام الإسلامية** » وذلك لإيجاد التعاون بين علماء الدين المسئولين ضد حكومة تايلاند ، وطالبوا بتعيين حاكم مسلم على فطاني .

وعلى الرغم من احتجاجات رجال الهيئة الإسلامية على إجراءات الحكومة التايلاندية ضد المسلمين ، إلا أن الحكومة أيدت الاجراءات المتخذة

---

(١) د. جميل المصري ، مرجع سبق ذكره ، ص ٥٩٨ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٥٩٨ – ٥٩٩ .

ضد الدين الإسلامي [١] .

واستعانت بريطانيا بالأمير المسلم **محمود محيي الدين** زعيم فطاني على مقاومة اليابانيين إبان الحرب العالمية الثانية ، ووعدت المسلمين في فطاني بالاستقلال بعد الحرب ، ووقف المسلمون إلى جانب بريطانيا ، ودخل الإنجليز فطاني بعد هزيمة اليابان ، ولكن كالعادة في جميع بلاد المسلمين نكث الإنجليز بوعودهم ، ومكنوا الحكومة التايلاندية البوذية من فطاني ، وهي التي وقفت مع اليابانيين أثناء الحرب !! [٢] .

وقامت حكومة تايلاند بتهجير البوذيين إلى فطاني لخلخلة السكان المسلمين ، ونقل المسلمين إلى أماكن البوذيين ومحو الشخصية الفطانية المسلمة، ، فقامت حركة جهادية ضد هذه الإجراءات ، وتكونت منظمات وأحزاب سياسية في سنة ١٩٥٨م (١٣٧٨هـ) فتم إلقاء القبض على الزعماء وإيداعهم في السجون ، وقتل البعض الآخر ، وتم الاستيلاء على أخصب الأراضي وإعطائها للبوذيين ، كما سيطرت الحكومة على التعليم ونشرت اللغة السيامية بدلا من اللغة الملاوية وهي لغة أهل فطاني ، وأغلقت الكتاتيب والمدارس التي يتعلم بها أبناء المسلمين الإسلام ، واشترطت اللغة التايلاندية للحصول على وظائف الدولة ، ونشرت المعابد البوذية بين المسلمين ، واتهمت المسلمين بالشيوعية لتبرر القبض على من تريد .

المقاومة العسكرية :

في مواجهة القهر التايلاندي لشعب فطاني المسلم قامت حركة مقاومة

---

(١) محمد ضياء « المجاهدون في فطاني » ص ٨٩ ، والمرجع السابق ص ٥٩٩ .

(٢) محمود شاكر ، المسلمون تحت السيطرة الرأسمالية ، ص ١٣٥ .

عسكرية لتحرير الوطن الفطاني ، ولها جناح عسكري وآخر مدني ، وتكونت أربع جبهات ، هي :

١. **الجبهة الثورية الوطنية لتحرير فطاني** ، أسست في عام ١٩٦٠م .

٢. **المنظمة المتحدة لتحرير فطاني** ، وأسست في عام ١٩٦٨م .

٣. **الجبهة الوطنية لتحرير فطاني** ، وتكونت سنة ١٩٧١م .

٤. **الحركة الإسلامية الفطانية** ، تكونت في ١٩٧٥م .

وأصبح هناك جيش تحرير فطاني مسلم في جبال بودرو الشاهقة ومنطقة الغابات ، بجانب هذا أصبحت قضية الشعب الفطاني المسلم من القضايا المعروضة على مؤتمرات القمة الإسلامية ضمن قضايا الأقليات المسلمة في العالم .

وأصبح للمقاومة جيش تحرير تتلخص مطالبه فيما يلي :

١ ـ المطالبة بالاحتفاظ بشخصيتهم بإعلان إسلامهم والدعوة له .

٢ ـ التحدّث باللغة الملاوية المكتوبة بالحروف العربية .

٣ ـ الاحتفاظ بالزي الإسلامي والثقافة الإسلامية .

٤ ـ حكم بلادهم بأنفسهم .

ولكن الحكومة التايلاندية البوذية عملت على تهجير المسلمين وتذويبهم في المجتمع البوذي ، ومحو الطابع الإسلامي ، وإرغامهم على اتخاذ الأسماء والألبسة والتقاليد البوذية واستعمال لغة تايلاند ، وتوطين البوذيين في بلادهم ، وبنت قواعد عسكرية في بلادهم ، وحرق الأحياء الإسلامية وقتل

سكانها تقلا جماعيا .

سياسة التعليم :

لمّا كانت المدارس الحكومية البوذية في تايلاند يقوم فيها مدرسون وثنيون بتدريس الديانة البوذية مادة إجبارية في المرحلتين الإبتدائية والثانوية ، فقد امتنع أكثر المسلمين من إرسال أولادهم إلى المدارس الحكومية ، وكذلك نظراً لفقرهم ، فأدى ذلك إلى انتشار الجهل والفقر والمرض بين المسلمين ، وأدى ذلك إلى انخراط أبناء المسلمين في الحزب الشيوعي (الاشتراكي) الذي يتوده زعماء شيوعيون في تايلاند ، أو في الأحزاب العلمانية .

الحكومة تتراجع :

ونظرا لقوة كفاح المسلمين في فطاني فإن الحكومة أعلنت مشروعا لتطبيق القوانين الإسلامية في فطاني عام ١٩٨٢م في مسائل النكاح والطلاق والتوريث ، واشترطت للذين يعينون من المسلمين في مناصب القضاة الحصول على الشهادة المتوسطة التايلاندية ، وسوى القاضي الفطاني مع نظيره التايلاندي .

ومع أن هذا المشروع يعد إيجابيا وصل إليه المسلمون بدماء شهدائهم ، إلا أنه يحمل بذور الفشل باشتراطه على القاضي المسلم الحصول على الشهادة المتوسطة التايلاندية ، ويندر وجود الحاصلين على هذه الشهادة من بين علماء المسلمين في فطاني ، ومعنى هذا أن الحكومة ستجد الموالين لها في منصب القاضي المسلم .

وكان هناك هدف خبيث وراء إصدار هذه التشريعات ؛ وهو إضعاف

حركة الجهاد بإعلان أن مشاكل المسلمين تم حلها في التعليم والتشريع والوظائف ، ولم يعد هناك داع للمقاومة والجهاد .

وعلى الرغم من ذلك فما زال الجهاد الفطاني مستمراً ، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
ـ المغرب العربي	١٥٨
ـ تونس	١٦٣
ـ الجزائر	١٧١
ـ المغرب	١٧٦
ـ الطريقة القادرية	١٨٨
الفصل السابع	
ـ اليقظة الإسلامية في النيجر ونيجيريا والكاميرون	١٩٣
ـ حركة الإصلاح على يد عثمان فوديو	١٩٥
ـ الطريقة التيجانية	٢٠١
ـ الإسلام في شرق أفريقيا	٢٠٣
ـ المسلمون في القرن الأفريقي	٢٠٩
ـ دول التراث الإسلامي	٢١٣
ـ جبهة تحرير أرتريا	٢١٩
ـ الصومال	٢٢٧
الباب الثالث	
ـ المسلمون في جنوب شرقي آسيا والهند والصين وبورما	٢٣١
الفصل الثامن	
ـ الإسلام في الشرق الأقصى	٢٣٣
ـ استعمار جزر الهند الشرقية	٢٣٨
ـ استعمار فلبين وأندونيسيا	٢٤٢

الموضوع	الصفحة

الفصل التاسع

رقم الإيداع بدار الكتب

٩٧/١١٧٧٦

I.S.B.N
977 - 19 - 4531 - 9